الدكتور محمد شامه

فى
رحـــاب القــرآن

« الجزء الأول »

الطبعة الأولى ١٩٨٨



للنشر والتوزيع

١٦ شارع البورصه ــ التوفيقية ــ
ص . ب : ٢٥١٥ القاهرة ت : ٧٥٢٢٢٤
عمارات أبو الفتوح ــ عمارة ٣٩
شقة ٤ الهرم ت : ٨٥٩٥٥٦

بســم الله الرحمــن الرحــيم

مقـــــــــــدمة

احتـل الإسـلام على مدى أربعة عشر قرنا مركزا هاما فى ساحة الفكر البشرى، فتنـاولته الأقلام فى جميع المؤسسات الثقافية والدينية بالشرح والتحليل ، غير أن طابع هذا العمل الفكرى فى القرون الوسطى كان فى معظم الأحيان هجوميا من جانب غير المتدينين به ، فصوره كثير من آباء الكنيسة بصورة ، نفّرت منه من كان يسمـع اسمـه ، ووصفـوه بأوصاف بعيدة عن حقيقته الواقعية ، حتى شوهت صورته فى أذهان كثير من المجتمعات التى ليس لها اتصال بالشعوب الإسلامية . كما ساعدت الصراعات المسلحة فى تلك القرون على تشويه صورة الإسلام فى نظر أولئك الذين لم يسمعوا عن الشعوب الإسلامية شيئا سوى ما وصلهم من أخبار ميادين القتال المليئة بالقصص المبالغ فيها عن القتلى والجرحى ، ومن الروايات المغرقة فى الخيال عن التقاء الجيوش بعضها ببعض فى ساحة المعارك المســلحة .

ولم يكن من الممكن للرجل العادى أن يصل إلى حقيقة الإسلام ، لأن الصورة المشوهة التى رسمها الباحثون آنذاك ، وأخبار الصراع المسلح بما لها من سيطرة على النفوس ، وعدم الاتصال المباشر مع الشعوب الإسلامية ، كانت حواجز تمنعه عن الوصول إلى هذه الحقيقة ، وعقبات تعرقل سيره ، لو أراد يوما الاتجاه إلى المنبع الـذى يعـطيه الصورة الواقعية للإسلام . . . حتى جاء عصر النهضة ، فتحرر الكُتّاب من القيود التى كانت مفروضة عليهم فى بحث الإسلام ، فتناوله كثير من الفـلاسفة والاجتماعيين والسياسيين والاقتصاديين ورجال الأعمال فى بحوثهم ، بعضهم عالجه كجزئية ضمن عديد من قضايا بحثه ، بينما احتل صفحات كثيرة عند آخرين .

كان الغرض من هذه الأبحاث فى بعض الأحيان بيان الازدياد المطرد فى قوة العالم الاسلامى ، كما جاء فى تعبير « باول شمز » فى كتابه : « الإسلام قوة الغـد العالمية » . حين قـــال :

سيعيد التاريخ نفسه مبتدئا من الشرق ، عودا على بدء ، من المنطقة التى قامت فيها القوة العالمية الإسلامية فى الصدر الأول للإسلام ، وستظهر هذه القوة التى تكمن فى تماسك الإسلام ووحدته الفكرية ، وستثبت هذه القوة وجودها إذا ما أدرك المسلمون كيفية استخراجها ، والاستفادة منها . وستقلب موازين القوى ، لأنها قائمة على أسس لا تتوافر فى غيرها من تيارات القوى العالمية .

وقد أدرك المفكر البريطانى « جورج برناردشو » مدى فاعلية هذه القوة ـ معارضا بذلك كثيرا من الأحكام السطحية عليها ـ حين كتب :

لا يساورنى أدنى شك فى أن الحضارة التى ترتبط أجزاؤها برباط متين . . وتتماسك أطرافها تماسكا قويا ، وتحمل فى طياتها عقيدة مثل الإسلام ، لا ينتظرها مستقبل باهر فحسب ، بل ستكون أيضا خطرا على أعدائه . من الممكن أن يعارض المرء هذا الرأى بأن الإسلام فقد سيطرته على بعض الأشياء المادية ، وخاصة ما يتصل بالحرب ، فهو لم يلحق بالتقدم التكنولوجى الحديث .

لا أستطيع أن أدرك : لماذا لم يعوض الشرق الإسلامى مافاته فى هذا الميدان ؟ فلا تحتاج علوم الهندسة الحديثة إلى طبيعة عقلية خاصة ، بل يتطلب الإلمام بها والتفوق فيها إلى الخبرة وتوجيه الخبراء . ومن الأمور المؤكدة أنه غالبا ما يحدث أن تكون حضارة أخرى ذات منزلة عالية فى التقدم التكنولوجى أقل درجة من حضارة لم يبلغ بعد تطورها فى هذا المجال ما بلغته الأولى .

إذن ، فهناك احتمال كبير أن يصبح شعب ـ ظهر حتى الآن أن مواهبه فى الناحية التكنولوجية ضعيفة ـ فى المستقبل سيدا على شعب آخر استولت التكنولوجيا على حواسه ومشاعره ـ فلم ينقذه أحد ـ وتحكمت فى سلوكه النظريات التى تسلب الإنسان الإحساس بالطبيعة .

لماذا لا يتعلم العالم الإسلامى ما تعلمناه فى مجال التكنولوجيا ؟ وفى مقابل هذا سوف يكون من الصعب علينا استعادة التعاليم الروحية ـ وهى من العوامل

الأساسية لوحدة أوربية ـ التى فقدتها المسيحية ، بينما لم يزل الاسلام يحافظ عليهـا .

غير أن عددا من الباحثين المعاصرين كتب مؤلفات ضخمة ـ وصل بعضها إلى عدة مجلدات ـ عن الإسلام ، اختلفت فى طابعها ومنهجها عما كتب عن الاسلام فى العصر الوسيط ، إذ يغلب عليهـا رغبة المؤلفين فى التزام الموضوعية ، لكن ظروف هؤلاء الكتاب الاجتماعية والثقافية حالت دون تحقيق هذا الهدف على الوجه الأكمل ، فهم وإن تشربوا بروح النهضة الحديثة ذات الطابع العلمانى ، إلا أنهم مشدودون بجذور ثقافية ضاربة فى أعماق التاريخ حتى الحروب الصليبية ـ ان لم يكن أقدم من ذلك ـ ومكبلون بسلاسل إعلامية ـ سواء كانت إذاعية أو صحفية ، أو نشرات دورية ، أو كتبا ثقافية وتخصصية ـ تحجب عنهم الجانب الإيجابى فى الإسلام ، وتصوره بصورة تنفرهم منه ، وتبعدهم عنه إذا ما اقتربوا يوما ما من الاسلام بفعل الموجات الليبرالية التى اجتاحت أوربا فى العصر الحديث .

وهكذا أصبحت مصادر المعرفة الإسلامية فى المجتمعات غير الإسلامية متعددة فى مناهجهـا وتصوراتها عن الإسلام ؛ فهى متحاملة أحيانا لأسباب عقدية ، ومبالغة أحيانا أخرى فى مدى خطر القوة الإسلامية لأسباب سياسية ، ومخطئة فى هذا وذاك عندما تحاول إظهار أن بعض تعاليم الإسلام تتعارض مع متطلبات العصر الحديث، أى أنها لاتصلح كلهـا للتطبيق فى المجتمع المعاصر. وازاء هذا كله تساءل كثير من الباحثين عن المعرفة عن وجه الصواب فيما يعرض عليهم من تصورات للإسلام ، ولم يستطع أحد إشباع رغبة المتسائلين فى هذا الصدد لهذا رأينا أن نقدم هذا الكتاب ليعطى القارىء الاجابة الصحيحة على كل ما يدور فى ذهنه عن الإسلام . وليس الغرض منه تبشيرا فى المجتمعات اللاإسلامية. أو دعوة الى اعتناق الإسلام ، بل هدفنا تصحيح المعلومات من مصادرها الأصلية، لترسم صورة صحيحة عن الإسـلام فى ذهن القارىء . ولم نر نقطة نبدأ بها أهم من الحديث عن القرآن ، لأنه كتاب المسلمين المقدس ، فيه مبادىء عقيدتهم ، وصور عبادتهم، كما يحتوى على كل ما يتعلق بسلوكهم فى الحياة الاجتماعية ، وما

ينظم مؤسساتهم، سواء كانت ثقافية أو تعليمية ، أو كانت تتعلق بشئون الحكم والادارة .

وسنتناول على التوالى :

- الكتب المقدسة فى الأديان الثلاثة : اليهودية والمسيحية والإسلام بالتعريف والتوضيح لكل كتاب كما يفهمه أهله .
- مفهوم الوحى عند أتباع كل دين ، مع دراسات مكثفة عن الوحى فى الإسلام وكيفية نزول القرآن وتدوينه ، وجمعه وطريقة تعليمه جيلا عن جيل .
- ما جاء فى القرآن عن خلق العالم والكواكب والإنسان .
- قضية إرسال الرسل والأنبياء ، وما بلغوه للناس من أخلاقيات وتعاليم ترسم معالم السلوك فى المجتمع .
- موقف القرآن من القضايا العقلية ، وبالتالى من المنجزات العلمية فى العصر الحديث ، ومن قضايا الديمقراطية والحكم ، ومن النظم الاقتصادية المتعددة المناهج والأساليب .

وغير ذلك من الأمور التى تهم الإنسان فى عالمنا المعاصر ، فمن يحرص على قراءته ، فسوف يزود بالمعلومات الصحيحة من مصادرها الأصلية عن القرآن وموقفه من كل ما يدور على الساحة البشرية .

والله نسأل أن يوفق الجميع إلى ما فيه سعادتهم فى الدنيا

وفلاحهم فى الآخرة إنه سميع مجيب

الدوحة فى ٥ رجب ١٤٠٦ هـ — **محمد عبد الغنى شامة**

١٥ مارس ١٩٨٦ م

الفصـــــل الأول
النصـــوص المقدســـــــة

الـكتـــــب :

قبـل الحـديث عن القرآن الكريم وهو كتاب المسلمين المقدس ، ينبغى أن نعـرض صورة موجـزة للكتب المقدسة الأخرى ، ولما كان المقام لايحتمل تناول الكتب المقدسة فى الأديان كلها ، أو على الأقل فى الأديان المشهورة بالتعريف ، رأينا أن نتناول فقط مايقدسه اليهود والنصارى بالبيان ، لأن اليهودية والنصرانية أقرب الأديان إلى الإسلام ، إذ يعتقد المسلمون أن أصولها منزلة من الســـاء .

يطلق على الكتاب المقدس عند اليهود : العهد القديم ، وهو يحتوى على أخبار العالم فى عصوره الأولى وأجياله القديمة ، وشرائع اليهود الاجتماعية والدينية ، وتاريخ نشأتهم وحكوماتهم وحوادثهم ، والنبوات السابقة منذ هبوط الإنسان على هذه الأرض ، والبشـارات بالنبيين الـلاحقين وبالمسيح ، كما تحتوى على أدعية متوارثة تعين على أداء العبادات ، والقيام بالطقوس الدينية كمزامير داود ونشيد الإنشاد وسفر الأمثال ، وبلغت أسفاره تسعة وثلاثين سفرا عند البروتستانت ، ويزيد الكاثوليك عليها سبعة أسفار أخرى هى : طوبيا ، ويهوديت والحكمة ، ويسوع بن سيراخ وباروخ ، والمكابيين الأول ، والمكابيين الثانى . والسامريون لايعترفون إلا بأسفار موسى الخمسة فقـط .

ويقســم العهد القديم الى عدة أقسام وهى :

القســـم الأول :

التوراة ، أو أسفار موسى الخمسة . وتتكون من خمسة أجزاء هى : التكوين والخروج وسفر اللاوين وسفر العدد وسفر التثنية ؛ وهى الأسفار التى كونت العناصر الأولى لكتاب العهد القديم ، وتتناول أصل الكون وتاريخه حتى دخول الشعب اليهودى أرض كنعان بعد الخروج من مصر ، وبالتحديد حتى موت موسى ، وتستخدم حكاية هذه الأحداث كإطار لعرض التدابير الخاصة بالحياة الدينية ، والحياة الاجتماعية للشعب اليهودى ، ومن هنا جاء اسم التوراة ، أى الناموس .

وليس فى الوسع تحديد تاريخ قاطع للتوراة ، ولكن الأرجح أن معظمها كان موجودا ومعترفا بقداسته لدى اليهود منذ عهد الاسكندر الأكبر [عام ٣٣٠ ق . م] وقد اتفق معظم شراح العهد القديم على تعدد النسخ التى جمعت منها التوراة ، وأهمها : نسخة [ألوهيم] ، ونسخة [يهوار] ، ونسخة [الكهنة] أو [المسجلين] والذائع أن بعض هذه النسخ كتب حوالى القرن العاشر قبل الميلاد على أيام المملكة الاسرائيلية ، وبعضها الآخر كتب فى القرن السادس قبل الميلاد اثناء فترة السبى البابلى ، وبعضها الثالث كتب قبل الميلاد بنحو ثلاثة قرون . وأياما كان الأمر فان أقدمها عهدا يروى أحداثا تعزى إلى زهاء ألف سنة مضت قبل تسجيلها ، كما أنها فى جملتها تتناول تاريخا بينها وبينه عدة قرون ، وهذا ينطوى ضمنا على أن تدوين التوراة تعرض لتعديلات كثيرة حتى تكون أكثر مطابقة للأغراض التى دعت إلى كتابتها . وفى رأى « ويلز » أن التوراة قد انتهت صياغتها الراهنة حوالى عام ١٠٠ قبل الميلاد .

القســـم الثانى :

الكتب التاريخية ، وتتناول تاريخ الشعب اليهودى منذ دخوله أرض الميعاد (ويحدد على أحسن تقدير معقول بنهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد) حتى النفى إلى بابل فى القرن السادس قبل الميلاد ، وتؤكد نبرة هذه الكتب على ما يمكن تسميته « بالواقع القومى » ، وتقدمه الكتب باعتباره تنفيذا لكلام الله . فمحور

سفر القضاة هو الدفاع عن الشعب المختار ضد الذين كانوا يحيقون به وإغاثة الرب له . أمـا كتـاب صمـويل وكتب الملوك فهى أساسا مجموعات من السير تخص صمــويل وطـالـوت وسليمان ، وتصنف كتب طوبيا ويهـوديت واستـيرا الكتب التاريخية ، وفيها تصرف شديد إزاء التاريخ ، ففيها تغيير الأسماء والأعلام واختراع لشخصيات وأحـداث ، وكل هذا بنية دينية طيبة ، أما كتابا المكابيين فيغطيان أحداث القرن الثانى قبل الميلاد .

القســـم الثالث :

كتب الأنبياء ، ويجمع تحت هذا الاسم وصايا مختلف الأنبياء الذين ذكروا فى العهد القديم ، باستثناء كبار الأنبياء المشار إلى تعاليمهم فى كتب أخرى ، مثل : موسى وصمـويل وإليا واليشـع ، وتغطى كتب الأنبياء الفترة بين القرن الثامن والقرن الثانى قبل الميلاد ، أما كتب القرن الثامن قبل الميلاد ، فهى كتب عاموس وهو شع وأشعيا وميخا ، ويشتهر الأول بإدانته للمظالم الاجتماعية . والثانى بإدانته للفساد الدينى ، أما أشعيا فهو وجه للتاريخ السياسى : إنه يسود الأحداث لأن الملوك كانوا يستشيرونه .

وفى القـرن السابع قبل الميلاد يبرز صفنيا وآرميا وناحوم وحبقوق . وفى فترة النفى يبرز حزقيال ، وبعد النفى حجى وزكريا وملاخـى .

القســـم الرابع :

كتب الشعر والحكمة ، وتمثل المزامير المقام الأول بين هذه المجموعة ، وقد كتب داود عددا كبـيرا منهـا ، وكتب البـاقى الكهنـة واللاويون . وموضوعها المدائح والتضرعات والتأملات، ويمثل نشيد الإنشاد الأسلوب الرمزى ، وتركز على أن الحب الإلهى فوق كل شىء . أمـا سفـر الأمثال فيتكون من مجموعة من أقوال سليمان وحكماء أخر فى بلاطه ، كما يتحدث سفر الجامعة عن السعادة الدنيوية والحكمة .

* * *

أمـا العهد الجديد وهو النص المقدس الخاص بالمسيحيين فيتكون من سبعة وعشرين سفرا يمكن وضعها فى قسمين كبيرين :

الأول :

قسم « الأسفار التاريخية » ويشمل هذا القسم الأناجيل الأربعة (انجيل متى وانجيل مرقص ، وانجيل لوقا ، وانجيل يوحنا)، كما يشمل رسالة أعمال الرسل ، التى كتبهـا لوقـا ، وسميت هذه الأسفـار الخمسة بالتاريخية لأنها تحوى قصصا تاريخية ، فالأناجيل تحوى قصة حياة عيسى وتاريخه وعظاته ومعجزاته ، ورسالة أعمال الرسل تحوى قصة حياة معلمى المسيحية وبخاصة بولس .

الثـانى :

قسم « الأسفـار التعليمية » وتشمـل باقى الرسائل وعددها إحدى وعشرون وهى : ١٤ رسالة من كتابة بولس ، و ٣ رسائل من كتابة يوحنا ، ورسالتان من كتابة بطرس ، ورسالة واحدة من كتابة يعقوب ، ورسالة واحدة من كتابة يهوذا ، بالإضافة إلى رؤيا يوحنا اللاهوتـــى .

وترجع أقدم المخطوطات الكاملة للأناجيل إلى القرن الرابع الميلادى ، فهى وإن ظهـرت برديات يرجـع تاريخها إلى القرن الثالث ، وبردية ترجع إلى القرن الثانى ، إلا أنها لم تنقل لنا إلا أجزاء متناثرة ، أما أشهر مخطوطين من الرق ، فهما مخطوطتـان يونـانيتـان من القـرن الـرابـع الميلادى ، وهما ما يعرفان بالـ Codex Vaticanus ومكان اكتشافهما مجهول ، وهما محفوظتان بمكتبة الفاتيكان ، ومخطوطة أحـدث منهـا وهى Codix Sinaiticus وقـد اكتشفت بجبل سيناء ، وهى محفوظة بالمتحف الـبريطانى ، كذلـك هنـاك نسخـة خطية أخـرى مهمـة وهى Codix Alexandrinus .

ويرجع تاريخها إلى القرن الخامس الميلادى وهى محفوظة أيضا فى لنـدن .

* * *

أما القرآن الكريم فهو وحى الله الذى أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم . وسوف نتناول الحديث عنه بالتفصيل بعد بيان مفهوم الوحى فى الأديان الثلاثة .

الوحى :

تتردد كلمة الوحى كثيرا فى الأوساط الدينية ، فهى تحتل المكان الأول بين الظواهر التى تشكل معالم الأديان ، فحيثما وجد دين وجد وحى ؛ إذ هو الكلمة الأولى التى ينطق بها الأنبياء حين يبدأون بتبليغ الناس ما كلفوا به ، فنراهم يخبرونهم بأنه أوحى اليهم ، أو أن القوة العليا اتصلت بهم بطريق أو بآخر ، وكلفتهم بتبليغ الناس ما تريد هذه القوة تبليغهم إياه ، ومن هنا فإن الوحى هو الشكل الذى عن طريقه تُعرَف العقائد ، والعبادات والطقوس الدينية ، غير أن مفهومه يختلف من دين لآخر تبعا لاختلاف الموحِى ، والموحىَ به ، والموحىَ اليه فى كل دين ، فهو فى الأديان التى تؤكد على وجود إله واحد لايطابق نفس الوحى فى أديان تفسح المجال لوجوده آلهة متعددة ، وكلاهما يختلف عن الوحى فى العقائد التى تقدس الظواهر الطبيعية ، أو ترفع حيوانات وجمادات إلى مرتبة الألوهية .

كذلك تتفاوت طريقة التعبير عن إرادة الموحِى إلى الموحىَ اليه ، فقد تكون كلاما يقرأ ، كما تكون إلهاما يعبر عنه الموحى اليه بالألفاظ التى يستعملها فى لغته ، وأحيانا أخرى ، تكون توجيها غير مدرَك ، فهو لايخرج عن كونه إحساسا يحسه الموحى إليه ، فينطبع سلوكه طبقا لهذا الإحساس . ويقوم الموحى إليه فى كل هذه الأحوال بإخبار الناس بما تلقاه من الموحِى .

ولما كانت دراسة هذه الظاهرة لاتخضع لوسائل البحث المتاحة للانسان - لكونها تجربة شخصية ، لايصل إلى كنهها إلا صاحب التجربة نفسه - فإن من المستحيل الوصول إلى نتائج سليمة ، لو حاول الباحثون إخضاعها لوسائل البحث العادية ، ولهذا فإن كل ما يقال حول هذه الظاهرة فهو :

- إما بيان لما يخبر به الموحى إليه .
- أو وصف لآثار ما يوحى به .

ـ أو ترديد لما تناقلته الروايات الدينية عمن أوحى إليه .

فإذا تحدثنا عن ظاهرة الوحى فى اليهودية والنصرانية ، فلن يخرج حديثنا عن إطار الكتاب المقدس ، مركزين على الصور التى وردت فيه فى مجال تصوير عملية الوحى فى هاتين العقيدتين ، ولما كان منهجنا هو البيان والتوضيح فقط ، تاركين الحكم للقارىء ، فسوف نكتفى بعرض صور لمفهوم الوحى من الكتب المقدسة دون التعليق عليها ، أو بيان رأى الإسلام فيها ، لأن هذا سوف يظهر من تلقاء نفسه عندما نبين مفهوم الوحى فى الاسلام . وبهذا المنهج نتيح للقارىء حرية المقارنة والموازنة بين مفهوم الوحى فى الكتاب المقدس ، ومفهومه فى الإسلام ، ليصل عن طريق هذه المقارنة إلى معرفة أوجه الاختلاف ، وعناصر الاتفاق فى الوحى بين الأديان الثلاثة .

فالوحى باعتباره تبليغا عن الله وُصِف فى العهد القديم بأوصاف عديدة طبقا للاتجاهات المختلفة ، التى يعبر عنها ، ومن هذه الأوصاف : الكشف ، والتجلى والمعرفة ، وتشير هذه الأوصاف ـ وغيرها ـ إلى ظهور الله من عالم الغيب ، أى مجيئه من عالم الغيب إلى عالم المشاهدة : ليرُى ، وليُعرف ، وليُكشف ، أو بتعبير بسيط ، فإن هذه الأوصاف تشير إلى إخبار الإنسان بأشياء عن طريق ما يراه ، أو يشاهده ، أو يسمعه ، أو يدركه .

وعلى الرغم من كثرة التعبيرات والصيغ التى وردت فى العهد القديم مبينة أحداث عملية الوحى ، فلا يوجد فيه كلمة واحدة تدل على هذه المعانى كلها ، فالصور الكثيرة والمتعددة للوحى فى العهد القديم جعلت الأمر مستحيل الفهم لمن يريد وضع اصطلاح معين يؤدى مفهوم هذه الصور كلها ، وليست الصعوبة قاصرة على صور الوحى التى تتعلق بالحلم ، أو التخيل ، أو سماع الأصوات غير العادية فقط ، بل تتعداها أيضا إلى ماهو أبعد من ذلك ، فقد صُوِّر الوحى على أنه ظهور الله : فى العاصفة الرعدية ، وذلك فيما جاء فى سفر الخروج ، حيث يروى أنه « حدث فى اليوم الثالث لما كان الصباح أنه صارت رعود ، وبروق ،

وسحاب ثقيل على الجبل ، وصوت بوق شديد جدا ، فارتعد كل الشعب الذى فى المحلة ، فأخرج موسى الشعب لملاقاة الله ، فوقفوا فى أسفل الجبل ، وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار ، وصعد دخان كدخان الأتون وارتجف كل الجبل جدا ، فكان صوت البوق يزداد اشتدادا وموسى يتكلم والله يجيبه بصوت . [خروج ١٩ : ١٦ - ١٩] .

أو فى السحب وأعمدة النور حيث ورد : « وكان فى هزيع الصبح أن الرب أشرف على عسكر المصريين فى عمود النور والسحاب » [خروج ١٤ : ٢٤] .

وفى حفيف أشجار البَكَا حيث ذكر فى سفر صموئيل الثانى : « وعندما تسمع صوت خطوات فى رءوس أشجار البكا ، حينئذ احترس لأنه إذ ذاك يخرج الرب أمامك لضرب محلة الفلسطينيين » .

وأحيانـا يظهر ملاك الرب فى صورة إنسان متجول، ليبلغ إنسانا بما يريد الله تبليغه إياه ، فقد قابل هاجر عند هروبها من سارة وقال لها : « يا هاجر جارية ساراى ، من أين أتيت وإلى أين تذهبين ؟ فقالت أنا هاربة من وجه مولاتى ساراى ، فقال لها ملاك الرب : إرجعى إلى مولاتك واخضعى تحت يديها .
[تكوين ١٦ : ٨ - ٩] .

وأحينا يظهر الرب نفسه فى صورة إنسان كما أخبر بذلك سفر التكوين، حيث جاء فيه : « ولما ظهر الرب عند بلوكات ممرا وهو جالس فى باب الخيمة وقت حر النهـار فرفـع عينيه (أى إبـراهيم عليه السـلام) ونظر فإذا ثلاثة رجال واقفون لديه . . [تكوين ١٨ : ١ - ٢] .

وعليه فكـل هذه الوساطات فى تبليغ الوحى معروفة فى تاريخ الأديان ، بل هناك صور أخرى لايتسع وقتنا لعرضها ، ولذا فإن من الممكن القول بأن الوحى فى العهد القديم هو إبلاغ الله أوامره ونواهيه لإنسان اختاره من بين البشر ليبلغها للنـاس وجاءت عملية تبليغ الله الإنسان بصور متعددة ، وهيئات مختلفة لكنها جميعا يطلق عليها وحى ، ومن هنا فإن مافى العهد القديم من هذه الأخبار هو-

فى نظر من يدينون باليهودية ـ وحى يجب تنفيذ مافيه من أوامر ، واجتناب ماتضمنه من نواه لأنه أمر الله .

* * *

ويرى علماء المسيحية أن الوحى هو إظهار الله نفسه للناس ، وذلك فى أساليب وطرق مختلفة ، فقد ظهر الله للناس عن طريق خلق الكون ، لأنهم عرفوه بآثاره ، فكل من يستطيع فهم سر المخلوقات الكونية ، عرف الله ، وأدرك أنه موجود ، ولكن ليس كل الناس على مستوى واحد فى مجال القدرات العقلية التى توصلهم إلى معرفة الله ، لذلك اختار الله رسلا ليبلغوهم أن الله موجود ، أى ليعرفوهم الله ، وكان ذلك عن طريق وحى أنزله عليهم . فالوحى هنا أيضا تعريف بالله سبحانه وتعالى ، غير أن كثيرا من الناس جحدوا فأنكروا الرسالات التى بعث الله بها أنبياءه ، مما اضطره إلى أن ينزل هو بنفسه ، ويقول أحد قساوسة مدينة طليطلة فى القرن الحادى عشر الميلادى :

لما كلم الله العـالم على ألسنة أنبيائه الذين جعلهم رسله ووسائطه إلى خلقه ليعلموهم الإقرار بربوبيته ولينهوهم عن عبادة الأوثان والأصنام الفاشية ضلالتها فى جميع الأرض ولم يمتثلوا لهم ، نزل هو سبحانه بعد ذلك من السماء ليكلم الناس بذاته ، لئلا تكون لهم حجة عليه ، فتنقطع حجتهم حينئذ من أجل أن كلمهم بذاته ، لا بواسطة بينهم وبينه ، فارتفعت المعاذير عمن ضيع عهده بعد ما كلمه بذاته إتماما لرحمته على الناس ، فهبط بذاته من السماء ، والتحم فى بطن مريم العذراء البتول أم النور ، فاتخذ لنفسه منها حجابا كما سبق فى حكمته الأزلية ، لأنـه فى البدء كانت الكلمة ، والكلمة هو الله ، وهو مخلوق من طريق الجسم وخالق من طريق النفس ، هو خلق جسمه ، وهو خلق أمه ، وأمه كانت من قبلها فى الناسوت ، وهو كان من قبلها فى اللاهوت ، وهو الإله التام ، وهو الإنسان التـام .

ويجب أن نذكر هنا قبل الاسترسال فى الحديث عن معنى الوحى فى نصوص العهد الجديد أن الإسلام يعترف بعيسى نبيا بشرا ، وينفى كون عيسى إلها أو ابنا

له ، وبالتالى ينفى أن يكون هناك إله غير الله ، إذ أوحى الله إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم :

« ما اتخـذ الله من ولد ، وما كان معه من اله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون » .

[المؤمنون : ٩١] .

وهذا هو مفهوم العقل والمنطق ، إذ لايستساغ عقلا أن ينزل الله ليجرى عليه ما يجرى على البشر من أكل وشرب وألم وبكاء وفرح ، وكلها نقائص يتنزه الله عنها كما لايقبـل منطقيا أن يعجز الله عن تنفيذ مراده دون الحاجة إلى النزول بنفسه وتعرضه للمهانات التى يتعرض لها الإنسان .

وصف العهد الجديد الوحى بأنـه :

ـ سر ملكوت الله ، فجاء فى إنجيل مرقص : « ولما كان وحده سأله الذين حوله مع الإثنى عشر عن المثل ، فقال لهم : قد أعطى لكم أن تعرفوا سر ملكوت الله وأما الذين هم من خارج فبالأمثال يكون لهم كل شىء » [٤ : ١٠ - ١١] .

ـ وبأن روح القدس لازالت تخبربه ، فقد جاء فى رسالة بولس الأولى إلى أهل كونتوس :

« لأن مَنْ مِنَ الناس يعرف أمور الإنسان إلا روح الإنسان الذى فيه ، هكذا أيضا أمور الله لايعرفها أحد إلا روح الله ، ونحن لم نأخذ روح العالم ، بل الروح الذى من الله لنعرف الأشياء الموهوبة للناس من الله ، التى تتكلم بها أيضا ، لا بأقوال تعلمها حكمة إنسانية ، بل بما يعلمه الروح القدس قاربين الروحانيات بالروحانيات » [٢ : ١١ - ١٣] .

ويؤكد بولس أنه لاتوجد علاقة بين الوحى وبين العلم أو الفلسفة ، أى أن العقل ليس له دخل فى فهم مايوحى به ، فهو يقول بعد النص السابق :

« ولكن الإنسان الطبيعى لايقبل بالروح الله ، لأنه عنده جهالة ، ولا يقدر

أن يعـرفه ، لأنه إنما يحكم فيه روحيا ، وأما الروحى فيحكم فى كل شىء وهو لايحكم فيه من أحـد ، لأنه من عرف فكر الرب فيعلمه ، وأما نحن فلنا فكر المسيح » . [٢ : ١٤ - ١٦]

فإذا كان بولس يقصد حقيقة الوحى فلا اعتراض عليه ، لأنه لايعرف حقيقته إلا من عاش تجربة تلقى الوحى من الله وهم الأنبياء ، أما إذا كان رأيه بأنه لايفهم ما جاء به الوحى إلا أرباب الروحانيات فذلك أمر فيه نظر ، إذ ينبغى أن يكون الوحى مفهوما لمن يبلغ لهم ، وإلا لاتكون هناك فائدة فى تبليغهم إياه ، والقول بأن على المؤمن أن يعتقد دون نظر عقلى لم يسلم من النقد فى جميع العصـــور .

فحقيقة الوحى هى التى لم يصل الإنسان إلى كنهها ، أما ما جاء به الوحى من نصوص فهى معروضة على بساط البحث والدراسة لكل من يملك القدرة على ذلك .

وجملة القول أن الوحى عند المسيحيين ينحصر فى أمرين :

الأول : ما أخـبر به المسيح عليه السلام ، وهذا يمثل التعاليم الرئيسية فى العقيدة المسيحية .

الثانى : ماتوحى به روح القدس إلى من وصلوا إلى درجة تهيئهم لذلك ، ومن هؤلاء بابا الفاتيكان ، وبطريرك الأرثوذكس ، ومن يماثلهما فى الدرجة عند بعض الطوائف المسيحية .

ومن هنا كانت نصوص العهد الجديد وحيا أملته روح القدس على الكُتَّاب :

إما إخبارا عما حدث به عيسى عليه السلام ، ويمثل ذلك الأناجيل الأربعة ، أو تعاليم جديدة تضاف إلى ما بلغ به المسيح عليه السلام ، ويمثله سفر أعمال الرسل والرسائل الأخرى التى ألحقت بالأناجيل ، ويدخل فى مجال النوع الثانى ما يخبر به آباء الكنيسة الذين تحل فيهم روح القدس .

الفصـــــل الثانى

القرآن الكريـــــــم

الوحى فى الإســـلام :

يختلف مفهوم الوحى فى الإسلام عنه فى اليهودية والمسيحية ، فإذا كان إخبار الله النـاس جاء فى اليهـودية على صور متعـددة ، تمثلت فى مجىء الله فى الرعد والسحاب وحفيف الأشجار ، وظهوره أيضا فى صورة إنسان ، وجاء فى المسيحية فى صورة نزول الله بنفسه متمثلا فى المسيح ، أو فى اتصال روح القدس بأناسىّ معينين ، فإن الإسلام قد خلا من كل هذه الصور جميعها ، فَنَزَّه الله عن الظهور للنبى بأى صورة ، فكان وحيه إليه عن طريق الملك جبريل ، يرسل إليه فيملى عليه ما أمره به ربه ، غير أن اتصال الملك بمحمد صلى الله عليه وسلم جاء على صورتين أخبر بهما رسول الله حين سأله الحارث بن هشام عن كيفية إتيانه الوحى فقال :

ـ أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشد علىّ فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال .

ـ وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول .

قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد وإن جبينه ليتفصد عرقـا .

ويفهم من هذا الحديث أنه كان لنزول الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم حالتان :

الأولى : يأتيه ملك الوحى فى صورة ملائكية ، وفى هذه الحالة تعترى رسول الله صلى الله عليه وسلم شدة ، منشؤها تقريب الطبيعة البشرية إلى ملاءمة الطبيعة الملائكية والجو الملائكى ، ويعبر عنها ابن خلدون بقوله : « انسلاخ من البشرية الجسمانية واتصال بالملائكية الروحانية » .

وفى هذه الحالة يحدث عند قدم الملك صوت صلصلة مثل صلصلة الجرس ، تنبيها وإيذانا بقدوم الوحى . وقد ظن بعض الناس أن هذه الصلصلة من الوحى وهو خطأ ، إذ المراد منها أن يُفرِغ النبى الكريم سمعه للوحى فلا يبقى فيه مكان لغيره ، بدليل أنه بعد أن يهيأ لاستقبال الوحى بهذه الصلصلة ، كان يتابع جبريل فى كل حرف مرددا على لسانه ماسمعه من الوحى ، ثم بعد أن يذهب الملك يملى رسول الله على كتبة الوحى ما تلقاه ، فيكتبونه فى صحفهم .

الحالة الثانية : أن يأتى جبريل فى صورة رجل يراه الحاضرون فيسأل النبى صلى الله عليه وسلم ويجيبه فى مسائل العقيدة والشريعة ، وهذا النوع من الوحى لايكون قرآنا ، وإنما هو حديث لتعليم الناس كيفية السؤال وتثقيفهم بأشياء قد لايستطيعون السؤال عنها . فالقرآن الكريم هو كتاب المسلمين المقدس نزل بالصورة الأولى وَدُوِّن عقب ذهاب جبريل .

أما ما ورد فى القرآن الكريم من استعمال الوحى بمعنى الإلهام فى قوله تعالى :

« وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا » . [النحل ٦٨]

أى ألهم ربك النحل بأن يتخذ من الجبال بيوتا . وقوله :

« وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى » [المائدة ١١١] .

أى ألهمتهم إلى الإيمان وقوله :

« وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى » . [القصص : ٧]

أى ألهمناها بأن ترضعه وتلقيه فى اليـــم .

فلا يدخل فى هذا المعنى إنزال الله تعاليمه وشرائعه عن طريق الإلهام ، بل لابد أن يكـون بالتعبير اللغوى المفهوم ، فالوحى فى الإسلام : هو ما أنزل الله على الأنبياء والرسل من تشريعات بلغة قومهم ليبلغوها إليهم يقول الله تعالى :

« **إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده** » [النساء ١٦٣] .

أى أنزلنا إليك تشريعا ، كما أنزلنا إلى نوح والنبيين ، وعليه فالقرآن الكريم : هو الـوحى الـذى نزل به جبريل من الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم ليبلغه للناس ، والتوراة : هى الوحى الذى نزل به جبريل من عند الله على موسى عليه السلام ليبلغه لبنى إسرائيل . والإنجيل : هو الوحى الذى نزل به جبريل من عند الله على عيسى عليه السلام ليبلغه لقومه ، والزبور : هو الوحى الذى نزل من عند الله على داود ليبلغه لقومه . وغير ذلك كثير ، لم يقصصه القرآن ، دل على ذلك قوله تعالى :

« **ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك** » . [غافر ٧٨] .

كذلك لم يدخل فى معنى الوحى رؤيا الأنبياء التى كانوا يرونها قبل أن يأتيهم الملك بوحى الله ، أى أن الأنبياء لم يؤمـروا بتبليغ شىء رأوه فى المنـام ، ولم تكن الرؤيا أيضـا طريقا للتشريع ، وإنما كانت إرهاصا فقط بقرب الوحى ، فالأنبياء كانوا يرون رؤى قبل تكليفهم بالتبليغ ، وكانت الأحداث تأتى مصدقة لما رأوه ، وهذه فترة تسبق مجىء الوحى إلى الرسول .

إذاً ، فالوحى ينحصر فقط فيما نزل به جبريل من الله على النبى صلى الله عليه وسلم وأمر بتبليغه ، ومن هنا يطلق على القرآن الكريم بأنه وحى الله لأنه جاء به جبريل عليه السلام .

فجبريل هو الواسطة بين الله وبين رسله ، وهو حامل الوحى إلى الأنبياء ، تارة يأتى على صورته كملك ، وأخرى يأتى على صورة إنسانية ، وهو مخلوق خلقه الله كما خلق غيره ، فهـو من مخلوقـات الله وعبـاده . وقد تحدث القرآن عن جنس

الملائكة الذين هو فرد منهم فقال :

« **لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون** » [النساء ١٧] .

وقـــــال :

« **ولله يسجـــد مافى السمـــوات ومـــا فى الأرض من دابـــة والمـلائكـة وهم لايستكبرون** » [النحل ٤٩] .

وقـــــال :

« **وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم** » [الزمر ٧٥] .

فهم عباد الله لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ولم يظهر جبريل إلا لنبى يوحى إليه ، وأما ما يدعيه بعض الناس من أن جبريل يظهر لأناس غير أنبياء ، فلا أساس له من الصحة .

فتـــــرة نزول الـوحـى

تناولنا فيما سبق معنى الوحى ، فبينا أنه يكون بمعنى الالهام ، وقد يكون رؤيا صادقة تقع وتتحقق ، وقد يكون بواسطة جبريل أمين الوحى ، ويسمى العلماء هذا النوع من الوحى بـ « الوحى الجلىّ » أى الشديد الوضوح والتحديد .

ووحى القرآن الكريم جميعه من هذا النوع ، بدليل أن جبريل عليه السلام كان يسمع القرآن للنبى كل عام ، أى كان يسمع تلاوة النبى صلى الله عليه وسلم ، ويحفظه وقد أخطأ من ذهب إلى أن الوحى الذى نزل على محمد صلى الله عليه وسلم كان رؤى وأحلاما وتخيلات بدليل قوله تعالى :

« **نزل به الـروح الأمين *(وهو جبريل) على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين** » [الشعراء : ١٩٣] .

فهذه الآية تدل على أن الذى نزل بالوحى هو الملك جبريل ، وأنه أملاه على محمـد صلى الله عليه وسلم بلغتـه ، وهى اللغـة العربية ، وكان ذلك فى حال يقظته ، فلم يكن نائما ولا هائما ، ولا مستغرقا فى الخيال .

ويحدثنا التاريخ عن أول مرة التقى فيها جبريل بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فيذكر أن محمدا عليه السلام مال إلى الخلوة فى غار حراء - وهو غار يقع شمال شرقى مكـة - فكـان يتعبد فيه شهرا كل عام ، وعندما بلغ سن الأربعين ، وبينما هو مستغرق فى العبادة فى هذا الغار جاءه جبريل فقال له : إقرأ . ولما كان محمد أميا لم يتعلم القراءة والكتابة أجابه قائلا : ما أنا بقارىء . ويستمر محمد صلى الله عليه وسلم فى بيان أحداث هذا اللقاء الأول فيقول : « فأخذنى - أى بعد ما أجابه بأنه لا يعرف القراءة - فغطّنى (والغط : هو الضم الشديد) حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : إقرأ . فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطّنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : إقرأ . فقلت ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطّنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال :

« إقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الانسان من علق * إقرأ وربك الاكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان مالم يعلم » [العلق : ١ - ٥] .

فكانت هذه أول آيات نزلت من القرآن الكريم .

قرأهـا محمـد صلى الله عليه وسلم ، ثم انصرف عنه جبريل ، وهو يقول : يا محمد أنت رسول الله ، وأنا جبريل ، فرجع النبى صلى الله عليه وسلم إلى أهله يرجف فؤاده ، وهـو يقـول : زملونى زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنـه الروع ، فقال لخديجة : لقد خشيت على نفسى ، وأخبرها الخبر ، فقالت خديجة : كلا والله لا يخزيك الله أبـدا ، إنـك لتصل الرحم ، وتقرى الضيف ، وتكسب المعدوم ، وتحمـل الكل . ثم انطلقت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، وكان شيخا متدينا ، فقالت له : يا ابن عم : اسمع من ابن أخيك ما يقول ، فأخبره النبى صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى ، فقـال له ورقـة : هذا النـامـوس الذى أنزله الله على موسى ، ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك . قال النبى : أو مخرجىّ هم ؟

فقال ورقة : « نعم ، ماجاء أحد بمثل ماجئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا » ثم لم يلبث ورقة بعد ذلك أن توفى .

انقطع الوحى بعد هذا اللقاء ثلاث سنوات ، ثم جاءه جبريل مرة أخرى وأوحى إليه ، وظل يأتى له بالوحى فى فترات مختلفة مدة ثلاث وعشرين سنة تقريبا . وتنقسم هذه المدة إلى فترتين متمايزتين :

الأولى : مانزل مدة مقامه فى مكة وهى اثنتا عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوما ، من يوم ١٧ رمضان سنة ٤١ من ميلاده إلى أول ربيع الأول سنة ٥٤ منه ، وما نزل فى هذه الفترة يسمى وحيا مكيا ، لأنه نزل بمكة ونواحيها قبل الهجرة .

والثانية : ما نزل بعد هجرته إلى المدينة ، فيسمى وحيا مدنيا ولو لم ينزل بالمدينة نفسها ، فالعبرة بنزوله بعد الهجرة إلى المدينة . وكانت مدة إقامته بالمدينة تسع سنوات وتسعة أشهر وتسعة أيام ، وهى من أول ربيع الأول سنة ٥٤ من ميلاده إلى تاسع ذى الحجة سنة ٦٣ ، ويوافق ذلك السنة العاشرة من هجرته من مكة إلى المدينة .

ويتميز ما نزل بمكة من القرآن الكريم بأنه قوى الألفاظ ، قصير الفقرات ، يدور فى معظمه حول التوحيد أو التهديد ، أو وصف الجنة والنار ، لأن ظروف الدعوة كانت تستدعى هذا . ويتميز الذى نزل بالمدينة بأنه طويل الفقرات يدور حول القصص والأحكام الشرعية ، وتنظيم الدولة والدعوة إلى الرحمة والتسامح ، وذلك لأن ظروف الدعوة كانت تستدعى هذا بعد أن استقرت فى شكل دولة ، واتضحت أصول العقيدة .

ولا فرق بين المكى والمدنى من القرآن الكريم ، إنما هو تقسيم نظرى يفيد معرفة تاريخ نزول الآيات ، فهو جميعه نزل من عند الله بلفظه من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس ، وهى فى ترتيب القرآن آخر سورة منه ، فجميع ألفاظه هى كلام الله وحده ، لادخل لجبريل ولا لمحمد فى إنشائها وترتيبها ، بل الذى رتبها أولا هو الله سبحانه وتعالى ، ولذلك تنسب إليه دون سواه . فليس لجبريل فى هذا القرآن سوى حكايته للرسول وإيحائه إليه ، وليس للرسول فى هذا القرآن سوى

وعيه وحفظه ، ثم حكايته وتبليغه ، ثم بيانه وتفسيره ، ثم تطبيقه وتنفيذه يقول الله تعالى :

« **وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم** » [النمل : ٦] .

ويقـــول :

« **وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لايرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله ، قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلى إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم** » [يونس : ١٥] .

حكمة نزول القرآن مفـــــــرقا

كانت مدة نزول القرآن الكريم ثلاثا وعشرين سنة تقريبا ، نزل فيها القرآن مفرقا حسب الظروف والملابسات التى كانت تقتضى حكما أو تشريعا ، ويعلل العلماء ذلك بأن النبى صلى الله عليه وسلم كان أميا ، فكان يحتاج إلى وقت ليعى ويحفظ ماينزل ، فإذا تم ذلك نزل جزء آخر ، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى :

« **وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا** » [الاسراء : ١٠٦] .

وقـــوله :

« **وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا * ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا** » [الفرقان : ٣٢ - ٣٣] .

وقد ذكر الباحثون حكما كثيرة لإنزال القرآن الكريم مفرقا نذكر منها هنا ثلاثا :

الأولى : تثبيت فؤاد النبى صلى الله عليه وسلم ، وتقوية قلبه وذلك من وجوه ثلاثة :

الوجه الأول : أن فى تجدد الوحى وتكرار نزول الملك به من جانب الحق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سرورا يملأ قلب الرسول ، وغبطة تشرح صدره ،

وكلاهما يتجدد عليه بسبب ما يشعر به من هذه العناية الالهية ، وتعهد مولاه إياه فى كل نوبة من نوبات هذا النزول .

الوجه الثانى : أن فى التنجيم (أى التفريق) تيسيرا عليه من الله فى حفظه وفهمه ، ومعرفة أحكامه وحِكَمِه ، وذلك مُطَمْئِنٌ له على وعى مايوحى إليه حفظا وفهما ، واحكاما وحِكَماً ، كما أن فيه تقوية لنفسه الشريفة على ضبط ذلك كله .

الوجه الثالث : أن فى كل نوبة من نوبات هذا النزول المنجم معجزة جديدة ، حيث تحدى المنكرين لنبوته كل مرة أن يأتوا بمثل نوبة من نوب التنزيل ، فظهر عجزهم عن المعارضة ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، ولاشك أن المعجزة تشد أزره وترهف عزمه باعتبارها مؤيدة له ولحزبه ، خاذلة لأعدائه ولخصمه .

الحكمة الثانية لإِنْزَالِ القرآن الكريم مفرقا : التدرج فى تربية هذه الأمة الناشئة علما وعملا ، وينضوى تحت هذه القضية أربعة أمور :

أولها : تيسير حفظ القرآن على الأمة العربية ، وهى - كما هو معروف - كانت أمة أمية ، ولم تكن أدوات الكتابة ميسورة لدى الكاتبين منهم على ندرتهم .

ثانيها : تيسير فهمه عليهم كذلك .

ثالثها : التدرج فى تحويلهم من العقائد الباطلة إلى طريق الحق والصواب .

رابعها : تثبيت قلوب المؤمنين وتسليحهم بعزيمة الصبر واليقين بسبب ما كان يقصه القرآن عليهم الفينة بعد الفينة ، والحين بعد الحين من قصص الأنبياء والمرسلين ، وما كان لهم ولأتباعهم من الأعداء والمخالفين ، وما وعد الله به عباده الصالحين من النصر والأجر والتأييد والتمكين .

الحكمة الثالثة : مسايرة الحوادث والطوارىء فى تجددها وتفرقها ، فكلما جد فيهم جديد نزل من القرآن ما يناسبه ، وفصَّل الله لهم من أحكامه ما يوافقه ، وتنتظم هذه الحكمة فى أمور ثلاثة :

أولها : إجابة السائلين على أسئلتهم عندما يوجهونها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، سواء أكانت تلك الأسئلة لغرض الثبت من رسالته كما قال الله تعالى :

« ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » [الاسراء - ٨٥] .

وقـــوله :

« ويسألونك عن ذى القرنين ، قل سأتلو عليكم منه ذكرا * إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سببا » . . الخ [الكهف ٨٣ - ٨٤] .

أم كانت لغرض التنوّر ومعرفة حكم الله كقوله تعالى :

« ويسألونك ماذا ينفقون ؟ قل العفو » [البقرة : ٢١٩] .

وقـــوله :

« ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير . وإن تخالطوهم فإخوانكم » [البقرة : ٢٢٠] .

ولا ريب أن هذه الأسئلة كانت ترفع إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى أوقات مختلفة ، وعلى نوبات متعددة حاكية أنهم سألوا ولا يزالون يسألون ، فلا بدع أن ينزل الجواب عليها كذلك فى أوقاتها المختلفة ونوباتها المتعددة .

ثانيهـا : مجاراة الأقضية والوقائع فى حينها ببيان حكم الله فيها عند حدوثها ووقوعها ، ومعلوم أن تلك الأقضية والوقائع لم تقع جملة ، بل وقعت تفصيلا وتدريجـا .

ثالثهـا : لفت أنـظار المسلمين إلى تصحيح أغلاطهم التى يخطئون فيها ، وإرشادهم إلى طريق الصواب،ولا ريب أن تلك الأغلاط كانت فى أزمان متفرقة ، فمن الحكمة أن يكون القرآن النازل فى إصلاحها متكافئا معها فى زمانها .

وقد يتساءل المرء : كيف اتسق للقرآن هذا التآلف المعجز ؟ وكيف استقام له

هذا التناسق المدهش ؟ على حين أنه لم يتنزل جملة واحدة ، بل تنزل آحادا مفرقة تفرُّق الوقائع والحوادث فى أكثر من عشرين عاما .

والجـواب أن هذه سمة من سمات الربوبية ، إذ لو كان من البشر لوجد فيه اختلاف ، خاصة وأنه نزل فى هذه الفترة الطويلة ، فهو كلام الواحد الأحد الذى لايقدر عليه أحد غيره ، يقول الله تعالى :

« **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا** » [النساء : ٨٢] .

فالقرآن الكريم ينطق نزوله منجما بأنه كلام الله وحده ، وتلك حكمة جليلة الشأن تدل الخلق على الحق فى مصدر القرآن :

« **قل أنـزلـه الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما** » [الفرقان : ٦] .

الفصـــــل الثـالث

العنـــــاية بالقرآن الـكريـــم

حفظـه فى الصــــدور :

نزل القرآن الكريم على محمد صلى الله عليه وسلم بلفظه ، ولما كان أميا لم يتعلم القـراءة والكتـابـة ، فقـد اهتم بحفـظه واستظهاره ، ومما دعا إلى اهتمام الصحابة بحفظه عن ظهر قلب أن أدوات الكتابة لم تكن ميسورة لديهم فى ذلك العهد ، ومن هنا كان التعويل على الحفظ فى الصدور يفوق التعويل على الحفظ بين السطور ، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يحفظه ويستظهره ، ثم يقرؤه على الناس على مكث ليحفظوه ويستظهروه ، وهى ضرورة حتمتها أنه نبى أمى ، بعثه الله فى الأميين يقول الله تعالى :

« هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » [الجمعة : ٢] .

فالمعـروف أن الأمىّ يُعوِّل على حافـظته فيما يهمه أمره ، ويعنيه استحضاره وجمعـه ، خصـوصا إذا أوتى من قوة الحفظ والاستظهار بما ييسر له هذا الجمع والاستحضار . وكذلك كانت العرب على عهد نزول القرآن ، فكان العربى يتمتع بسرعة الحفظ ، وقوة الذاكرة ، فوعت ذاكرته الأنساب والأيام ، وحفظ الأشعار والمفاخر ، فلم يكن من الصعب عليه أن يحفظ القرآن الذى احتل مكانة فى قلبه

تفوق ما كان يحفظه فى الجاهلية من أشعار وأنساب ، فحفظه ووعاه وحافظ عليه من النسيان ، لأنه ملك عليه قلبه ومشاعره ، وسيطر على أحاسيسه ووجدانه .

وعليه فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جامع القرآن فى صدره، فكان سيد الحفاظ ، ومرجع المسلمين فى كل ما يعنيهم من أمر القرآن ، وكان صلى الله عليه وسلم يقرؤه على الناس على مكث كما أمره ربه ، فكان يتلوه فى الليل والنهار ، ويقرؤه فى الصلاة ، أضف إلى ذلك أن جبريل عليه السلام كان يعارضه إياه (أى يسمعه له) فى كل عام مرة ، وعارضه إياه فى العام الأخير مرتين . قالت عائشة وفاطمة رضى الله عنهما : « سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن جبريل كان يعارضنى القرآن فى كل سنة مرة ، وإنه عارضنى العام مرتين ، ولا أراه إلا حضر أجلى » .

وأما الصحابة رضوان الله عليهم ، فقد كان كتاب الله فى المحل الأول من عنايتهم : يتنافسون فى استظهاره، ويتسابقون إلى مدارسته وفهمه ، ويتفاضلون فيما بينهم على مقدار ما يحفظون منه ، وربما كانت قرة عين السيدة منهم أن يكون مهرها فى زواجها سورة من القرآن الكريم يعلمها إياها زوجها ، وكانوا يؤثرون قراءة القرآن ليلا على راحة النوم ، فكن الذى يمر ببيوت الصحابة فى غسق الدجى يسمع فيها دويا كدوى النحل بالقرآن ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يذكى فيهم روح هذه العناية بالتنزيل، يبلغهم ما أنزل عليه من ربه ، ويبعث إلى من كان بعيد الدار منهم من يعلمهم ويقرئهم ، فبعث مصعب بن عمير ، وابن أم مكتوم أهل المدينة قبل هجرته، يعلمانهم الإسلام، ويقرئانهم القرآن ، كما أرسل معاذ بن جبل إلى مكة بعد هجرته للتحفيظ والإقراء . قال عبادة بن الصامت رضى الله عنه : « كان الرجل إذا هاجر (أى من مكة إلى المدينة) دفعه النبى صلى الله عليه وسلم إلى رجل منا يعلمه القرآن ، وكان يسمع لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ضجة بتلاوة القرآن ، حتى أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا » .

ومن هنا كان حفاظ القرآن الكريم فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم جما غفيرا، منهم الأربعة الخلفاء (أبو بكر وعمر وعثمان وعلى) ومنهم طلحة، وسعد ابن أبى وقاص، وابن مسعود، وحذيفة، وسالم مولى أبى حذيفة، وأبو هريرة، وابن عمر، وابن عباس، وعمرو بن العاص، وابنه عبد الله ، ومعاوية ، وابن الزبير وغيرهم كثيرون لايتسع المقام هنا لذكرهم ، فمن أراد معرفتهم فليرجع الى الكتب التى تحدثت عن جمع القرآن وحفظه . وبالاضافة إلى الذين حفظوه كله، فقد كان هناك أناس حفظوا أجزاء منه ، وكانوا من الكثرة بحيث أن الباحث يستطيع أن يتبين أن حافظى القرآن الكريم كانوا أعداداكبيرة، يدل على ذلك ما قاله القرطبى من أن من بين القتلى فى معركة واحدة (وهى معركة اليمامة) سبعين حافظا للقرآن ، كما قتل أيضا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل هذا العدد فى بئر معونة ، مما يدل على أن من كان يحفظ القرآن الكريم من الصحابة عددا كبيرا جدا .

ثم إن ما ذكرناه فى هذا المقام لايتجاوز دائرة الصحابة الذين جمعت ذاكرتهم كتاب الله فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، أما بعد وفاته عليه الصلاة والسلام ، فقد أتم حفظ القرآن آلاف مؤلفة من الصحابة ، واشتهر بإقراء القرآن منهم سبعة : عثمان، وعلى، وأبى بن كعب، وأبى الدرداء، وزيد بن ثابت، وعبد الله ابن مسعود، وأبو موسى الأشعرى كلهم جمعوا القرآن حفظا فى ذاكرتهم، وأقرءوه للناس ، وعلموا المسلمين قراءته الصحيحة ، فصارت ذلك سنة فى المجتمع الاسلامى حتى اليوم، فلم يخل عصر من حفاظ للقرآن، ولم يكن عددهم قليلا، بل وصلوا إلى آلاف مؤلفة ، بل لا أغالى اذا قلت : إن من يحفظ القرآن اليوم يعدون بالملايين ، ومنهم من لاتكون العربية لغته ، ولكنه يحفظه عن ظهر قلب بألفاظه العربية، وماذاك إلا لأنه يعتبر حفظه قربى يتقرب بها إلى الله، وأعتقد أنه لايوجد كتاب مقدس حظى من أتباعه بمثل ماحظى به القرآن الكريم فى مجال حفظه فى الذاكرة، وهو عامل مهم جدا فى مجال المحافظة عليه من الضياع أو التبديل والتحريف .

تدوينــــه :

حفظ القـرآن الكـريم فى ذاكـرة الـرسول صلى الله عليه وسلم ، وفى ذاكرة أصحابه ، لأنه كان أميا ، وكانت الأمية ، متفشية فى أصحابه أيضا ، ولكن لم تصرفهم عنايتهم بحفظه عن عنايتهم بكتابته ونقشه ، غير أن ذلك كان بمقدار ماسمحت به وسائل الكتابة وأدواتها فى عصرهم .

فقد اتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم كتابا للوحى ، كلما نزل شىء من القرآن أمرهم بكتابته مبالغة فى تسجيله وتقييده ، وزيادة فى التوثق والضبط والاحتياط فى كتاب الله تعالى ، حتى تُظَاهِر الكتابة الحفظ ، ويعاضد النقش اللفظ ، وكان هؤلاء الكتـاب من خيرة الصحابة فيهم : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، ومعاوية ، وأبىّ ابن كعب ، وزيد بن ثابت وغيرهم . وكان النبى صلى الله عليه وسلم يدلهم على موضـع المكتـوب من سورته ، فيكتبونه فيما يسهل عليهم من العُسْب (وهو جريد النخل يكشفون الخوص ويكتبون فى الطرف العريض) ، واللخاف (وهى الحجارة الرقيقة) ، والرقاع (وهى من جلد أو ورق) ، وقطع الأديم (والأديم : الجلد) ، وعظام الأكتاف والأضـلاع .

ثم يوضع المكتوب فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهكذا انقضى العهد النبوى والقرآن مجموع على هذا النمط ، بيد أنه لم يكتب فى صحف ،ولا فى مصاحف ،أى لم يجمع فى مجلد واحد ، بل كتب منثورا بين الرقاع والعظام ونحوها .

روى ابن عباس أنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزلت عليه سورة دعا بعض من يكتب فقال : ضعوا هذه السورة فى الموضع الذى يذكر فيها كذا وكـذا ، وعن زيد بن ثابت قال : « كنـا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القـرآن من الـرقاع » ، وكان هذا التأليف عبارة عن ترتيب الآيات حسب إرشاد النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان هذا الترتيب بتوقيف من جبريل عليه السلام . فقد ورد أن جبريل عليه السـلام كان يقول : ضعوا كذا فى موضع كذا ، ولا ريب أن جبريل كان لايصدر فى ذلك إلا عن أمر الله عز وجل .

أما الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ فقد كان منهم من يكتبون القرآن ، ولكن فيما تيسر لهم من قرطاس أو كتف ، أو عظم ، أو نحو ذلك بالمقدار الذى يبلغ الواحد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يلتزموا توالى السور وترتيبها ، وذلك لأن أحدهم كان إذا حفظ سورة أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كتبها ، ثم خرج فى سَرِيَّة مثلا فنزلت فى وقت غيابه سورة ، فانه كان إذا رجع يأخذ فى حفظ ماينزل بعد رجوعه وكتابته ، ثم يستدرك ما كان قد فاته فى غيابه فيجمعه ، ويتتبعه على حسب ما يسهل له ، فيقع فيما يكتبه تقديم وتأخير بسبب ذلك ، وقد كان من الصحابة من يعتمد على حفظه فلا يكتب ، جريا على عادة العرب فى حفظ أنسابها واستظهار مفاخرها وأشعارها من غير كتابة .

وصفوة القول أن القرآن كان مكتوبا كله على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنه لم يكن مجموعا فى مصحف ، أى فى مجلد واحد ، وذلك لعدة أسباب منها : أنه لم يوجد من دواعى جمعه فى مجلد واحد مثل ماوجد فى عهد أبى بكر ، مما جعله يقرر جمعه فى مصحف واحد ، فالمسلمون وقتئذ (أى فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم) بخير ، والقراء كثيرون ، والإسلام لم تتسع رقعة انتشاره ، والفتنة مأمونة ، والتعويل لايزال على الحفظ أكثر من الكتابة ، وأدوات الكتابة غير ميسورة ، وعناية الرسول باستظهاره تفوق الوصف ، وتوفى على الغاية .

ثانيـــا :

أن ترتيب الآيات والسور ليس على ترتيب النزول ، أى أن نزوله كان على حسب الأحداث والأسباب ، ولم يكن ذلك موافقا لترتيب السور ، فلو جمع آنذاك فى مجلد واحد لاقتضى ذلك كثرة التبديل فى ترتيب المجلد والتغيير فيه . وقريب من هذا ما يحدث للمؤلفين عند كتابتهم للكتب ، فإنهم لايجلدون مايكتب فى مجلد واحد إلا بعد الانتهاء منه ، لأن الأفكار لاتأتى مرتبة مرة واحدة ، فكذلك الوحى الذى نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد كان ينزل حسب الحوادث

والملابسات ، وترتيبها مغاير للترتيب الذى أراده الله للقرآن الكريم ، فاقتضى ذلك أن يؤجل جمعه فى مصحف واحد حتى يتم نزوله كلـــه .

فلما استقـر الأمر بختام التنزيل ووفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتقرر الترتيب ، ووجد من الدواعى ما يقتضى نسخه فى مصحف أو مصاحف ، وفق الله الخلفـاء الـراشـدين ، فقـاموا بهذا الواجب حفظا للقرآن ، وحياطة لأصل التشريع الأول مصداقا لقول الله تعالى :

« إنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » . [الحجـر : ٩] .

جمع القرآن فى عهد أبى بكر :

لما توفى رسـول الله صلى الله عليه وسلم تولى الخـلافة أبو بكر رضى الله عنه، فواجهته فى بدء خلافته أحداث شداد ، كان من أهمها معركة اليمامة ، فقد دارت الحرب بين المسلمين وأهل الردة من أتباع مسيلمة الكذاب فى السنة الثانية عشرة من الهجرة، فكانت معركة حامية الوطيس ، استشهد فيها كثير من قراء الصحابة وحفظتهم للقرآن بلغ عددهم سبعين قارئا ، فأثار فقدان هذا العدد الكبير من الحفاظ اهتمام المسلمين بجمع القرآن وحفظه فى مصحف (أى فى مجلد واحد) حتى لايضيع بضياع حفاظه .

فذهب عمر إلى أبى بكر، واقترح عليه أن يجمع القرآن، خشية الضياع بموت الحفاظ وقتل القراء ، فتردد أبو بكر أول الأمر ، لأنه كان من الملتزمين بما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يرد أن يقدم على أمر لم يفعله رسول الله ، مخافة أن يجره التجديد إلى التبديد ، أو يسوقه الإنشاء والاختراع إلى الوقوع فى مهاوى الخروج والابتداع .

ولكنـه بعـد مفاوضة بينه وبين عمر تجلى له وجه المصلحة ، فاقتنع بصواب الفكـرة، فرأى أن الجمع الذى يشير به عمر ماهو إلا وسيلة من أعظم الوسائل النافعة إلى حفظ الكتاب الشريف ، والمحافظة عليه من الضياع والتحريف ، وأنه ليس

من محدثات الأمور الخارجة، ولا من البدع والاضافات الفاسقة ، بل هو مستمد من القواعد التى وضعها الرسول بتشريع كتابة القرآن ، واتخاذ كتاب للوحى ، وجمع ماكتبوه عنده حتى مات صلوات الله وسلامه عليه .

قال الامام عبد الله المحاسبى : « كتابة القرآن ليست بمحدثة ، فإنه صلى الله عليه وسلم كان يأمر بكتابته، ولكنه كان مفرقا فى الرقاع والأكتاف والعسب ، فإنما أمر الصديق بنسخها من مكان إلى مكان مجتمعا ، وكان ذلك بمنزلة أوراق ، وجدت فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيها القرآن منتشرا ، فجمعها جامع ، وربطها بخيط حتى لايضيع منها شىء » .

بعد أن اقتنع أبو بكر بأهمية جمع القرآن ، اهتم بتنفيذ هذا العمل ، فانتدب له رجلا من خيرة رجالات الصحابة ، ألا وهو زيد بن ثابت رضى الله عنه ، لأنه اجتمع فيه من المواهب ذات الأثر فى جمع القرآن مالم يجتمع فى غيره من الرجال ؛ إذ كان من حفاظ القرآن ، ومن كتاب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وشهد العرضة الأخيرة للقرآن فى ختام حياته صلى الله عليه وسلم ، وكان فوق ذلك معروفا بخصوبة عقله ، وشدة ورعه ، وعظم أمانته ، وكمال خلقه ، واستقامة دينه .

يروى البخارى أن زيد بن ثابت قال : أرسل الىّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة (أى عقب استشهاد القراء السبعين فى واقعة اليمامة) فإذا عمر بن الخطاب عنده ، قال أبو بكر رضى الله عنه : إن عمر أتانى فقال : إن القتل قد استحر (أى اشتد) يوم اليمامة بقراء القرآن ، وإنى أخشى أن يستمر القتل بالقراء بالمواطن ، فيذهب كثير من القراء ، وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن . قلت لعمر : كيف نفعل مالم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال عمر : هذا والله خير ، فلم يزل عمر يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك ، ورأيت فى ذلك الذى رأى عمر . قال زيد : قال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لانتهمك ، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتتبع القرآن ، فاجمعه . فوالله

لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىّ مما أمرنى به من جمع القرآن . . . فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال . . . فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر » .

انتهج زيد فى جمع القرآن طريقة دقيقة محكمة، وضعها له أبو بكر وعمر ، وكان فيهـا ضمان لحياطة كتاب الله بما يليق من تثبت بالغ ، وحذر دقيق ، وتحريات شاملة ، فلم يكتف بما حفظ فى قلبه ، ولا بما كتب بيده ، ولا بما سمع بأذنه ، بل جعل يتتبع ويستقصى آخذا على نفسه أن يعتمد فى جمعه على مصدرين اثنين :

أحدهما : ما كتب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والثـانى : ما كان محفـوظا فى صدور الرجال ، وبلغ من مبالغته فى الحيطة والحذر أنه لم يقبل شيئا من المكتوب ، حتى يشهد شاهدان عدلان أنه كتب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وممـا يجدر الإشارة إليه، أن جمع القرآن فى صحف على هذا النمط، لم يعرف لأحد قبل أبى بكر رضى الله عنه ، وذلك لاينافى أن الصحابة كان لهم صحف كتبوا فيها القرآن من قبل ، لكنها لم تظفر بما ظفرت به الصحف المجموعة على عهد أبى بكـر من دقة البحث والتحرى ، ومن بلوغها حد التواتر، ومن إجماع الأمة عليها ، ولذا كانت هى الصورة المعتمدة التى عنى بها المسلمون بالحفظ والتدوين حتى عصرنا الحالى .

جمع القرآن فى عهـد عثمان :

تحتاج اللغة العربية فى ضبط حروفها ، وتصحيح نطقها إلى نقط توضع فوق بعض الحروف لتمييزها عن بعضها ، وإلى شكل ليستقيم نطقها ، فلو لم توضع هذه النقط ، ويُوضَّح هذا التشكيل لأمكن نطق بعض الكلمات بصيغ متعددة ، فيختلف معنـاهـا طبقـا لكـل صيغـة من هذه الصيغ ، ومن هنا جاء اختلاف

المسلمين فى قراءة القرآن الكريم ، عندما اتسعت الفتوحات فى عهد عثمان رضى الله عنه ، وتفرق المسلمون فى الأمصار والأقطار ، لأن الخط العربى آنذاك لم يستعمل فيه النقط والتشكيل ، فقرأ الناس الكلمات المتشابهة بقراءات مختلفة ، لأن بعض الكلمات يقرأ رسمها بأكثر من وجه عند تجردها من الشكل والنقط نحو : « فتبينوا » من قوله تعالى :

« **إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا** » [الحجرات : ٦] .

فإنها تصلح أن تقرأ : « فتثبتوا » عند خلوها من النقط والشكل ، وكذلك كلمة « ننشزها » من قوله تعالى :

« **وانظر إلى العظام كيف ننشزها** » [البقرة : ٢٥٩] .

فإن تجرّدها من النقط والشكل يجعلها صالحة أن تقرأ : « ننشرها » بالراء ، كذلك كلمة « أف » فى قوله تعالى :

« **أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون** » [الأنبياء : ٦٧] .

وفى قوله :

« **والذى قال لوالديه أف لكما أتعداننى أن أخرج** » [الأحقاف : ١٧] .

وفى قوله :

« **فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما** » [الأسراء : ٢٣] .

فقد ورد أنها كانت تقرأ بسبعة وثلاثين وجها ، فكان كل إقليم يقرأ بقراءة من اشتهر بينهم من الصحابة، فأهل الشام قرأوا بقراءة أبىّ بن كعب ، وأهل الكوفة قرءوا بقراءة عبد الله بن مسعود وغيرهم قرأ بقراءة أبى موسى الأشعرى .

فكان الاختلاف بينهم فى حروف الأداء ، ووجوه القراءة طريقا يفتح باب الشقاق والنزاع فى قراءة القرآن الكريم ، وكان الاختلاف فى الأقطار النائية أشد استفحالا من النزاع الذى حدث فى الحجاز ، فكان الذين يسمعون اختلاف القراءات من الأمصار المختلفة إذا جمعتهم المجامع ، أو التقوا فى ميادين القتال،

يعجبون من اختلاف القراءات ، ويزيد تعجبهم وانكارهم كلما سمعوا زيادة فى اختلاف طرق أداء القرآن الكريم . فأدى بهم هذا الوضع إلى رمى بعضهم بعضا بالكفر والزندقة ، فتيقظت فتنة كادت تطيح فيها الرؤوس .

فرأى عثمان بن عفان بثاقب فكره ، وصادق نظرته، أن يتدارك الخرق قبل أن يتسع على الراقع ، وأن يستأصل الداء قبل أن يعز الدواء ، فجمع أعلام الصحابه وذوى البصر منهم، وجال الرأى بينه وبينهم فى علاج هذه الفتنة ، ووضع حد لذلك الاختلاف ، وحسم مادة هذا النزاع ، فأجمعوا أمرهم على استنساخ مصاحف ترسل إلى الأمصار ، وأن يؤمر الناس بإحراق كل ما عداها ، وألا يعتمدوا سواها ، وبذلك يُرْأَب الصدع ، ويجْبرَ الكسر ، وتَعْتَبر تلك المصاحف العثمانية الرسمية نورهم الهادى فى ظلام هذا الاختلاف ، ومصباحهم الكشاف فى ليل تلك الفتنة ، وحكمهم العادل فى ذلك النزاع والمراء ، وشفاؤهم الناجع من مصيبة ذلك الداء .

وبعد أن انفض الاجتماع شرع عثمان فى تنفيذ القرار الذى اتخذه المجلس ، وكان ذلك فى أواخر سنة أربع وعشرين من الهجرة ، فعهد فى نسخ المصاحف إلى أربعة من خيرة الصحابة، وثقات الحفاظ وهم : زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاصى ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وأرسل إلى أم المؤمنين حفصة بنت عمر، فبعثت إليه بالصحف التى عندها ، وهى الصحف التى جمع القرآن الكريم فيها على عهد أبى بكر رضى الله عنه ، وأخذت لجنة الأربعة فى نسخها . اتبع هؤلاء النساخ فى نسخهم القرآن الكريم طريقة علمية دقيقة ، فاللفظ الذى لاتختلف فيه وجوه القراءات كانوا يرسمونه بصورة واحدة لا محالة ، أما الذى تختلف فيه وجوه القراءات، فإن كان لايمكن رسمه فى الخط محتملا لتلك الوجوه كلها ، فإنهم يكتبونه برسم يوافق بعض الوجوه فى مصحف ، ثم يكتبونه برسم آخر يوافق بعض الوجوه فى مصحف آخر . وكانوا يتحاشون أن يكتبوه بالرسمين فى مصحف واحد، خشية أن يتوهم أن اللفظ نزل مكررا بالوجهين فى

قراءة واحـدة ، وليس كذلك ، بل هما قراءتان نزل اللفظ فى إحداهما بوجه واحد، وفى الثانية بوجه آخر من غير تكرار فى واحدة منهمــا .

وكـذلـك كانوا يتحاشون أن يكتبوا هذا اللفظ فى مصحف واحد برسميه : أحدهما فى الأصل والآخر فى الحاشية ، لئلا يتوهم أن الثانى تصحيح للأول . أضف الى ذلـك أن كتـابـة أحدهما فى الأصل والآخر فى الحاشية دون العكس تَحَكُّم ، أو ترجيح بلا مرجـح ، وذلـك نحـو كلمة « وصىَّ » « بالتضعيف » و « أوصى » بالهمز ففيها القراءتان .

أما اللفظ الذى تختلف فيه القراءات ، ويدل عليه الرسم بصورة واحدة تحتمـل هذا الاختـلاف ، ويسـاعدهم عليه ترك الاعجام والشـكل نحو « فتبينـوا » و « ننشزها » كما بينا ، فتكون دلالة الخط الواحد على كلا اللفظين المنقولين شبيهة بدلالة المشترك اللفظى على كلا المعنيين المنقولين . والذى دعا الصحابة الى انتهاج هذه الخطة فى رسم المصاحف وكتابتها، أنهم تلقوا القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بجميع وجوه قراءاته ، وبكافة حروفه التى نزل عليها ، فكانت هذه الطريقة أدنى الى الإحاطة بالقرآن على وجوهه كلها حتى لايقال : إنهم أسقطوا شيئا من قراءاته ، أو منعوا أحدا من القراءة بأى حرف شاء ، على حين أنها كلها منقولة نقلا متواترا عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « فأى ذلك قرأتم أصبتم فلا تماروا » .

وكان من الدستور الذى وضعه عثمان رضى الله عنه لهم فى هذا الجمع أيضا أنه قال لهؤلاء الثلاثة القرشيين : « إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القـرآن فاكتبـوه بلسـان قريش ، فإنـما نزل بلسـانهم »، ففعلوا حتى إذا نسخـوا الصحف فى المصـاحف رد عثـمان الصحف إلى حفصـة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحــرق .

* * *

دفع اختلاف الناس فى قراءة القرآن عثمان بن عفان إلى اتخاذ قرار بنسخ عدة نسخ من القرآن الكريم، طبقا للنسخة التى جمعت فى عهد أبى بكر رضى الله عنه وإرسالها إلى الأمصار المختلفة لتكون المرجع الرئيسى للقراءة الصحيحة للقرآن الكريم ، وفى ذلك يروى البخارى فى صحيحه بسنده عن ابن شهاب: « أن أنس بن مالك حدثه أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، وكان يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة ، فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ، ثم نردها إليك ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت (لأن لهجته لم تكن قرشية ، بخلاف الثلاثة فهم كانوا قرشيين) فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم ففعلوا ، حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة ، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق .

بعد أن أتم عثمان نسخ المصاحف بالصورة التى بيناها ، عمل على إرسالها وإنفاذها إلى الأقطار ، وأمر أن يحرق كل ماعداها مما يخالفها، سواء أكانت صحفا أم مصاحف ، وذلك ليقطع عرق النزاع من ناحية ، أو ليحمل المسلمين على الجادة فى كتاب الله من ناحية أخرى ، فلا يأخذوا إلا بتلك المصاحف التى توافر فيها من المزايا مالم يتوافر فى غيرها .

وهذه المزايا هى :

١ ـ الاقتصار على ماثبت بالتواتر دون ما كانت روايته آحادا .

٢ ـ ترتيب السور والآيات على الوجه المعروف الآن ، بخلاف الصحف التى جمعت فى عهد أبى بكر فقد كانت مرتبة الآيات دون السـور .

٣ ـ كتابتها بطريقة كانت تجمع وجوه القراءات المختلفة والأحرف التى نزل عليها القرآن كما شرحنا فيما سبق من عدم إعجامها وشكلها ، ومن توزيع وجوه القراءات على المصاحف إذا لم يحتملها الرسم الواحد .

٤ ـ تجريدها من كل ماليس قرآنا ، كالذى يكتبه بعض الصحابة فى مصاحفهم الخاصة شرحا لمعنى ، أم توضيحا لمفهوم غامض على بعض الناس .

عندما أمر عثمان بحرق جميع المصاحف التى فى أيديهم والاعتماد على هذه النسخة ، امتثلوا لهذا الأمر واجتمعوا جميعا على المصاحف العثمانية ، حتى عبد الله بن مسعود الذى نقل عنه أنه أنكر أولا مصاحف عثمان، وأنه أبى أن يحرق مصحفه، رجع وعاد إلى حظيرة الجماعة ، حين ظهر له مزايا تلك المصاحف العثمانية ، واجتماع الأمة عليها ، وتوحيد الكلمة بها .

نستطيع مما سبق أن نفرق بين مرات جمع القرآن فى عهوده الثلاثة . عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، وعهد أبى بكر ، وعهد عثمان رضى الله عنهما .

فالجمع فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم كان عبارة عن كتابة الآيات وترتيبها ووضعها فى مكانها الخاص من سورها ، ولكن مع بعثرة الكتابة وتفرقها بين عسب وعظام ، وحجارة، ورقاع، ونحو ذلك حسبما تتيسر أدوات الكتابة ، وكان الغرض من هذا الجمع زيادة التوثق للقرآن ، وإن كان التعويل أيامئذ كان على الحفظ والاستظهار .

أما الجمع فى عهد أبى بكر رضى الله عنه، فقد كان عبارة عن نقل القرآن وكتابته فى صحف مرتب الآيات أيضا ، مستوثقا له بالتواتر والإجماع ، وكان الغرض منه تسجيل القرآن ، وتقييده بالكتابة مجموعا مرتبا ، خشية ذهاب شىء منه بموت حملته وحفاظه .

وأما الجمع فى عهد عثمان رضى الله عنه، فقد كان عبارة عن نقل مافى تلك الصحف فى مصحف واحد إمام ، واستنساخ مصاحف منه ترسل إلى الآفاق الإسلامية، ملاحظا فيه تلك المزايا التى بيناها مع ترتيب سوره وآياته جميعا . وكان الغرض منه إطفاء الفتنة التى اشتعلت بين المسلمين حين اختلفوا فى قراءة القرآن ، وجمع شملهم على ماتواتر من طرق القراءات ، كى يحفظ كتاب الله من أن تدخله قراءات لم ترد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبذلك الجمع حفظ القرآن على طرق القراءات التى وردت عن رسول الله، فسلم بذلك من التغيير والتبديل ، وكان ذلك طبقا لما ورد فيه من قوله تعالى :

« لاتبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم » [يونس : ٦٤] .

تواتر رواية القرآن كتابة وحفظا :

وردت الاخبار المتواترة أن عدد النسخ التى كتبت كانت ستة ، فقد قال صاحب زاد القراء : لما جمع عثمان القرآن فى مصحف سماه الإمام ، ونسخ منه مصاحف ، فأنفذ منها مصحفا إلى مكة ، ومصحفا إلى الكوفة، ومصحفا إلى البصرة ، ومصحفا إلى الشام ، وحبس مصحفا بالمدينة .

ومما يجد الإشارة اليه أن الاعتماد فى نقل القرآن : كان ـ ولا يزال ـ على التلقى من صدور الرجال ، ثقة عن ثقة ، وإماما عن إمام إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، لذلك اختار عثمان حفاظا يثق بهم ، وأرسلهم إلى الأقطار الإسلامية ، واعتبر هذه المصاحف التى نسخها، وبعثها إلى تلك الأقطار أصولا ثوانى مبالغة فى الامر، وتوثيقا للقرآن ، ولجمع المسلمين على ما تواتر من وجوه القراءات ، فكان يرسل إلى كل إقليم مصحفه مع من يوافق قراءاته ، فقد روى أنه أمر زيد بن ثابت أن يقرىء بالمدنى ، وبعث عبد الله بن السائب مع المكى ، والمغيرة بن شهاب مع الشامى ، وأبا عبد الرحمن السلمى مع الكوفى ، وعامر بن عبد القيس مع البصرى .

ثم قرأ التابعون عن هؤلاء الصحابة ، فقرأ أهل كل مصر بها فى مصحفهم تلقيا عن الصحابة ، الذين تلقوه من فم النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم تفرغ قوم للقراءة والأخذ والضبط ، حتى صاروا فى هذا الباب أئمة يرحل إليهم ، يؤخذ عنهم ، وأجمع أهل بلدهم على تلقى قراءتهم ، واعتماد روايتهم ، ومن هنا نسبت القراءة إليهم ، كما أجمعت الأمة على مافى المصاحف ، فتعهدوها بالرعاية بجانب تلقيهم القراءة عن القراء .

وظلت الأجيال المتعاقبة يتعلمون طريقة قراءة القرآن جيلا عن جيل ، كما يتعهدون النص المكتوب بالرعاية والحفظ ، فحافظوا على النص الذى كتب فى عهد عثمان ، غاية الأمر أن هذا النص لم يكن منقوطا ولا مشكولا . وبقى كذلك حتى اتسعت الفتوحات الإسلامية ، فاختلط اللسان العربى بالعجمى ، وعجز بعض المسلمين عن قراءة النص القرآنى غير المنقوط قراءة صحيحة ، فاضطر المسلمون إلى نقط المصحف وتشكيله للمحافظة على أداء القرآن كما رسم ، وخوفا من أن يؤدى تجرده من النقط والشكل إلى التغيير فى قراءته ، وبذلك ظل النص ثابتا . وانتقلت طريقة القراءة من جيل إلى جيل عن طريق المشافهة حتى يومنا هذا ، إذ لم يخل عهد من وجود حفظة كانوا يعدون بالآلاف ، بل بعشرات الآلاف فى كل قطر ، يحافظون على طريقة نطق الحروف ، ويعلمونها لتلاميذهم ، وبذلك حفظ القرآن الكريم نصا وقراءة .

أما تعهد المسلمين بالمحافظة على رسمه ، فقد زادت عدد النسخ التى كانت تنسخ من النسخة الأصلية . زيادة لامثيل لها ، إذ عكف كثير من المسلمين على كتابة القرآن ، وذلك بغية نشره على أوسع نطاق ، ويكفى للتدليل على كثرة ماينسخ من القرآن أن المسلمين رفعوا فى معركة صفين أكثر من سبعين نسخة من المصاحف على أسنة الرماح ، حين طلبوا الاحتكام فى النزاع إلى كتاب الله ، ولم يكن العدد المرفوع هو كل ما كتب عن النسخة الأصلية ، مما يدل على انتشار

النسخ انتشارا واسعا ، رغم ضيق المسافة الزمنية بين كتابته فى عهد عثمان وهذه الموقعة .

يتساءل بعض الناس عن مصير نسخة عثمان ، وآخر ما وصلنا عنها هو ما أخبرنا به ابن الجزرى (وكان حجة فى قراءة القرآن فى القرن الخامس عشر الميلادى) : أنه رأى فى زمانه النسخة التى أرسلها عثمان إلى أهل الشام ، كما رأى النسخة التى أرسلت إلى مصر . أما النسخة المحفوظة الآن فى خزانة الآثار بالمسجد الحسيني بالقاهرة فينسبها بعضهم إلى عثمان رضى الله عنه ، بينما يرى آخرون أنها منقولة عن المصحف العثمانى مباشرة ، نقلها على بن أبى طالب بخط يده ، وعلى كل فعدم بقاء المصاحف العثمانية . لايزعزع الثقة فى النص الموجود ، لأن معول النقل أساسا كان على التلقى من ثقة عن ثقة ، ومن إمام عن إمام إلى النبى صلى الله عليه وسلم، والسلسلة متصلة ومتواترة على أكمل وجه فى القرآن الكريم حتى يومنا هذا .

زد على ذلك أن المصاحف العثمانية ، نسخ على غرارها الآلاف المؤلفة فى كل عصر ومصر مع المحافظة على الرسم العثمانى .

فالحقيقة أننا لم نر ولم نسمع فى تاريخ البشرية أن كتابا أحيط بهالة من الإجلال والتقديس ، وبذل فى حفظه والمحافظة على رسمه جهود متصلة جيلا بعد جيل حتى يومنا هذا ، مثل القرآن الكريم ، حتى لقد بلغ الحال بالمسلمين فى المحافظة عليه والعناية به درجة ، جعلتهم يبعدونه عن المواطن التى تحط من قدره ، أو تلحق به أى شائبة من شوائب الإهمال ، أو عدم الاحترام فقد أفتى العلماء بكفر من رمى به فى قاذورة ، وبحرمة من باعه لكافر ولو ذميا، وقالوا بوجب الطهارة عند لمسه وحمله .

واستحبوا تحسين كتابته وإيضاحها وتحقيق حروفها ، ومما يدل على قمة الاحترام ما قاله النووى : « ويستحب للمسلم أن يقوم للمصحف اذا قُدِم به عليه لأن القيام يستحب للعلماء والأخيار فالمصحف أولى » .

فهذا الإجلال والتعظيم والتكريم للقرآن الكريم دفع المسلمين إلى بذل كل مالديهم للمحافظة عليه ورعايته كتابة وحفظا وتعليما .

* * *

خلاصـــة :

تعهـد المسلمـون القرآن الكريم بالرعاية والحفظ منذ أن كان ينزل تباعا على النبى صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا ، فقد حفظه فى حياته صلى الله عليه وسلم جماعة من الصحابة ، فكان كل قطعة منه يحفظها جماعة كثيرة بلغت حد التواتر ، واشتهـر من بين الصحابة جماعة عكفوا على حفظ القرآن كله ، حتى أطلق عليهم « القراء » . فلم يترك رسول الله صلى الله عليه وسلم دنياه إلى آخرته إلا بعد أن عارض مافى صدره على مافى صدور هؤلاء الحفظة ، الذين كانوا كثـرة .

وحسبنـا ما يقال عن كثرتهم أنه فى غزوة بئر معونه قتل منهم - أى من القراء - سبعون ، ثم حسبنا دليلا على عناية المسلمين الأوائل بحفظ القرآن فى الصدور أن بعض النساء أيضا كن يحفظنه ، وقد كان من النساء الحافظات : أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورها ويسميها الشهيدة . وقد أمرها رسول الله أن تؤم أهل دارها ، وذلك لعلمه أنها تحفظ القرآن الكريم .

ولم تقتصر العناية بحفظ القرآن على عهد الرسول ، بل كانت هذه ظاهرة عامة فى المجتمع الإسلامى فى كل عصر ، إمتثالا لما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خيركم من تعلمْ القرآن وعلمه » وفى رواية أخرى « إن القرآن مأدبة الله ، فتعلموا مأدبته ما استطعتم » . .

ولـذا قال العلماء : تعليم القـرآن فرض كفاية ، وكذلك حفظه واجب على الأمة ، بمعنى أنه لاينبغى أن يقل عدد الحافظين للقرآن فى كل مصر عن عدد

التواتر ، فإن تفرغ عدد للحفظ سقط الواجب عن الباقين ، وإلا فالكل آثم لعدم حفظ القرآن الكريم .

ومن هنا انتشر حفظ القرآن فى المجتمع الإسلامى ، بل إن المسلمين تنافسوا فى ذلك، لأنه كان إذا حفظ أحد أفراد العائلة القرآن الكريم شعرت العائلة كلها بالفخر والعزة ، وارتفع شأنها بين غيرها من العائلات، كذلك حرص الأزهر ، وهو أقدم جامعة إسلامية (فقد أنشىء فى عام ٩٧٠ م) على أن يكون طلابه المنتسبون إليه من حفظة القرآن الكريم ، ولا زال هذا النظام معمولا به « حتى الآن » ، فلا يسمح للطالب أن يلتحق به إلا إذا كان حافظا للقرآن ، ولهذا انتشرت مدارس تحفيظ القرآن الكريم فى المدن والقرى ، لإعداد من يريد الالتحاق بالأزهر .

هذا من ناحية حماية القرآن ورعايته بالحفظ ، أما من ناحية الكتابة ، فقد بدأت العناية به فى هذا الجانب منذ نزول الوحى على النبى صلى الله عليه وسلم ، إذ كان حوله كتاب يكتبون ما يمليه عليهم ، وكان الرسول حريصا على ألا يكتب عنه غير القرآن حتى لايلتبس به شىء آخر ، ويروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تكتبوا عنى شيئا سوى القرآن ، فمن كتب عنى شيئا سوى القرآن فليمحه » .

فالقرآن كان مكتوبا كله قبل وفاة النبى صلى الله عليه وسلم،غير أنه كان مفرقا فى الأجزاء التى كتب فيها ، أى أنه لم يكن مجموعا بين دفتين ، فلما تولى أبو بكر رأى ـ حين استحر القتل بالقراء فى معركة اليمامة ـ أن تجمع هذه الأجزاء فى مجلد واحد ، فعهد إلى زيد بن ثابت ـ وكان من كتاب الوحى أيام النبى صلى الله عليه وسلم ـ بجمعها .

إذاً فالمصحف الذى أمر أبو بكر بجمعه هو أول مصحف رسمى مجموع (لأنه كان هناك مصاحف خاصة عند بعض الصحابة تفرد كل واحد منهم بجمع نسخته)، غير أن هذا المصحف الرسمى لم يأخذ طريقه إلى الأمصار ، إلى أن وقع الاختلاف فى وجوه القراءات فى عهد عثمان ، فقرر أهل الشورى من المسلمين أن

تنسخ عدة نسخ من النسخة الأصلية . ترسل إلى الأمصار المختلفة ليرجع المسلمون إليها فى تصحيح قراءتهم ، وقد بينا هذه المسألة فيما سبق .

اهتم المسلمون منذ ذلك العهد بنسخ القرآن من النسخ الأصلية التى أرسلت إلى الأمصار ؛ فظهر كتاب اشتهروا فى هذا المجال ، يقول ابن اسحاق : أول من كتب المصاحف فى الصدر الأول ويوصف بحسن الخط : خالد بن أبى الهياج ، رأيت مصحفا بخطه ، وكان يكتب المصاحف للوليد بن عبد الملك ،وهو الذى كتب الكتاب الذى فى قبلة مسجد النبى صلى الله عليه وسلم بالذهب ، ويقال : إن عمر بن عبد العزيز قال له : أريد أن تكتب لى مصحفا على هذا المثال ففعل . وتحدث ابن إسحاق عن عدد كبير من الذين اشتهروا بكتابة القرآن الكريم بخط جيد منمق .

والذى لاشك فيه أن الكتاب تنافسوا فى كتابة القرآن ، وظلت المنافسة تزداد اشتعالا فى جميع أقطار العالم الاسلامى ، إلى أن ظهرت المطابع سنة ١٤٣١ فكان أول مصحف طبع بالخط العربى فى مدينة هامبورج بألمانيا ، ثم فى البندقية فى القرن السادس عشر الميلادى .

ويوجد الآن فى العالم الإسلامى لجان علمية متخصصة تراجع المصحف عند طبعه،ولا تسمح هذه اللجان بالطبع ،إلا إذا كان خاليا تماما من الأخطاء ، فلو وجد فيه خطأ مطبعى واحد ، ولو يسيرا منعت طبعه ، ومن أمهات هذه اللجان بل المرجع الأول فى هذا المجال : لجنة المصحف الموجودة فى مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر بالقاهرة ، ففيها حفظة ، يحفظون القرآن الكريم عن ظهر قلب، ويعرفون العلامات الخاصة التى توضع على الحروف معرفة جيدة ، ولا يعتمدون على الحفظ فقط ، بل يراجعون « بروفات » المطبعة على هيئة مجموعة لاتقل عن أربعة يمسك كل منهم بنسخة فى يده ، ويقرأ أحدهم « البروفة » مشيرا إلى العلامات الخاصة كلمة كلمة ، وحرفا حرفا ، والكل يراجع ذلك بما عنده فى النسخة الأصلية .

ولهذا تأخذ هذه المراجعة شهورا عدة ، قد تمتد إلى أكثر من سنة ، حتى يؤذن بالطبع عندما يتأكد أن النسخة خالية من أى خطـا .

وبهذه العناية الفائقة حوفظ على نص القرآن ، فلم ـ ولن ـ يسقط منه حرف أو نقطة ، أو شكل ، مما جعل المسلمين مطمئنين إلى سلامة طرق رواية كتابهم المقـدس .

الفصـــــــل الرابـــع

التفســــــــير

منهج التفسـير فى الصدر الأول :

كان العرب فى زمن نزول القرآن الكريم على محمد صلى الله عليه وسلم يلمون بمعانى اللغة العربية بالفطرة ، فلم يحتاجوا إلى الانتظام فى مدارس ـ كما هو الحال فى العصر الحـاضر ـ ليتعلموا أساليب اللغة ، وأسرارها ، وليتدربوا على تذوق صيغها وفهم معمياتها ، فهم ـ بحكم نشأتهم فى وسط يتبارى فيه الناس فى مجال الإبداع بأساليب اللغة ، ويتفاخرون بمن ينشأ فيهم من شعراء وحفاظ للشعر ، ورواة للأحداث والسير ـ كانوا قادرين على فهم ما يلقى إليهم من وحى الله الذى أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم .

ومما ساعد على فهمه : أنه كان ينزل مواكبا للأحداث والملابسات التى كانوا يعايشونها ، مما يضفى على النص ضوءا يساعد على توضيح ما تضمنه من معان ، وما اشتمل عليه من أحكام ، سواء كانت أوامر أو نواه . ولم يشذ عن هذه القاعدة سوى بعض تعبيرات بسيطة ، كانوا يسألون عنها النبى صلى الله عليه وسلم .

يقول جلال الدين السيوطى : القرآن إنما نزل بلسان عربى فى زمن أفصح العرب ، فكانوا يعلمون ظواهره وأحكامه ، أما دقائق باطنه ،فلا تظهر لهم إلا بعد البحث والنظر وسؤالهم ،النبى صلى الله عليه وسلم ، مثل قولهم : « وأينا لم يظلم نفسه » حينما نزل قوله تعالى :

« الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم » [الأنعام : ٨٢] .

ففسره النبى صلى الله عليه وسلم بالشرك ، واستدل بقوله تعالى :

« إن الشرك لظلم عظيم » [لقمان : ١٣] .

وكذلك حين قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من نوقش الحساب عذب » سألته عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها عن قوله تعالى :

« فسوف يحاسب حسابا يسيرا ، وينقلب إلى أهله مسرورا » [الانشقاق : ٨] .

فقال صلى الله عليه وسلم . [ذلك العرض] .

وكقصة عدى بن حاتم ، فحين نزل قوله تعالى :

« وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود » [البقرة : ١٨٧] .

سأل عدى بن حاتم رضى الله عنه ، أهما الخيطان المعروفان : أهما الخيطان المعروفان : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل هما سواد الليل وبياض النهار .

وعليه فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبين لهم ماخفى عليهم من معانى القرآن الكريم امتثالا لقول ربه :

« وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » [النحل : ٤٤] .

فمرجع تفسير ما استغلق على المسلمين فهمه من آيات القرآن الكريم فى ذلك العهد، هو النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما توفى كان مرجع بيان وتفسير القرآن الكريم، هم الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، واعتمدوا فى ذلك على استعمالات اللغة العربية عند العرب ، فقد روى ابن جرير فى تفسير قوله تعالى :

« أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب ، له فيها من كل الثمرات ، وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء ، فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت ، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون » [البقرة : ٢٦٦] .

أن عمر رضى الله عنه سأل الناس عن هذه الآية ، فما وجد أحدا يشفيه حتى قال ابن عباس وهو خلفه : يا أمير المؤمنين إنى أجد فى نفسى منها شيئا ، فتلفت إليه فقال : تحول هاهنا ، لم تحقر نفسك ؟ قال : هذا مثل ضربه الله عز وجل ، فقال : أيود أحدكم أن يعمل عمره بعمل أهل الخير وأهل السعادة ، حتى إذا كان أحوج ما يكون إلى أن يختمه بخير حين فنى عمره ، واقترب أجله ، ختم ذلك بعمل من عمل أهل الشقاء فأفسده كله ، فحرقه ، فى الوقت الذى كان أحوج إليه فيه من غيره .

روى الناس هذه الأخبار المتعلقة بتفسير الآيات ، سواء كانت عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أو كانت عن الصحابة ، غير أنه عندما تقدم الزمن خضعت هذه الأخبار للناموس العام للأحاديث والأخبار المروية ، من احتمال الخلط والوضع ، مما دفع المسلمين فى ذلك العصر إلى الاجتهاد فى تحرى هذه المرويات وتصحيحها ، فألقى هذا العمل العلمى الضوء على الثقات المعروفين بالصدق والأمانة ، فقبلت روايتهم ، وكشف عن ضعف رواة فردت روايتهم .

فلما استهل القرن الثانى الهجرى ، ودخلت العلوم الإسلامية فى دور التدوين انبرى أحد الأئمة الثقات من رجال الحديث ، وهو عبد الملك بن جريج المتوفى سنة ١٤٩ هـ إلى جمع تلك الأخبار فى كتاب ، فكان أول من ألف فى التفسير ، وهو على ثقته المشهود بها عن ابن سعد ومن بعده من علماء الرجال لم يتحر آثار تلك النقول ، ولكنه أورد الأقوال فى تفسير القرآن على علاتها ، فعقب على كل خبر بما قيل فيه من تجريح وتعديل ، فدخل علم التفسير بذلك إلى حيز التدوين الكتابى . غير أن من جاءوا بعده، اهتموا بوضع دراسة نقدية للنصوص المروية عن المفسرين السابقين ، فخرَّجوها تخريجا جديدا بأسانيدها مع الالمام بالنواحى الثلاث ، التى أصبحت أخبار التفسير راجعة اليها ، وهى : الأثرية واللغوية ، والعلمية ، بحيث أصبح لكل ناحية من تلك النواحى الثلاث أثر فى نقد الناحية الأخرى .

وتلك هى الخطة التى انتهجتها كتب التفسير، ابتداء من النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى . وسوف نلقى الضوء على نماذج من كتب التفسير التى ظهرت فى المجتمع الإسلامى .

ثقافة المفســـــر :

بين العلماء أنواع العلوم التى يجب توافرها فى المفسر فقالوا : هى اللغة ، والنحو، والصرف ، وعلوم البلاغة ، وعلم أصول الفقه ، وعلم التوحيد ، ومعرفة أسباب النزول، والقصص ، والأحاديث المبينة للمجمل والمبهم ، وعلم الموهبة ، وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم ، ولا يناله من فى قلبه بدعة أو كِبرْ ، أو حب دنيا ، أو ميل إلى المعاصى قال الله تعالى :

« سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق » [الاعراف : ١٤٦] .

وقد بين الإمام الشيخ محمد عبده : أن التفسير مراتب ، فأدناها ، أن يبين بالاجمال ما يُشرِب القلب عظمة الله وتنزيهه ، ويصرف النفس عن الشر ، ويجذبها إلى الخير وهى متيسرة لكل أحد ، يقول تعالى :

« ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر » [القمر : ١٧] .

أما المرتبة العليا فلا تتم إلا بأمـــور :

أحدها : فهم حقائق الألفاظ المفردة، بحيث يحقق المفسر ذلك من استعمالات اللغة ، فإن كثيرا من الألفاظ كانت تستعمل فى زمن التنزيل لمعان ، ثم غلبت على غيرها بعد ذلك بزمن قريب أو بعيد . فعلى المحقق المدقق أن يفسر القرآن بحسب المعانى التى كانت مستعملة فى عصر نزوله .

ثانيها : الأساليب ، فينبغى أن يكون عنده من علمها ما يفهم به هذه الأساليب الرفيعة ، وذلك يحصل بممارسة الكلام البليغ ومزاولته ، مع التفطن لنكته ومحاسنه ، والوقوف على مراد المتكلم منه ، ويحتاج فى هذا إلى علم

الاعراب ، وعلم الأساليب (المعانى والبيان) ، ولكن مجرد العلم بهذه الفنون وفهم مسائلها ، وحفظ أحكامها لا يفيد المطلوب ، بل لابد من إتقانها حتى يعرف كل صغيرة وكبيرة فيها .

ثالثها : علم أحوال البشر ، فقد أنزل الله هذا الكتاب ، وجعله آخر الكتب ، وبين فيه ما لم يبينه فى غيره ، وبين فيه كثيرا من أحوال الخلق وطبائعه وسننه الإلهية فى البشر، وقص علينا أحسن القصص عن الأمم وسيرها الموافقة لسنته فيها ، فلا بد للناظر فى هذا الكتاب من النظر فى أحوال البشر فى أطوارهم وأدوارهم ، ومناشىء اختلاف أحوالهم من قوة وضعف ، وعز وذل ، وعلم وجهل وإيمان وكفر ، ومن العلم بأحوال العالم الكبير علويه وسفليه ، ويحتاج فى هذا إلى فنون كثيرة ، من أهمها التاريخ بأنواعه .

أجمل القرآن الكلام عن الأمم ، وعن السنن الإلهية ، وعن آياته فى السموات والأرض ، وفى الآفاق والأنفس ، وهو إجمال صادر عمن أحاط بكل شىء علما ، وأمرنا بالنظر ، والتفكير ، والسير فى الأرض ، لنفهم إجماله بالتفصيل الذى يزيدنا ارتقاء وكمالا ، ولو اكتفينا من علم الكون بنظرة فى ظاهره ، لكنا كمن يعتبر الكتاب بلون جلده ، لا بما حواه من علم وحكمة .

رابعها : العلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن ، فيجب على المفسر القائم بهذا الغرض الكفائى أن يعلم ما كان عليه الناس فى عصر النبوة من العرب وغيرهم ، لأن القرآن ينادى بأن الناس كلهم كانوا فى شقاء وضلال ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم بعث به لهدايتهم وإسعادهم ، وكيف يفهم المفسر ما قبحته الآيات من عوائدهم على وجه الحقيقة ، أو ما يقرب منها ،إذا لم يكن عارفا بأحوالهم وما كانوا عليه ، يروى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : إن أجهل الناس بأحوال الجاهلية هو الذى يخشى أن ينقض عرى الاسلام عروة عروة . والمراد أن من نشأ فى الاسلام ولم يعرف حال الناس قبله ، يجهل تأثير هدايته وعناية الله بجعله مغيراً لأحوال البشر ، ومخرجا لهم من الظلمات إلى النور .

ومن جهل هذا يظن أن الاسلام أمر عادى ، كما يرى بعض الذين يتربون فى النظافة والنعيم ، يعدون التشديد فى الأمر بالنظافة والسواك من قبيل اللغو ، لأنه من ضروريات الحياة عندهم ، ولو اختبروا غيرهم من طبقات الناس لعرفوا الحكمة فى تلك الأوامر ، وتأثير تلك الآداب .

خامسها : العلم بسيرة النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وما كانوا عليه من علم وعمل وتصرف فى الشئون ، دنيويها وأخرويها .

هذا هو ما ينبغى أن يكون عليه المفسر ، وإلا عجز عن فهم كثير من معانى القرآن الكريم .

مناهج المفسرين :

من المعروف أن لكل علم منهجا خاصا يعرف به ، ويلتزمه كل من يشتغل به ، وقد يتفرع هذا المنهج إلى فروع طبقا لتصور المشتغلين به ، وفهمهم لأقرب الطرق وصولا إلى تحليل أجزائه ، وبيان مجمله . والتفسير لايخرج عن هذا النطاق المعروف فى مجالات البحوث والمعرفة ، فهو بيان للنص القرآنى الذى نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، غير أن المفسرين سلكوا ثلاث طرق ، عرفت بين العلماء بأنها : تفسير بالرواية ، ويسمى التفسير بالمأثور ، وتفسير بالدراية ، ويسمى : التفسير بالرأى ، وتفسير بالإشارة ، ويسمى التفسير الإشارى .

أما التفسير بالرواية ، فهو أن يُرْوَى نص يشرح الآية القرآنية ، سواء كان هذا النص من القرآن نفسه ، أو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو عن الصحابة رضوان الله عليهم .

فمثال ما جاء فى القرآن الكريم شرحا لنص آخر فيه قوله سبحانه وتعالى :

« وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر » [البقرة : ١٨٧] .

فإن كلمة : « من الفجر » بيان وشرح للمراد من كلمة : « الخيط الأبيض » التى قبلها . وكذلك قوله سبحانه :

« قالا ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لتكونن من الخاسرين » [الاعراف : ٢٣] .

فإنها بيان للفظ « كلمات » من قوله تعالى :

« فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه » [البقرة : ٣٧] .

فى رأى بعض المفسرين . وقوله تعالى :

« حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة ، وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب ، وأن تستقسموا بالأزلام » [المائدة : ٣] .

فإنها بيان للفظ : « مايتلى عليكم » من قوله سبحانه :

« أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم » [المائدة : ١٢] .

وقوله سبحانه :

« لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم ، وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار » [المائدة : ١٢] .

فإنها بيان للعهدين فى قوله تعالى :

« وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم » [البقرة : ٤٠] .

الأول للأول ، والثانى للثانى . وقوله تعالى :

« وما أدراك ما الطارق * النجم الثاقب » [الطارق : ٢ - ٣] .

فإن كلمة الثاقب بيان لكلمة (الطارق) التى قبلها ، وغير ذلك كثير ، وقد

عبر العلماء عن هذا القسم بقولهم : القرآن يفسر بعضه بعضا ، أى أنه إذا وجدت آية ، أو كلمة تحتاج إلى بيان ، فقد تفسرها آية ، أو كلمة أخرى ، كما ظهر واضحا من الأمثلة التى ذكرناها .

ومثال ما جاء فى السنة شرحا للقرآن الكريم : أنه صلى الله عليه وسلم فسر الظلم بالشرك فى قوله سبحانه :

« **الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون** » [الأنعام : ٨٢] .

وأيد تفسيره هذا بقوله تعالى :

« **إن الشرك لظلم عظيم** » [لقمان : ١٣] .

وفسر صلى الله عليه وسلم الحساب اليسير بالعرض ، حين قال : من نوقش الحساب عذب ، فقالت له السيدة عائشة : أو ليس قد قال الله تعالى :

« **فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا وينقلب إلى أهله مسرورا** » [الانشاق : ٩٧] .

فقال صلى الله عليه وسلم :« ذلك العرض »، بيانا للحساب اليسير ، وكذلك فسر الرسول صلى الله عليه وسلم القوة بالرمى فى قوله سبحانه :

« **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة** » [الأنفال : ٦٠] .

وفى صحيح كتب السنة من ذلك كثير من هذه الأمثلة .

وكلا من هذين القسمين لايشك مسلم فى قبوله . أما الأول فلأن الله تعالى أعلم بمراد نفسه من غيره ، وأصدق الحديث كتاب الله . وأما الثانى فلأن خير الهدى هدى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ووظيفته البيان والشرح ، يقول الله تعالى :

« **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم** » [النحل : ٤٤] .

وأما القسم الثالث من التفسير بالمأثور،فهو بيان القرآن الكريم بما صح وروده عن الصحابة رضوان الله عليهم، وقدقال الحاكم فى هذا : « إن تفسير الصحابى

الذى شهد الوحى والتنزيل له حكم المرفوع »، أى المروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن بعض العلماء قيد المقبول منه بما كان فى بيان النزول ونحوه مما لامجال للرأى فيه ، أما غير ذلك فهو من الموقوف ، وهو أقل درجة من المرفوع فى الاعتماد عليه فى التفسير .

ووجهة نظر الحاكم ومن وافقه : أن الصحابة رضوان الله عليهم قد شاهدوا الوحى والتنزيل ، وعرفوا وعاينوا من أسباب النزول ما يكشف لهم النقاب عن معانى الكتاب ، ولهم من سلامة فطرتهم وصفاء نفوسهم وعلو كعبهم فى الفصاحة والبيان ما يمكنهم من الفهم الصحيح لكلام الله ، وما يجعلهم يوقنون بمراده من تنزيله وهداه .

بيد أن الحافظ ابن كثير يقول : إن أكثر التفسير بالمأثور قد سرى إلى الرواة من زنادقه اليهود والفرس ومسلمة أهل الكتاب. قال بعضهم : وجل ذلك فى قصص الرسل مع أقوامهم ، وما يتعلق بكتبهم ومعجزاتهم ، وفى تاريخ غيرهم كأصحاب الكهف ، ومدينة إرم ذات العماد ، وسحر بابل ، وفى أمور الغيب من أشراط الساعة وقيامتها وما يكون فيها وبعدها ، وجل ذلك خرافات ومفتريات صدقهم فيها الرواة ، حتى بعض الصحابه رضوان الله عليهم .

أسباب ضعف الرواية بالمأثور :

يتطرق الضعف إلى تفسير القرآن بما يعزى إلى الصحابة والتابعين من وجوه :

أولها : مادسه أعداء الاسلام مثل زنادقة اليهود والفرس ، فقد أرادوا هدم هذا الدين عن طريق الدس والوضع ، حينما أعيتهم الحيل فى النيل منه عن طريق الحرب والقوة و عن طريق الدليل والحجة .

ثانيها : ما لفقه أصحاب المذاهب المتطرفة ترويجا لتطرفهم ، كشيعة عَلىّ

المتطرفين ، الذين نسبوا إليه ماهو منه برىء ، وكالمتزلفين الذين ساروا فى ركب العباسيين، فنسبوا إلى ابن عباس مالم تصح نسبته إليه تملقا لهم ، واستدرارا لدنياهم .

ثالثها : اختلاط الصحيح بغير الصحيح ، ونقل كثير من الأقوال المعزوة إلى الصحابة، أو التابعين من غير إسناد ولا تحرٍّ ، مما أدى إلى التباس الحق بالباطل ، زد على ذلك أن من يرى رأيا صار يعتمده دون أن يذكر له سندا ، ثم يجىء من بعده ، فينقله على اعتبار أن له أصلا ، ولا يكلف نفسه البحث عن أصل الرواية ، ولا من يرجع إليه هذا القول .

رابعها : أن تلك الروايات مليئة بالإسرائيليات ، ومنها كثير من الخرافات التى يقوم الدليل على بطلانها ، ومنها ما يتعلق بأمور العقائد التى لايجوز الأخذ فيها بالظن ولا برواية الآحاد ، بل لابد من دليل قاطع فيها، كالروايات التى تتحدث عن أشراط الساعة ، وأهوال القيامة، وأحوال الآخرة ، ويُذْكَر على أنها اعتقاديات فى الإسلام .

خامسها : أن ما نقل نقلا صحيحا عن الكتب السابقة التى عند أهل الكتاب ، كالتوراة والانجيل ، أمرنا الرسول صلى الله عليه وسلم أن نتوقف فيه ، فلا نصدقهم ، لاحتمال أنه مما حرفوا فى تلك الكتب ، ولا نكذبهم لاحتمال أنه مما حفظوه منها ، فقد قال الله تعالى فيهم :

إنهم « أوتوا نصيبا من الكتاب » .

ويقول ابن تيمية فى هذا الصدد : الاختلاف فى التفسير على نوعين : منه ما مستنده النقل فقط ، ومنه ما يعلم بغير ذلك ، والمنقول إما عن المعصوم أو غيره . ومنه ما يمكن معرفة الصحيح منه من غيره ، ومنه مالا يمكن ذلك ، وهذا القسم (أى الذى لايمكن معرفة صحيحه من ضعيفه) عامته مالا فائدة فيه ، ولا حاجة بنا إلى معرفته . وذلك كاختلافهم فى لون كلب أهل الكهف واسمه، وفى البعض

الذى ضرب به القتيل من البقرة ، وفى قدر سفينة نوح وخشبها ونحو ذلك ، فهذه الأمور طريقة العلم بها النقل ، فما كان منقولا نقلا صحيحا عن النبى صلى الله عليه وسلم قُبِل ، وما لا بأن نقل عن أهل الكتاب كعب ، ووهب ، وُقِف عن تصديقه وتكذيبه ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » ، وكذا ما نقل عن بعض التابعين وإن لم يذكر الناقل أنه أخذه عن أهل الكتاب .

وأما القسم الذى يمكن معرفة الصحيح منه فهذا موجود بكثرة . وأما ما يعلم بالاستدلال ، لا بالنقل ، فهذا أكثر ما فيه الخطأ من جهتين :

أحدهما : حمل ألفاظ القرآن على معان اعتقدوها لتأييدها به .

والثانية : التفسير بمجرد دلالة اللغة العربية ، من غير مراعاة المتكلم بالقرآن ، وهو الله عز وجل ، والمنزل عليه ، والمخاطب به .

وجملة القول : أن التفسير بالمأثور نوعان :

أحدهما : ما توافرت الأدلة على صحته وقبوله ، وهذا لايليق بأحد رده ، ولا يجوز إهماله وإغفاله ، ولا يجمل أن نعتبره من الصوارف عن هدى القرآن ، بل هو على العكس عامل من أقوى العوامل على الاهتداء بالقرآن . .

ثانيها : ما لم يصح لسبب من الأسباب التى ذكرناها فى مطلع هذا الحديث ، وهذا يجب رده ، ولا يجوز قبوله ، ولا الاشتغال به إلا لتمحيصه ، والتنبيه إلى ضلاله ، وخطئه ، حتى لايغتر به أحد .

وقد قام بهذا كثير من المفسرين ، كابن كثير، فقد تحرى الصحة فيما ينقل ، فبين ماهو باطل ، وما هو ضعيف ، وكان فى هذا صريحا لايحابى ، ولا يخاف أحدا فى بيان مايراه صحيحا .

والحق أن التفسير بالمأثور دخلت فيه روايات كثيرة عن أهل الكتاب ، تناولها الرواة دون تدقيق كاف ، أو تمحيص شامل لجوانبها كلها ، وعرفت هذه الروايات بالإسرائيليات .

الاســـرائيليات فى التفسـير :

دخلت روايات كثـيرة عن أهـل الكتـاب فى التفسـير بالمـأثـور ، عرفت بالإسرائيليات ، وهو اسم أطلق على القصص والأحداث التى تروى عن مصدر إسرائيلى ، وهم الشعب الذى عرف بهذا الاسم نسبة إلى جدهم إسرائيل ، وهم : يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ، وقد تحدث عنهم القرآن الكريم بهذا النسب فقال تعالى :

« لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » [المائدة : ٧٨] .

وقـــال :

« وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا » [الإسراء : ٤] .

وقـــال :

« إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون » [النمـل : ٧٦] .

فلفظ الإسرائيليات ـ وإن كان يدل ظاهره على القصص الذى يروى أصلا عن مصادر يهودية ، أى إسرائلية ـ يستعمله علماء التفسير ويطلقونه على ما هو أوسع ، وأشمل من القصص اليهودية ، فهو فى اصطلاحهم يدل على كل ما تطرق إلى التفسير من أساطير قديمة منسوبة فى أصل روايتها إلى مصدر يهودى أو نصرانى أو غيرهمـا ، بل توسـع بعض المفسرين فعـدوا من الإسرائيليات ما دسه أعداء

الإسلام من اليهود وغيرهم على التفسير من أخبار لا أصل لها فى مصدر قديم ، وإنما هى أخبار من صنع أعداء الإسلام ، صنعوها بخبث نية وسوء طوية ، ثم دسوها على التفسير ليفسدوا بها عقائد المسلمين . وإنما أطلق علماء التفسير لفظ الإسرائيليات على كل ذلك من باب التغليب للون اليهودى على غيره ، لأن غالب ما يروى من هذه الخرافات والأباطيل يرجع فى أصله إلى مصدر يهودى .

ولكننا نجد أنفسنا أمام سؤال يطرح نفسه ، ألا وهو : كيف تسربت الإسرائيليات إلى التفسير ؟

الواقع أن تسرب الإسرائيليات إلى التفسير مسبوق بتسرب الثقافة الإسرائيلية إلى الثقافة العربية فى الجاهلية ، فالعرب فى جاهليتهم كان يقيم بينهم جماعة من أهل الكتاب ، جلهم من اليهود الذين نزوحوا إلى جزيرة العرب من قديم ، والذين هاجروا إليها هجرتهم الكبرى سنة سبعين من ميلاد المسيح عليه السلام ، فرارا من العذاب والنكال الذى لحقهم على يد تيطس (Titus) الرومانى .

وقد حمل اليهود معهم إلى جزيرة العرب ما حملوا من ثقافات مستمدة من كتبهم الدينية ، وما يتصل بها من شروح ، وما توارثوه جيلا بعد جيل عن أنبيائهم وأخبارهم ، وكانت لهم أماكن يقال لها «المدارس» ، يتدارسون فيها ما توارثوه من ذلك ، وأماكن أخرى يقيمون فيها عباداتهم وشعائر دينهم .

ثم جاء الإسلام ، وجاء كتابه الخالد بعلومه وتعاليمه ، وكانت دعوة الإسلام أول ما ظهرت ، وانتشرت بين سكان الجزيرة العربية ، وكانت عاصمة الإسلام دار الهجرة « المدينة » ، وفى مسجد المدينة كانت تعقد مجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم لتعليم أصحابه ، وفى المدينة وما حولها وعلى بعد منها كانت تقيم طوائف يهودية كبنى قينقاع ، وبنى قريظة ، وبنى النضير ، ويهود خيبر ، وتيماء ، وفدك .

وكانت ـ بحكم هذا الجوار بين اليهود والمسلمين ـ تتم لقاءات بينهم ، لا تخلو ـ عادة ـ من تبادل العلوم والمعارف . كذلك كانت تتم لقاءات بين بعض المسلمين

وبعض اليهـود ، تدور فيهـا منـاقشـات ومجـادلات ، وتقـع فيهـا سؤالات واستفسارات ، ثم كان ماهو أهم من هذا كله ، وهو دخول جماعات من علماء اليهود وأحبارهم فى الإسلام ، كعبد الله بن سلام ، وعبد الله بن صوريا ، وكعب الأحبار وغيرهم ممن كانت لهم ثقافات يهودية واسعة ، وكانت لهم بين المسلمين مكانة مرموقة ، ومركز ملحوظ ، وبهذا كله التحمت الثقافة الإسرائيلية بالثقافة الإسلامية بصورة أوسع وعلى نطاق أرحب .

ومن هنا تأثر التفسير إلى حد كبير بثقافات أهل الكتاب على مافيها من أباطيل وأكـاذيب ، وكـانت للإسرائيليات فيهـا أثـر سيىء ، حيث تقبلهـا العامة بشغف ظاهر ، وتناقلها بعض الخاصة فى تساهل ، يصل أحيانا إلى حد التسليم بها ، على ما فيهـا من سخف بَيِّن ، وكذب صريح ، الأمر الذى كاد يفسد على كثير من المسلمين عقائدهم ، ويجعل الإسلام فى نظر أعدائه دين خرافات وترهات ، لولا ما قام به بعض العلماء والباحثين من التصدى لهذا النوع من الروايات ، فبينوا افتراءاتها وأباطيلها . والحق أن عمل الذين وقفوا لهذه الإسرائيليات، فمحصوا رواياتها ، وبينوا أخطاءها كان من الاعمال التى منعت طغيان هذه الروايات ـ إلى حد ما ـ على مفهوم ما جاء فى القرآن الكريم .

غير أن المرء يتساءل عن أسباب تقبل العامة لهذه الروايات ، وتساهل كثير من المفسرين فى روايتها فى التفسير دون تمحيص أو تدقيق !!!

* * *

ذكرنا أن التفسير مر بمرحلتين متميزتين :

أولاهمـا : مرحلة الروايـة .

وثانيهما : مرحلة التـدوين .

أما مرحلة الرواية ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس إلى أصحابه ، يحدثهم بما يهمـه ويهمهم من شئون دينهم ودنياهم ، وكان حديثه يتناول بعض

تفسيرات لما خفى عن صحابته من معانى القرآن الكريم . وكان الصحابة رضوان الله عليهم يعـون ذلك ويحفظونه ، ثم يبلغونه لبعض إخوانهم الذين غابوا عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولمن تتلمذ عليهم بعد ذلك من التابعين . وكـان التابعون يروى بعضهم لبعض ما تحملوه عن الصحابة ، كما يروونه لمن تتلمذ عليهم من تابعيهم . ولم يكن كل ما يرويه التابعون وتابعوهم مقصورا على ما هو مرفوع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل كان فى ضمن ما يروونه موقوفات على الصحابة أو التابعين ، بعضها يرجع إلى التفسير ، وبعضها يرجع إلى غيره من الأمور الدينية .

غير أن الرواية للمأثور من التفسير، لم تكن فى أدوارها المختلفة تمشى على نمط واحـد من الضبط والتثبيت ، ففى عصر الصحـابـة كانوا يتحرون الصحة فيما يروون ، أما فى عصر التابعين فقد كثر الوضع ، ونشأ الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكـان العلماء لايقبلون حديثـا إلا إذا كان مسندا، وثبت لديهم عدالة رواته وقوة ضبطهم . وفى عصر تابعى التابعين ازداد خطر الوضع حيث تفشى بصـورة مزعجة، وتطرق الكثير من الروايات الموضوعة إلى التفسير، خدمة لأهـواء المبتـدعة ، ونزعات المضللة ، فوقف علماء المسلمين ومحدثوهم أمام هذا الخطر موقف حزم وعزم ، وتصدوا لهذه المفتريات فكشفوا عن بطلانها ، وأبانوا للنـاس كذبها ، ولم يقفوا عند هذا الحد ، بل وضعوا للرواة قواعد وضوابط محررة، جعلوها معايير ومقاييس يمكن بواسطتها معرفة من تقبل روايته ومن لا تقبل .

ثم خلف من بعد هؤلاء خلف تساهلوا فى الرواية والمروى ، فاذا رووا حذفوا الأسانيد ، وإذا أخذوا مرويا لا يسألون عن سنده ، وكانت تلك طامة كبرى على المأثور من التفسير ، حيث عمى ذلك على الناس وجه الحق ، فلم يمكنهم أن يميزوا الصدق من الكذب ، ولا الحق من الباطل .

وأمـا مرحلة التدوين فقد بدأت فى نهاية القرن الأول الهجرى وبداية القرن

الثانى ، وكان ابتداء التدوين للتفسير والحديث ، وكانت طريقة التدوين فى ذلك الـوقت أن تذكر الروايات مقرونة بأسانيدها ، حتى يمكن عن طريق نقد السند معرفة درجـة المروى من الصحة ، أو الضعف ، ثم وجد بعد ذلك من المفسرين من اقتصر فى تدوين مايروى فى التفسـير على المـروى مجردا عن السند ، وكان هذا العمل فى مرحلة التدوين ـ كما كان فى مرحلة الرواية ـ طامة كبرى ، ذلك لأن حذف الأسانيد جعل من ينظر فى هذه الكتب يظن صحة كل ما جاء فيها ، ثقة منه بأصحابها ، وجعل بعض من كتبوا بعد ذلك فى التفسير ينقلون عنها ما حوت من أباطيل وأكاذيب ، معتقدين صحتها وصدقها .

وكان هذا بابا دخل منه كل ما دس على التفسير ، ومن أخطر ما دخل من هذا البـاب : الإسرائيليات التى تسربت إلى التفسـير على تدرج فى مرحلتى الرواية والتـدوين ، أمـا فى مرحلة الرواية فقد ذكر أن الصحابة كانوا يقرأون القرآن ، ويمرون على ما فيه من قصص وأخبار الماضين ويرونها تقتصر فى ذكر حوادثها على موضع العـظة والعـبرة ، وتـطوى جزئياتهـا وتـترك تفاصيلها ، والنفس شغوفة بالجرى وراء التفـاصيل ، فكـانوا ـ بحكم جوارهم لأهل الكتاب ـ يلقون بعض من أسلم منهم ، فيسألونهم عما تشوقت نفوسهم إليه ، فيجيبونهم بما يعرفون من ذلك ، غير أن رجـوع بعض الصحـابة إلى أهل الكتاب فى معرفة تفاصيل ما أجمله القرآن الكـريم من قصص وأخبار ، ولم يثبت فيه شىء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان على نطاق ضيق ، وكان تقبلهم لما يروى من ذلك مقيدا بقيود تجعلهم أقرب إلى تمحيص ما يروى ، ونقـد ما يقال لهم ، فلم يكن مجرد سماعهم لأهل الكتـاب يحملهم على تصـديق كل ما يقـال ، وإنـما كانـوا بحكم تقـدمهم فى الإسلام ، ومعرفتهم بأحكام كتاب الله ، قادرين على معرفة الصدق من الكذب .

ثم جاء عصر التـابعـين ، وفيه اتسـع النقـل عن أهـل الكتاب ، ونمت رواية الإسرائيليات فى التفسير ، وكان مرجع ذلك إلى كثرة من دخل فى الإسلام من أهل الكتـاب ، وشدة ميل نفوس القوم لسماع مافى كتبهم من أعاجيب ، حتى وجد فى

هذا العهد جماعة من المفسرين، أرادوا أن يسدوا ما يرونه ثغرات قائمة فى التفسير، بما وصل اليهم من الاسرائيليات ، فجاء ما روى عنهم فى التفسير مليئا بقصص كله سخف ، كالذى نراه فى كتب التفسير منسوبا الى قتادة ومجاهد .

ثم جاء عصر تابعى التابعين، فعظم شغف الناس بالإسرائيليات ، وأفرطوا فى الأخذ منها إلى درجة جعلتهم لايردون قولا ، ولا يحجمون عن أن يلصقوا بتفسير القرآن كل ما يروى لهم ، وإن كان لايتصوره عقل ، واستمر هذا الشغف بالإسرائيليات والولع بنقل الاخبار التى يعتبر الكثير منها نوعا من الخرافة الى أن جاء دور التدوين .

ويلاحظ ان الذين شحنوا التفسير بالإسرائيليات فى هذه المرحلة أكثرهم من القصاصين، الذين كانوا يجلسون إلى العامة فى المساجد وغيرها، يستميلون قلوبهم بما يروونه من أعاجيب تستهويهم ، ويتخذون من ذلك سبيلا الى استدرار ما فى أيديهم .

* * *

من المعروف أن الحديث دُوِّن ضمن ما دون من العلوم المختلفة ، وكان التفسير بابا من أبوابه ، وما جمع من المأثور أول الأمر كان مذكورا بأسانيده ، وكان فى جملته خاليا من الإسرائيليات إلا قليلا منها ، تقبله العقل الإسلامى ، لأنه لم يكن يتعارض مع نص شرعى ، وكان بعض منها مرويا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طريق صحيح، كأحاديث بنى إسرائيل الموجودة فى صحيح البخارى وغيرها من أمهات كتب الحديث .

ثم لما انفصل التفسير عن الحديث ودون كل منهما على حدة، كان ما يدون فى أول الأمر يدون مقرونا بأسانيده ، وكان فيما دُوِّن طائفة من الإسرائيليات غير قليلة وفى بعض منها غرابة ، وكان من يفعل ذلك من المفسرين يرى أنه مادام قد ذكر

الأسانيد فقد خرج من العهدة ، وعلى من ينظر فى السند أن ينقده ليتعرف على درجة المروى .

ثم جاء بعد ذلك طبقة ممن دونوا فى التفسير فحذفوا الأسانيد ، ولم يتحروا الدقة فيما يكتبون ، فجمعوا الصحيح وغيره فى مصنفاتهم ، وفى ضمن ذلك كثير من الإسرائيليات، فلبسوا بذلك على الناس أمر دينهم . وكلما تقدم الزمن بالناس، تهاون بعض من تصدوا لكتابة التفسير، حتى وجد من بينهم مَن أغرم بالقصص الإسرائيلى، حتى لايكاد يدع من ذلك شاردة ولا واردة ، ومن هؤلاء : أبو اسحاق الثعلبى المتوفى فى القرن الحادى عشر الميلادى .

وقد تناول ابن خلدون فى مقدمته مبدأ دخول الإسرائيليات فى التفسير وتطوره ، وبيّن الأسباب التى دعت إلى الاكثار من ذكرها فقال : « وقد جمع المتقدمون فى التفسير النقلى، وأودعوا فيه الكثير، إلا أن كتبهم ومقولاتهم تشتمل على الغث، والسمين، والمقبول، والمردود ،والسبب فى ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم ، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية ، فاذا تشوقوا إلى معرفة شىء مما تتشوق إليه النفوس البشرية فى أسباب المكونات ، وبدء الخليقة ، وأسرار الوجود، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ، ويستفيدون منهم ، وهم أهل التوراة من اليهود ، ومن تبع دينهم من النصارى، وأهل التوراة الذين كانوا بين العرب آنذاك بَدْواً مثلهم، ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب ، ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية ، فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التى يحتاطون لها ، مثل أخبار بدء الخليقة ، وما يرجع إلى الأخبار التاريخية وأمثال ذلك .وهؤلاء مثل: كعب الأحبار ، ووهب بن منبه ، وعبد الله بن سلام وأمثالهم ، فامتلأت التفاسير من المنقولات عنهم . وكان فى هذه الأخبار ماهو موقوف عليهم ، فلا يرجع إلى الأحكام مما يدفع العلماء إلى أن يتحروا فيه الصحة ، فتساهل المفسرون فى مثل ذلك، وملأوا الكتب بهذه المنقولات ، وأصلها - كما بينا - عن أهل التوراة الذين يسكنون البادية، ولا تحقيق

عنـدهم بمعـرفة ما ينقلونه من ذلك ، إلا أنهم بعد أن اشتهروا بين الناس، وعظمت أقـدارهم، لما كانوا يحتلونه من مقام عال - فى أعين الناس - فى مجال الدين ، تلقى الناس عنهم هذه الروايات بالقبول ، ونقلوا عنهم من يومئذ دون تدقيق أو تمحيص .

ومن هذا يتضح أن ابن خلدون أرجع قبول هذه الإسرائيليات فى تفسير القرآن الكريم ، إلى اعتبارات اجتماعية ، وأخرى دينية ، فعد من الاعتبارات الاجتماعية غلبـة البـداوة والأمية على العرب، وتشوقهم لمعرفة ما تتشوق إليه النفوس البشرية من أسباب المكونات، وبدء الخليقة ، وأسرار الوجود ، وهم إنما يسألون فى ذلك أهل الكتاب قبلهم .

وعد من الاعتبارات الدينية التى سوغت لهم تلقى المرويات فى تساهل وعدم تحر للصحة ، أن مثل هذه المنقولات ليست مما يرجع إلى الأحكام فيتحرى فيها الصحة التى يجب بها العمل . X

وسواء كانت هذه هى كل الأسباب ،أم أن هناك أسبابا أخرى، فإن كثيرا من كتب التفسـير قد اتسع لما قيل من ذلك وأكثر ، حتى أصبح ما فيها مزيجا متنوعا من مختلقات الأديان المختلفة ، والمذاهب المتباينة .

أرجع ابن خلدون أسباب قبول الإسرائيليات فى التفسير الى اعتبارات اجتماعية ودينية ، ويضـاف إليها ولوع الناس وشغفهم بقصص السابقين، مما كان سببا فى كثرة القصاص فى ذلك الزمن كثرة أزعجت بعض علماء المسلمين ، كما أزعجت بعض أولى الأمـر منهم ، فطردوهم من المسـاجـد ، ومنعوا الناس من الجلوس إليهم والاستماع لما يقصون ، ولكن هذا الاجراء لم يمنع القصاص من استمالة قلوب العامة، بما كانوا يروونه لهم من غرائب وأعاجيب القصص، والنفس كثيرا ماتنطلى عليها تلك الأعاجيب ، وتسلم فى بساطة ويسر للغرائب ولو كانت أكاذيب .

ويذكر ابن قتيبة مبلغ تأثير هؤلاء القصاص على قلوب العامة فيقول : « إنهم

كانوا يميلون وجوه العامة إليهم بما عندهم من المناكير، والغريب، والأكاذيب من الأحاديث ، ومن شأن العوام القعود عند القصاص ، كلما كان حديثهم عجبا خارجا عن فطر العقول ، أو كان رقيقا يحزن القلوب ، ويستغزر العيون .

وقد لجأ القصاص فى ترويج ما يقصونه إلى الكذب والتمويه على العامة ، فنسبوا بعض ما يروونه من ذلك إلى أعلام المحدثين وشيوخهم ، يرفعونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو يوقفونه على بعض أصحابه ، وكانوا يرون أن عملهم هذا يكسب قصصهم ثقة سامعيهم فيه ، وقبولهم له ، وهذا مالا يتوافر لمروى خلا من هذه النسبة .

ولقد بلغ الكذب فى نسبة ما يرويه بعض القصاص لبعض أعلام المحدثين حد الوقاحة ، إذ يروى السيوطى شيئاً من ذلك عن جعفر بن محمد الطيالسى قال : « صلى أحمد بن حنبل ويحيى بن معين فى مسجد الرصافة ، فقام بين أيديهم قاص فقال : حدثنا أحمد بن حنبل ويحيى بن معين قالا : حدثنا عبد الرازق عن معمر عن قتادة عن أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قال : لا إله إلا الله ، خلق الله من كل كلمة طيرا ، منقاره من ذهب ، وريشه من مرجان . . . وأخذ فى قصته نحوا من عشرين ورقة ، فجعل أحمد ينظر إلى يحيى بن معين ، ويحيى ينظر إلى أحمد فقال : أأنت حدثته بهذا ؟ فقال : والله ما سمعت بهذا إلا الساعة ، فلما فرغ من قصصه وأخذ القطيعات (وهى قطع النقود الصغيرة يمنحها السامعون عادة للقاصى بعد الفراغ من قصصه)، ثم قعد ينظر بقيتها ، قام يحيى بن معين، فأخذ بيد القاص، فأقبل عليه متوهما أنه سينال منه شيئا، فقال يحيى : من حدثك بهذا الحديث ؟ فقال : أحمد بن حنبل ويحيى بن معين ، فقال له : أنا يحيى بن معين وهذا أحمد بن حنبل، ما سمعنا بهذا قط فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن كان لابد والكذب فعلى غيرنا ، فقال له : أنت يحيى بن معين ؟ قال : نعم ، قال : لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحمق ، ما حققته إلا الساعة فقال له يحيى : وكيف علمت أنى أحمق ، قال : كأن ليس فى الدنيا يحيى بن

معين ، وأحمد ابن حنبل غيركما ، لقد كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل ويحيى بن معين ، فوضع أحمد كمه على وجهه وقال : دعه يقوم ، فقام كالمستهزىء بهمـا .

فهـذه الـرواية تعكس ما كان يفـتريه القصاص على كبار المحدثين، ناسبين ما يروونه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وساعدهم على الاستمرار فى رواية هذه الأكاذيب ولوع الناس وشغفهم بســماع الأعاجيب من القصص والروايات ، فكـان ذلـك بابـا واسعـا ، دخلت منـه الروايات الإسرائيلية إلى تفسير القرآن الكريم ، وكان منها مالا يليق بجلال الله سبحانه وتعالى ، كما جاء فى كلامهم عن إهلاك قوم لوط : من أن الله وملكين معه ظهروا لإبراهيم فى صورة رجال ثلاثة ، فخف لاستقبـالهم ، ودعاهم ليستريحوا عنده ، ويغسلوا أرجلهم ، ويطعموا ، فأجابوه ، فأسرع إلى خيمته وقال لسارة : أسرعى بثلاث كيلات دقيقا سميذا ، اعجنى واصنعى خبز ملة ، ثم ركض إبراهيم إلى البقر ، وأخذ عجلا رخصا ، وأعـطاه لغـلامـه ليجهزه لهم ، ثم أخذ زبدا ولبنا والعجل الذى أعده ووضعه أمامهم ، فأكلوا وهم جلوس تحت شجرة ، ثم أخذ الرب يكلم إبراهيم فى أمر سارة وهلاك قوم لوط ، ولما فرغ من كلامه معه ، ذهب الرب ، ورجع إبراهيم إلى مكانه . . .

والقـرآن الكـريم حينـما يعرض لقصة هلاك قوم لوط ، يصرح بأن الذين وفدوا على إبـراهيم ليسوا إلا ملائكة مرسلين من قبل الله عز وجل ، جاءوا فى صورة آدميين، فلم يفـطن لكـونهم ملائكـة ، وقدم لهم طعاما : عجلا حنيذا ، فلم يأكلوا ، فنكرهم وأوجس منهم خيفة ، فأعلموه أنهم ملائكة أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط .

جاءت هذه القصة فى القرآن الكريم نقية من هذا الهراء الإسرائيلى وذلك حيث يقول الله سبحانه :

« **ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما ، قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ *فلما رأى أيديهم لاتصل إليه نكرهم ، وأوجس منهم خيفة قالوا لاتخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط** » [هود : ٦٩ : ٧٠] .

ومن ذلك الذى لايليق بجلال الله وكماله ، ما جاء فى الإصحاح الثانى من سفر التكوين: من أن الله فرغ من خلق الدنيا فى ستة أيام،فاستراح فى اليوم السابع ، وبارك ذلك اليوم ، وقدسه ، لأنه استراح فيه من جميع عمله الذى عمل .

والقرآن الكريم ينفى التعب عن الله فى صراحة ووضوح ، وذلك حيث يقول تعالى :

« **ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب** » [ق : ٣٨] .

كما رووا قصصا تقدح فى الأنبياء ، وترفع عنهم العصمة ، مما لايليق بمركزهم كمبلغين شرع الله للناس ، وسوف نورد أمثلة من ذلك .

* * *

لم تقتصر الروايات الاسرائيلية على وصف الله بما لايليق بجلاله وعظمته ، بل نسبت إلى الأنبياء أعمالا ، لاتتفق مع وضعهم كرسل ، يبلغون عن الله شرعه وأحكامه . ومن ذلك ما جاء فى الاصحاح التاسع عشر من سفر التكوين: من أن ابنتى لوط سقتا أباهما خمرا ، فزنى بهما وحملتا منه ، وولدت كل منهما ولدا : ابن الكبيرة أبو المؤابيين ، وابن الصغيرة أبو بنى عمون .

بينما القرآن الكريم يصرح بأن لوط أنكر على قومه الفاحشة فى لون من ألوانها بقوله :

« **أتأتون الذكران من العالمين * وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون** » [الشعراء : ١٦٥ - ١٦٦] .

فكيف يتصور منه - وهو نبى الله المعصوم - أن يقع على الفاحشة فى أقبح حالاتها وأفحش صورها . .

كذلك جاء فى الإصحاح الحادى عشر من سفر صموئيل الثانى : أن داود عليه السلام قام عن سريره ذات مساء وتمشى على سطح بيت المُلْك، فرأى من على السطح امرأة تستحم - وكانت المرأة جميلة جدا - فأرسل داود ، وسأل عن المرأة ، فأخْبِر أنها زوجة أوريا ، فأرسل داود من أحضرها إليه ، فاضطجع معها، فحملت منه ، وأخبرته بذلك، وأراد أن يتخلص من أوريا حتى تخْلص له زوجته ، فكتب إلى يوآب أن يحمل أوريا فى وجه الحرب الشديدة ، وأن يرجعوا من ورائه حتى يضرب فيموت .

وما كان لداود عليه السلام ، ولا لأى نبى أن يسقط إلى هذا الحد فى حمأة الشهوة ، فيزنى بامرأة غيره ، ويحتال على قتله . . إنها لَفِرْيَةٌ بلقاءُ مفضوحة . .

ومن أمثلة ما يخل بمقام النبوة أيضا ويجعل النبى داعية لنقيض دعوته ، وهدَّاماً لأصل رسالته، ما جاء فى الاصحاح الثانى والثلاثين من سفر الخروج : أن هارون عليه السلام هو الذى صنع العجل لبنى إسرائيل ، ودعاهم إلى عبادته . . والقرآن الكريم يصرح بأن الذى صنع العجل لبنى إسرائيل هو السامرى ، وأن هارون أنكر ذلك وحذرهم أن يفتنوا به ، وذلك حيث يقول الله سبحانه :

« وما أعجلك عن قومك ياموسى * قال هم أولاء على أثرى وعجلت إليك رب لترضى * قال : فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى * فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا * قال ياقوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى * قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم واله موسى فنسى * أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا * ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا * ولقد قال لهم

هارون من قبل ياقوم إنما فتنتم به ، وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعواامرى» *
[طـه : ٨٣ - ٩٠] .

وهنا يتساءل المرء عمن نقل هذه الروايات إلى المسلمين ، وكان له من التأثير ما جعلهم يسلمـون بها دون نقد أو معارضة . . والحقيقة أنه وردت فى القرآن الكريم بعض إشارات إلى أحداث وقعت فى الزمن القديم ، ولم يكن القصد من ذكرها ناحية تاريخية ، بل كانت للعظة والاعتبار فقط ، ولكن النفس الإنسانية تميل إلى البحث عن التفصيلات، مما شجع المغرضين والحاقدين على الإسلام إلى دس هذه الروايات فى التفسير . ولكى يضمنوا رواجها بين المسلمين نسبوها إلى من اشتهر من مسلمة أهل الكتاب (أى من أسلم من أهل الكتاب) . نسبوها إليهم زورا وبهتـانـا ، بينما سيرتهم وسلوكهم بين المسلمين تؤكد أنهم مبرءون من هذا العمل ، فممن نسبت اليهم هذه الروايات الاسرائيلية : عبد الله بن سـلام .

فيروى عنه فى التفسير روايات إسرائيلية، ينكرها عليه بعض من يتشككون دائما فى مرويات مسلمة أهل الكتاب ، ونحن لاننكر انه ـ بحكم كونه من أحبار اليهود ـ كان يحدث ببعض مافى كتبهم من قصص واخبار .

وليس عجيبـا ولا مستنكـرا ـ وقـد اجتمـع لديه علم التوراة وعلم القرآن ، وامتزجت فيه الثقافة اليهوديه بالثقافة الإسلامية ـ أن يتجمع حول اسمه كثير من الروايات الإسرائيلية، يرويها عنه كثير من المفسرين فى كتبهم، ومن كانت له مكانة علمية بين علماء أهل الكتاب وعلماء المسلمين كعبد الله بن سلام، كثيرا ما يكون من المصادر العلمية الهامة التى يرجع إليها ، وكثيرا ما يستغل اسمه لترويج فكرة معينة ، أو إشاعة خبر معين .

ونحن أمـــام ما يروى عن عبـد الله بن سلام ونسب إليه، لا نزيف كل رواية، ولا نقبل كل رواية ، بل علينا أن نعرض كل ما يروى عنه على مقياس الصحة المعتبر فى باب الرواية ، فما صح قبلناه ، ومالم يصح رفضنـاه .

ومعاذ الله أن يكون عبد الله بن سلام دسيسة على المسلمين ، وأن يكون قد أسلم خداعا لينفث سمومه بينهم ، لأنه لو كان كذلك لكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول المخدوعين فيه يوم أن جاءه مسلما ، فقد ثبت أنه أسلم عند قدوم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة .

* * *

سلك المروجون للمرويات الإسرائيلية فى التفسير مسالك عدة للايهام بأنها مرويات صحيحة ، ومن هذه المسالك : نسبتها إلى من اشتهر فى المجتمع الاسلامى بأنه مطلع على علم أهل الكتاب ، وهم أولئك الذين دخلوا فى الاسلام من اليهود والنصارى ، أسندوا إليهم هذه الروايات زاعمين أنهم تحدثوا بها ومن هؤلاء : عبد الله بن سلام . والمقام يقتضينا أن نلقى الضوء على كيفية دخول هذا الرجل إلى الإسلام ، ونبين مكانته العلمية ليتخذ هذا نبراسا فى ميزان التثبت مما نسب اليه .

فيحدثنا البخارى عن قصة إسلامه ، فيقول فى ضمن حديث ساقه فى باب الهجرة : « . . . فلما جاء نبى الله صلى الله عليه وسلم جاءه عبد الله بن سلام ، فقال : أشهد أنك رسول ، وأنك جئت بحق ، وقد علمت يهود أنى سيدهم ، وابن سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم ، فادعهم فاسألهم عنى قبل أن يعلموا أنى قد أسلمت ، فإنهم إن يعلموا أنى قد أسلمت قالوا فىّ ماليس فىّ ، فأرسل نبى الله صلى الله عليه وسلم إليهم ، فأقبلوا ، فدخلوا عليه ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا معشر اليهود ، ويلكم اتقوا الله ، فو الله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنى رسول الله حقا ، وأنى جئتكم بحق فأسلموا . قالوا : ما نعلمه . قال : فأى رجل فيكم عبد الله بن سلام . قالوا : ذلك سيدنا وابن سيدنا ، وأعلمنا وابن أعلمنا . قال : أفرأيتم إن أسلم ؟ قالوا : حاشا لله ، ما كان يسلم . قال : أفرأيتم إن أسلم قالوا : حاشا لله ما كان ليسلم . قال : أفرأيتم إن أسلم ؟ قالوا حاشا لله ، ماكان ليسلم . قال : يا ابن سلام . أخرج إليهم ، فخرج فقال : يامعشر اليهود ، اتقوا الله ، فو الله الذى لا إله إلا هو إنكم

لتعلمون أنه رسول الله ، وأنه جاء بحق ، فقالوا : كذبت ، فأخرجهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

ولا يعقل أن يكون إسلام هذا الرجل على هذا النحو خداعا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه لو خدع رسول الله فى أول الأمر ، فمحال أن يظل مخدوعا ، وأن يتخلى الله عن نبيه ، فلا ينبهه إلى هذه الخديعة وخطرها فى الوقت الذى لايزال القرآن ينزل عليه ، ويكشف له كثيرا من أحوال المنافقين وخباياهم كما قال سبحانه :

« **يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم ، قل استهزءوا إن الله مخرج ما تحذرون** » [التوبة : ٦٤] .

كذلك من المحال أن يكون عبد الله بن سلام قد أسلم ، ولا يزال بحنين الى يهوديته وما فيها من أباطيل ، فهو لهذا يروجها ويحدث بها ليفسد على المسلمين عقائدهم، ويشوش بها على أفكارهم ، وهل من هذا شأنه يشهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة ؟ روى البخارى بسنده الى سعد ابن أبى وقاص، أنه قال : ما سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشى على الأرض : إنه من أهل الجنة ، إلا لعبد الله بن سلام قال : وفيه نزلت هذه الآية :

« **وشهد شاهد من بنى اسرائيل علي مثله** . . » [الأحقاف : ١٠] .

كما روى عن يزيد بن عمير،أنه قال : حين حضرت معاذا الوفاة ، فقيل له أوصنا: فقال : التمسوا العلم عند أبى الدرداء، وسلمان، وابن مسعود، وعبد الله بن سلام الذى كان يهوديا فأسلم ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنه عاشر عشرة فى الجنة » .

كل هذا يدل على مبلغ علمه ، وسلامة دينه ، ولهذا لم نجد من علماء الحديث الذين نقدوا الرجال من ناله بتهمة ، أو مسه بتجريح ، وإنا وجدناهم يعدلونه ويوثقونه ، ولهذا اعتمده البخارى وغيره من أهل الحديث ، ولا يغض من شأن

عبـد الله بن سلام ماصح عنه من روايات إسرائيلية، فهى على قلتها لا تعدو أن تكون من قبيل ما أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى روايته ، ولا يمكن أن تخدش عدالته أو تضعف الثقة فيه ، وإلا ما اعتمده البخارى وغيره من أهل الحديث .

أما ما نسب إليه كذبا من إسرائيليات بقصد ترويجها ، فذلك ذنب من نسبها إليه ، وليس له جناية فى هذا ، وكم وضع الوضاعون من أحاديث ونسبوها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو خير منه فما حط ذلك من قدره ، ولا غض من مقامه ، وعليه فيجب على كل مسلم أن يضع الروايات الإسرائيلية المروية عنه تحت البحث لا لاتهام يوجه إليه ، بل لأن الرواة نسبوا إليه ما لم يعلمه ، ولم يحدث به بقصد الترويج ، وليس هذا ببعيد على الرواة الوضاعين ، فقد كذبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه ، فنسبوا إليه آلافا من الاحاديث التى لا أصل لها . ومَنْ هذا شأنه فى نسبة الأخبار كذبا ، لايتورع أن ينسب روايات كاذبة إلى من هو أقل شأنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فالتوقف فى الروايات الإسرائيلية فى التفسير ، ورد ما ظهر كذبه منها واجب على كل مسلم ، بل هو من سمات الباحثين المدققين ، سواء كانوا مسلمين أم غير مسلمين .

* * *

كان من أسباب شيوع الروايات الإسرائيلية فى التفسير نسبتها الى من عرف من المسلمين الذين كانت لهم صلة فى قبل الاسلام بمصادر هذه الروايات ، سواء كانت يهودية أم نصرانية ، وممن اشتهـر بنسبة هذه الروايات اليه : عبد الله بن سلام وكان يهوديا قبل ان يسلم ، وقد تحدثنا عنه .

ويعاصره ـ كما كان يماثله فى نسبة الروايات إليه ـ تميم الدارى ، وكان نصرانيا قبـل أن يسلم ، وهـو بحكم كونه نصرانيا ، كان على علم بمعارف النصرانية

وأخبـارهـا ، ويظهـر أنـه كان يعـرف بالإضـافة إلى هذا معارف أخرى تتعلق بالأحداث والملاحم ، وأخبار من سبق من الأمم .

لهذا تحدث كثيرا عن أخبار الأمم السابقة ، فرويت عنه هذه الأحاديث ، كما نسبت إليه أخبـار أخـرى ربـما لايعـرف عنها شيئا ، نسبها إليه الرواة رغبة فى رواجها . وقبول المسلمين لها ، لأن من الأسباب الرئيسية فى شيوع هذه الأخبار أن تسند إلى من عرف بغزارة المعرفة .

اشتهر تميم الدارى بين الناس برواية مثل هذه الأخبار، فكثرت نسبة غيرها من الـروايات الإسرائيلية إليه، بدرجـة جعلت بعض علماء المسلمين يرمونه بأنه لوث الإسـلام بمفترياته ومسيحياته ، فيقول أبو رية : « إذا كانت الإسرائيليات قد لوثت الـدين الاسـلامى بمفترياتها، فإن المسيحيات كان لها كذلك نصيب مما أصاب هذا الـدين، وأول من تولى كبر هذه المسيحيات هو : تميم بن أوس الدارى ، وهو من نصـارى اليمن » ثم يذكـر أنـه كان يحدث بروايات وقصص عن الجسّاسة ، والـدجال ،وإبليس ،وملك الموت ،والجنة والنار ، وأنه ملأ الأرض بهذه الروايات ،كما فعل زميلاه اللذان أتيا بعده وهما كعب الأحبار، ووهب بن منبه ، ثم يورد شاهدا على هذا العمـل ، وهو روايته لحديث الجساسة . ونص هذه الرواية أن فاطمة بن قيس سمعت منـادى رسـول الله صلى الله عليه وسلم ينـادى :الصـلاة جامعة ، فخـرجت إلى المسجـد، فصلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صف النساء ، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته ، جلس على المنبروهو يضحك، فقال : ليلزم كل إنسان مصلاه ،ثم قال أتدرون لم جمعتكم : قالوا الله ورسوله أعلم قال : إنى والله ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة ، ولكن جمعتكم لأن تميما الدارى كان رجلا نصرانيا ، فجاء فبايع وأسلم ، وحدثنى حديثا وافق الذى كنت أحدثكم عن مسيح الدجال ، حدثنى أنه ركب فى سفينة بحرية مع ثلاثين رجلا من لخم وجـزام، فلعب بهم المـوج شهـرا فى البحر ، ثم أَرْفَئوا إلى جزيرة فى البحر حتى مغرب الشمس ، فجلسوا فى أقرب السفينة فدخلوا الجزيرة فلقيتهم دابة . . فقالوا :

ويلك ما أنت ؟ فقالت : أنا الجساسة ، قالوا وما الجساسة قالت : أيها القوم انطلقوا إلى هذا الرجل فى الدير ، فإنه إلى خبركم بالأشواق . . فانطلقنا سراعا ، حتى دخلنا الدير ، فإذا فيه أعظم إنسان رأيناه قط خلقا وأشده وثاقا ، مجموعة يداه إلى عنقه ما بين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد ، قلنا ويلك ما أنت ؟ . . . . قال : . . . . أنا المسيخ وإنى أوشك أن يؤذن لى فى الخروج ، فأخرج ، فأسير فى الأرض ، فلا أدع قرية إلا هبطتها فى أربعين ليلة غير مكة وطيبة ، فهما محرمتان علىَّ كلتاهما . . . قالت (أى راوية الحديث) : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذه طيبة . . يعنى المدينة . ألا هل كنت حدثتكم ذلك ؟ فقال الناس : نعم . . .

فأبو رية يرى أن هذه الرواية دليل على تدليس تميم الدارى وكذبه فى الروايات ، ليدخل فى الإسلام ما ليس فيه ، ولهذا يجب أن نرد كل ما يروى عنه .

غير أن بعض العلماء ينزه تميما عن الافتراء فى الدين ، ويرون أنه كان راوية عزوفا عن خداع العامة بترهات القصص وأباطيلها ، فقد ذكر صاحب أسد الغابة وغيره: أن تميما كان أول من قص، وأنه استأذن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى ذلك فأذن له . ويرون أنه لايمكن لعمر ـ وهو المتشدد فى قبول الرواية ـ أن يأذن لتميم أن يقص على الناس ، وهو يظن أنه كذاب فى رواياته. بل إنهم يروون عن عمر أنه وصفه بأنه خير أهل المدينة ، ومن كان هذا شأنه لابد أن يكون مترفعا فى قصصه عما يتدنى إليه غالب القصاص من رواية الغرائب التى لا أصل لها . ثم يعللون قبولهم حديث الجساسة: بأنه وإن كان مشتملا على عجائب وغرائب فليس هناك ما يمنع من قبوله وتصديق ما فيه .

وإزاء هذا يجب على الباحثين ـ بصرف النظر عن الرأيين المتناقضين فى تقييم تميم الدارى كمحدث وراوية أخبار السابقين ـ أن ينظروا فيما يرويه ، فإن كان موافقا لنصوص القرآن الكريم قبل ، وإن كان معارضا لها ، أو مخالفا لروح الإسلام رفض ، وإن كان يتعلق بأشياء لا صلة لها بها فى القرآن الكريم فمدار

قبوله ورفضه هو العقل ولا شيء غيره ، وبذلك نتجنب الخطأ فى فهم الأخبار ، التى تروى فى كتب التفسير وغيرها من المصادر الإسلامية .

* * *

نسب الرواة الى عبد الله بن سلام وتميم الدارى كثيرا من الأخبار المكذوبة ، فتقولوا عليهما مالم يتفوها به، وألصقوا بهما كثيرا من الأخبار التى لايقرها الإسلام ، ولا تقبلها العقول ، وكان ميل المسلمين إلى معرفة ماعند أهل الكتاب أحد الدوافع الرئيسية وراء التوسع فى الخوض فى هذا المجال ، فإذا انتقلنا من الجيل الأول للإسلام وهو المسمى بعصر الصحابة إلى الجيل الثانى ، وهو الذى يطلق عليه : عصر التابعين ، وجدنا المسلمين قد توسعوا فى الأخذ عن أهل الكتاب ، فكثرت على عهدهم الروايات الإسرائيلية فى التفسير ، ويرجع ذلك إلى كثرة من دخل فى الإسلام من أهل الكتاب فى هذا العصر ، وشدة ميل نفوس المسلمين إلى سماع التفاصيل لما أجهله القرآن الكريم من أحداث يهودية أو نصرانية أو غيرها .

أضف إلى ذلك أن الناس قد تهاونوا فى قبول الروايات فى هذا العصر ، فلم يعد عندهم ذلك التدقيق فى الرواية ، والبحث عن مواطن الضعف والقوة فيها ، فكانوا فى العضر الأول يميزون ما بين ماهو ضعيف فيرفضونه ، وما هو صحيح فيقبلونه ، أما فى العصر الثانى فقد ضعفت هذه الحاسة عندهم ، فدخل فى التفسير كثير من الروايات التى لاتتفق مع أحكام الإسلام .

فإذا تتبعنا من اشتهر بالتفسير من التابعين، وجدنا من بينهم جماعة اشتهروا برواية الإسرائيليات، وكثرة نقلها عنهم كثرة أساءت اليهم ، كما يسرت لبعض النقاد أن يبسطوا إليهم ألسنتهم وأقلامهم بالسوء ، فكالوا لهم التهم، ورموهم جميعا بأقذع الألفاظ ، وأقبح الأوصاف ، ومن هؤلاء : كعب الأحبار ، ووهب بن منبه ، وكلاهما كان من علماء اليهود وأحبارهم الذين دخلوا الإسلام ، بعد ما تبين لهم أنه الحق . وقد روى عن كليهما ، ونسب إليهما كثير من الاسرائيليات . وبعض

مانسب إليهما حق واضح ، وبعضه كذب فاضح ، الأمر الذى جعل بعض النقاد يعتقـد أن كل ما نسب إليهـما قد قالاه حقا ، فكال لهما التهم ، ورأى أن كل مروياتهـما ماهى إلا أكـاذيب وأبـاطيل ، والبعض الآخر من العلماء دافع عنهما محتجا : بأن ليس كل ما نسب إليهما صحيح النسبة ، فالرواة قد نسبوا إليهما ما لم يقولاه لشهرتهما العلمية بما فى كتب أهل الكتاب . والمقام يقتضينا أن نذكر وجهة نظر من نقدوهما مع رد المدافعين عنهما .

يرى أبو رية فى كعب الأحبار : أنه أظهر الإسلام خداعا ، وطوى قلبه كلية على يهوديته ، وأنه سلط قوة دهائه على سذاجة أبى هريرة ، لكى يستحوذ عليه ، وينيمه ، ليلقنه كل ما يريد أن يبثه فى الدين الإسلامى من خرافات وأوهام ، وأنه قد طوى أبا هريرة تحت جناحه ، حتى جعله يردد كلامه بالنص ، ويجعله حديثا مرفوعا إلى النبى صلى الله عليه وسلم .

ويقصد أبو رية بهذا : بيان أن ما ذكر من أحاديث مروية عن أبى هريرة ، إنما هى مدسوسة من كعب الأحبار على أبى هريرة ، ليقوم بروايتها منسوبة إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، لتأخذ الصفة الرسمية الدينية .

ويرد عليه المدافعون فيقولون :

« إذا نحن تتبعنا حياة كعب فى الإسلام ، ورجعنا إلى مقالات بعض أعلام الصحـابـة فيه ، وأحصينـا من تحمل عنه وروى له ، ومن أخرج له من شيوخ الحديث فى مصنفاتهم . . . لو فعلنا ذلك لوجدنا فيه ما يدحض هذه الفرية ، ويشهد للرجل بقوة دينه ، وصدق يقينه ، وأنه طوى قلبه على الإسلام المحض والدين الخالص ، فقد أسلم كعب فى خلافة عمر رضى الله عنه ، وسكن المدينة وصحب عمر ، وروى عنه ، وشارك فى غزو الروم فى خلافة عمر ، ولما كان من المعروف أن عمر كان ذكيا ، فلا يعقل أن يساكن كعبا فى المدينة ، ويصاحبه ، ويكتبه فى جيش المسلمين لغزو الروم ، وهو مخدوع فيه وفى إسلامـه .

ولقد كان كعب على مبلغ عظيم من العلم ، وكان له بالثقافة اليهودية والثقافة الإسلامية معرفة واسعة . ولغزارة علمه وكثرة معارفه لهج بعض أعلام الصحابة بالثناء عليه ، فهذا أبو الدرداء رضى الله عنه يذكره ، فيقول : « إن عند ابن الحميرى لعلما كثيرا . . » .

وجمهور العلماء على توثيق كعب ، ولذا لانجد له ذكرا فى كتب الضعفاء والمتروكين ، وما كان المصنف أن يخدش عدالته ، أو يشك فى كونه ثقة بعد ما ثبت من رواية أعلام الصحابة عنه ، كأبى هريرة ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، فلم يكن هؤلاء ، ولا كل من روى عنه سذجا ، ولا مخدوعين فيه ، إنما أيقنوا أنه صدوق فيما يروى عنه فرووا عنه .

وإذا كان مسلم بن حجاج قد أخرج له فى صحيحه ، وكذا أخرج له أبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، فهذا دليل على أن كعبا كان ثقة ، غير متهم عند هؤلاء جميعا وتلك شهادة تلصق بـه .

* * *

كانت كثرة نسبة المرويات الاسرائيلية إلى كعب الأحبار سببا من الأسباب التى جعلت آراء العلماء تتضارب حوله إلى درجة التضاد ، فبينما نرى بعض العلماء ينزهه عن قصد السوء فى هذه المرويات ، وينسب الكذب إلى من نسبوا إليه الروايات التى ظهر ضعفها ، وأبان بعدها عن الحقيقة .

نرى آخرين ينسبون إليه أنه دخل الإسلام وفى قلبه هوى لدينه القديم ، فهو يروى الروايات المكذوبة بقصد بلبلة الفكر الإسلامى . وللتدليل على ذلك يروى ابن كثير أن عمر بن الخطاب ينهاه عن التحدث ويقول له : « لتتركن الحديث عن الأول ، أو لألحقنك بأرض القـردة » .

ويعلل المـدافعـون عنـه هذه الرواية : بأن ذلك لم يكن لتهمة ، وإنما مخافة التشـويش على عقائد العامة وأفكارهم ، لعدم تمييزهم بين الحق والباطل ، مما

يحدث به من أخبار الأول . وقد كان عمر رضى الله عنه يمنع المكثرين من الرواية مطلقا، حتى هدد أبا هريرة بمثل ما هدد به كعب الأحبار، فقال له: « لتتركن الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو لألحقنك بأرض دوس » .

وقد علل ابن كثير هذا بقوله : « وهذا محمول من عمر على أنه خشى من الأحاديث التى يضعها الناس على غير واضعها ، وأنهم يتكلمون على مافيها من أحاديث الرخص ، وأن الرجل إذا أكثر من الحديث ، ربما وقع فى أحاديثه بعض الغلط أو الخطأ فيحملها الناس عنه » .

ويشرح بعضهم القصد من نهى عمر لكعب ولأبى هريرة عن الحديث قائلا : « إن أبا هريرة كان يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بما سمعه منه ، وعن كعب بما يحدثه به ، فكان الناس يخلطون بين حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وحديث كعب ، فقد روى مسلم بن الحجاج بسنده إلى بشر بن سعيد: أنه قال : اتقوا الله ، وتحفظوا من الحديث ، فو الله لقد رأيتنا نجالس أبا هريرة ، فيحدثنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويحدثنا عن كعب الأحبار ، ثم يقوم ، فأسمع بعض من كان معنا يجعل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كعب ، وحديث كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى رواية يجعل ما قاله كعب عن رسول الله ، وما قاله رسول الله عن كعب ، فاتقوا الله وتحفظوا فى الحديث .

ومن هذا نرى أن الرواة خلطوا فى كثير من الأحيان بين ما يروى عن كعب ، وما يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما اختلط الأمر بسبب النسبة إلى كعب مالم يقله، فأصبح من العسير تمييز ما يروى عن كعب حقا ، وما نسب إليه زورا وبهتانا ، الأمر الذى جعل بعض العلماء ـ لأنهم فرضوا صحة النسبة إليه ـ يرمى كعبا بالكذب ، ويتهمون علماء الجرح والتعديل بأنهم اغتروا به وبوهب بن منبه ، وعدلوهما، فيقول السيد رشيد رضا فى مقدمة تفسيره بعد أن ذكر كلاما لابن تيمية فى شأن ما يروى من الإسرائيليات عن كعب ووهب ما نصه : « فأنت ترى

أن هذا الإمام المحقق - يريد ابن تيمية - جزم بالوقف عن تصديق جميع ما عرف أنه من رواة الإسرائيليات ، وهذا فى غير ما يقوم الدليل على بطلانه فى نفسه ، وصرح فى هذا المقام بروايات كعب، ووهب بن منبه ، مع أن قدماء رجال الجرح والتعـديل اغـتروا بهما وعـدلـوهما ، فكيف لو تبين لنا من كذب كعب، ووهب ، وعَزْوهما إلى التوراة وغيرها من كتب الرسل ما ليس فيها شىء منه ، ولا حومت حوله » .

وخـــلاصـــة القــول أن كعب الأحبـــار ، ووهب بن منبـه أكثـرا من رواية الاسرائيليات ، كما نسب إليهما قصص كثير ، فيه الغث والسمين ، والصحيح والعليل ، وكـان ذلـك مثـارا للنيل منهـما والطعن عليهما ، حتى رميا بالكذب والتـدليس ، وإفســاد عقـول المسلمـين مما جعل بعض العلماء يرموهما بالكذب والافتراء ، بينما يدافع عنهما من وثق فيهما . لكن الذى لا خلاف فيه بين الفريقين كثـرة الـروايات الإسرائيلية عنهـما، لأن ذلـك موجـود فى كتب التفسـير ، غير أن المدافعين عنهما يرون عدم صحة نسبة كل هذه الإسرائيليات إليهما ، لأن الرواة دسـوا عليهما الكثير ، فنسبوا إليهما روايات لم يعرفوها ، فهى مكذوبة عليهما ، ويخلصـون من هذا التعليل إلى نتيجة مفادها : أنه « مادام الأمر كذلك فليس لمنصف أن يتهمهـا بشىء من الكـذب ، ولا أن ينسب إليهما إفساد العقول ، وزعـزعة العقيدة ، ولا أن يحملها تبعة هذا الرواج للخرافات والأباطيل ، لأن غيرهما هم الذين أفسدوا العقول بإدخالهم فى التفسير مالا صلة له به .

وعليه فليس كل ما يروى من الإسرائيليات فى التفسير صحيحا ، ولهذا يجب على المسلمين ألا يعتمدوا على هذه المرويات فى تفسير القرآن الكريم ، بل ينبغى عليهم أن ينقوا التفسير منها ، ليستقيم الأمر ، فيصفو الفكر الاسلامى ، ويهتدى المسلمون الى الطريق السليم .

* * *

بعد أن انتهينا من الحديث عن رواة الإسرائيليات فى الجيل الأول والثانى من صدر الاسلام ، نحب أن نختم هذا الفصل بنبذة عمن عرف برواية هذه الإسرائيليات فى الجيل الثالث وهو ما يعرف بتابعى التابعين ، لأنهم عاصروا تدوين التفسير .

كانت الظاهرة الغالبة فى هذا العصر هى التساهل والتسامح فى رواية الإسرائيليات ، والافراط فى الأخذ منها إلى درجة مزعجة ، جعلت البعض منهم لايحجمون عن أن يلصقوا بالقرآن والسنة كل ما يروى لهم منها ، ولو كان لايتصوره عقل ، ولا يقره شرع ، ولهذا يجب على المشتغلين بتفسير القرآن الكريم أن يعرفوا بعض من اشتهر برواية الإسرائيليات فى هذا العصر ، ويبحثوا فى سيرهم ليعرفوا درجتهم فى الجانب العلمى وفى مجال الرواية ، حتى لاينخدعوا بما يرويه الرواة عنهم . وسوف نكتفى هنا بالكلام عن : محمد بن السائب الكلبى ، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج ، كنموذجين لما روى من إسرائيليات فى التفسير فى هذه الحقبة .

اشتهر محمد بن السائب الكلبى بالتفسير ، وكان بالإضافة إلى ذلك على جانب كبير من معرفة الأنساب والأخبار ، ومن أجل كونه إخباريا، كثرت رواياته الإسرائيلية فى التفسير ، بل لعل أهم أسباب إكثاره منها كونه يهودى النزعة ، فقد كان من أتباع عبد الله بن سبأ اليهودى ، وكان يقول عن نفسه : « أنا سبئىّ » والمعروف أن السبئية قوم يكذبون ، ولهذا حذر الأعمش منهم فقال : « اتق السبئية ، فإنى أدركت الناس ، وإنما يسمونهم الكذابين » ، ومحمد بن السائب الكلبى على دين أصحابه : يكذب ولا يترفع ، ويضع الحديث ولا يتورع ، وكان الثورى يروى عنه ويحذر منه فيقول لاصحابه : « اتقوا الكلبى ، فقيل له : إنك تروى عنه ، فيقول : أنا أعرف صدقه من كذبه » .

كان الكلبى مشهورا بالتفسير - كما قلنا - وليس لأحد تفسير أطول منه ، وقد اختلف العلماء فى قبول تفسيره ، فيوجد منهم من قال : رضوه فى التفسير ، كما

وجد من قال : أجمعوا على ترك حديثه ، وليس بثقة ، ولا يكتب ، واتهمه جماعة بالوضع . وقال السيوطى : الكلبى اتهموه بالكذب ، وقد مرض، فقال لأصحابه فى مرضه : كل شىء حدثتكم عن أبى صالح كذب .

فإذا كان هذا هو حال الكلبى ، وتلك هى شهادات علماء الحديث فيه ، فلا يجوز لأحد أن يخدع بكل ما جاء عنه فى التفسير لكثرة مافيه من الكذب والأباطيل .

أما عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج ، فهو فى الأصل رومى نصرانى ، أسلم على ماعنـده من معارف مسيحية ، وأخبار إسرائيلية ، ومسيحياته يروى الكثير منها ابن جرير فى تفسيره للآيات التى وردت فى شأن النصـارى .

ويعـد ابن جريج أول من صنف الكتب فى الحجاز، قال عبد الله بن أحمد بن حنبل قلت لأبى : من أول من صنف الكتب ؟ قال : ابن جريج . وقد رويت عن ابن جرير أجزاء كثيرة فى التفسير عن ابن عباس ، منها الصحيح ، ومنها ما ليس بصحيح ، وذلك لأنه لم يقصد الصحة فيما جمع ، بل روى ما ذكر فى كل آية من الصحيح والسقيم .

ولهذا لم يظفر ابن جريج بإجماع العلماء على توثيقه ، وتثبته فيما يرويه ، وإنما اختلفت أنظارهم فيه ، وأحكامهم عليه ، فمنهم من وثقه ، ومنهم من ضعفه .

فممن وثقه : العجلى ، حيث قال عنه : مكى ثقة ، وقال سليمان بن النضر : ما رأيت أصدق لهجة من ابن جريج ، وهناك من وثقه ، إلا أنه ذكر أنه كان يدلس فى أخباره ، فقد ذكره ابن حيان فى الثقات وقال : كان من فقهاء أهل الحجاز وقرائهم ، ومتقنيهم ، وكان يدلس ، وقال عنه الذهبى فى ميزان الاعتدال : أحد أعلام الثقات ، يدلس .

ومن العلماء الذين ضعفوا رواياته : أحمد بن حنبل ، فقد روى ابنه أنه قال : بعض هذه الأحاديث التى كان يرسلها ابن جريج أحاديث موضوعة ، كان ابن

جريج لايبالى من أين أخذها . . ويروى الأستاذ أحمد أمين فى كتابه « ضحى الاسلام » أن البخارى لم يوثقه ، وقال : إنه لا يتابع فى حديثه .

هذه هى نظرات العلماء إليه ، وآراؤهم فيه ، وتلك هى أحكامهم عليه وعلى رواياته ، ويبدو منها أن كثيرا منهم يحكم عليه بالتدليس ، وعدم الثقة ببعض مروياته ، لأنه لم يتحر الصدق فيما رواه ، بل كان ينقل كل ما سمع دون تدقيق ، أو تمحيص ، مما جعل الإمام أحمد بن حنبل يقول فيه : « إنه من أوعية العلم » ، ولكنه كان وعاء للعلم ، امتزج صحيحه بعليله ، وسقيمه بسليمه ، والدليل على ذلك ما قال أيضا أحمد بن حنبل عن أحاديثه : « بعض هذه الأحاديث التى كان يرسلها ابن جريج أحاديث موضوعة ، وكان ابن جريج لايبالى من أين أخذها . .

وعليه فيجب على المفسر ـ وكذلك قارىء التفسير ـ أن يكون على حذر فيما يروى عن ابن جريج فى التفسير ، حتى لايعتمد فى فهمه للقرآن الكريم على رواية ضعيفة أو خبر مكذوب ، فيقع فى الخطأ عند استنتاجه أحكام الشريعة السمحاء ، من كلام رب الأرض والسماء .

الفصـــــل الخامـس

ترجمـــة القـرآن الـكريــــــم

تحتل الكتب المقدسة مكان الصدارة فى عالم الأديان ، إذ تسجل فيها أصول العقيدة ، وتعاليم المعبود ، ورسوم الشريعة ، التى يطلب من العابد القيام بها ، وقل أن يخلو دين من الأديان من سجل مقدس ، يرجع إليه الأتباع فيما يعن لهم من أمور تتصل بالدين . وكلما كان الكتاب المقدس أكثر شمولا لنواحى الحياة ، كان دوره فى صياغة حياة الشعوب أكبر ، كذلك كلما كانت نصوصه بعيدة عن التحريف والتبديل كانت حجتها أبلغ ، والتفاف المعتقدين بها حولها ، واعتمادهم عليها أقوى ، ولهذا نجد المجتمعات الدينية ، التى يتطرق الشك إلى نصوص عقائدها تتفرق شيعا وأحزابا ، ويكون تفرقها قاتلا مدمرا لوحدة الجماعة ، ومضيعا لمعالم التشريع ، لأن الاختلاف فى التفسير والتأويل ، لايضعف الأمة ، بل يثرى فكرها، فيجعلها قادرة على التجديد والتطوير فى أساليب حياتها ، فأصولها ثابتة لم يعبث بها عابث ، ولم تمتـد إليهـا يد التخـريب والتدمير ، أما إذا لحق التبديل والتحريف أصولها ، تنكبت الأمة طريقها ، فهامت على وجهها بين طرق ، لا تدرى أيها يوصل إلى الهدف ، وتاهت فى اتجاهات تقذفها ذات اليمين وذات الشمـال .

فكل دين يحافظ أتباعه على كتابه المقدس ، فلا يبدلون فيه حرفا ، ولا يهملون نصا منه ، فيحذفونه ، ولا يتهاونون فى حفظه من الدخيل ، فلا يدخلون عليه تفسيرا أو تأويلا ، بمعنى لايرفعون التفسير إلى مقام النص ، بقيت أصول عقائده

كما هى ، لا تتغير ولا تتبدل ، وبذلك تسلم من الأهواء البشرية ، وتظل بمنأى عن المتغيرات الفكرية ، التى تصاحب تغير العصور والأزمان .

ولا يوجد دين على وجه الأرض حافظ أتباعه على كتابه المقدس مثل ما حافظ المسلمون على القرآن الكريم ، فقد نزل بلغة العرب ، لأنهم أول من خوطبوا به يقول الله تعالى :

« إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » [يوسف : ٢] .

ويقــول :

« وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا » [طه : ١١٣] .

ونزوله باللغة العربية أمر طبيعى ، وإلا كان غير منطقى كما قال تعالى :

« ولـو جعلنـاه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى (أى أأعجمى ، وهو منزل على عربى لقوم يتحدثون العربية ؟) قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء » [فصلت : ٤٤] .

أى هاد لهم إلى طريق الحق ، وشفاء لهم من الأمراض النفسية ، التى تعترى الإنسان ، عندما لايكون له مبدأ قويم فى الحياة ، يسير عليه .

فنصه العربى هو تعبير الله الذى أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم ، وتلاوته نوع من العبـادة، ولـذا لايجوز قراءته بلغة أخرى، بقصد تأدية هذا النوع من العبادة بتلاوته ، قال بدر الدين الزركشى فى كتابه « البرهان فى علوم القرآن » : « استقر الإجمـاع على أنـه تجب قراءته على هيئته التى يتعلق بها الاعجاز، لنقص الترجمة عنه، ولنقص غيره من الألسن عن البيان الذى اختص به دون سائر الألسـنة » .

وكان هذا الإجماع، لأن الترجمة ماهى إلا فهم المترجم للنص، ولما كان كثيرا من آيات القـرآن الكـريم تدل على معان متعددة ، فإن المترجم لا يترجم إلا معنى واحـد ، وهذا قصور فى نقل القرآن إلى اللغات الأخرى. قال القفال : « لايقدر أحد من التراجم على أن ينقل القرآن إلى شىء من الألسن ، لأن العجم لم تتسع

فى الكلام اتساع العرب ، ألا ترى أنك لو أردت أن تترجم قوله تعالى :

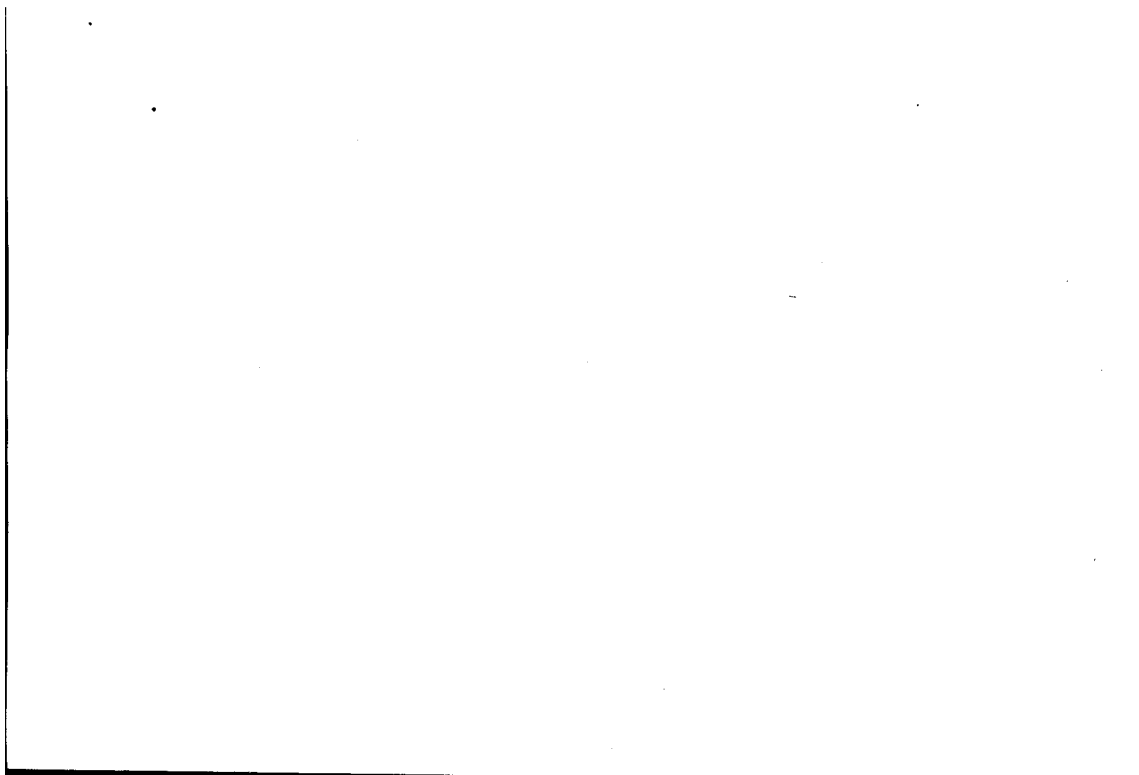
« وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء » [الأنفال : ٥٨] .

لم تستطع أن تأتى بهذه الألفاظ ، التى تؤدى المعنى المقصود من الآية ، إلا بعد بسط طويل ، وكذلك لو أردت أن تترجم قوله تعالى :

« فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا » [الكهف : ١١] .

والمقصود من منع العلماء ترجمة القرآن الكريم ،هو إمعان فى المحافظة على نصه ، بحيث لايفهم أهل اللغة المترجم إليها أن هذه الترجمة هى طبق النص الأصلى ، لأنهم جوّزوا ترجمته لشرح التعاليم التى جاءت به ، خاصة بالعمل والعبادة ، فقد قال العلماء : يجوز ترجمتـه للعمـل به ، فإن ذلك جائز للضرورة ، وينبغى أن يقتصر من ذلك على بيان المحكم منه ، والقريب المعنى بمقدار الضرورة من التوحيد وأركان العبادات ، ولا يتعرض لما سوى ذلك ، ويؤمر من أراد الزيادة على ذلك بتعلم اللسان العربى ، وهذا هو الذى يقتضيه الدليل ، فلم يكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قيصر إلا بآية واحدة محكمة لمعنى واحد ، وهو التوحيد والتبرى من الشرك .

وعليه فينبغى على من يقـرأ ترجمة القرآن الكريم أن يفهم أنها تعبير عن المعنى ، الذى فهمه المترجم من نص القرآن الكريم ، لا على أنها النص الحرفى ، فاذا أراد معـرفـة النص الحرفى ، فعليه بتعلم اللغة العربية ، ليقف على أسرار هذا الكتاب المقدس ، كما فعل ذلك كثير من المسلمين والباحثين من غير العرب .



الفصل السادس

الدعوة إلى التفكير فى القرآن الكريم

احتلت قضية التفكير فى تاريخ الإنسان المقام الأول فى سلسلة أحداثه اليومية ، بل إنها تعتبر قضيته الأولى ، فكيانه ووجوده مرتبط بها ، إذ أينما وجد الإنسان ، وحيثما وجد ، ظهر أثر التفكير واضحا ، ولذا عرفه علماء المنطق بأنه : « حيوان ناطق » ، ولم يكن مرادهم بالناطق ، أنه يصدر أصواتا خالية من المضمون الفكرى ، الدالة على وجود قوة مفكرة فيه ، أيًّا كانت درجة تطور هذه القوة - وإلا دخل فى الحد حيوانات أخرى ، تصدر أصواتا ذات دلالة حسية مفهومة بين بنى جنسها .

فمقصود علماء المنطق بهذا التعبير ، أن هذا الكائن الحى - وهو الإنسان - تفوق على الكائنات الحية الأخرى، بما فيه من قوة على التفكير ، مكنته من البحث والتنقيب فيما حوله . فإذا ذكر لفظ « إنسان » تبادر إلى الذهن أنه : هو ذلك المخلوق القادر على التفكير تفكيرا إيجابيا ، جعله يسيطر على الطبيعة ، وما فيها ، وما عليها .

ولما كان القرآن الكريم كتابا نزل من عند الله ، الذى خلق هذا الإنسان ، فلا بد أنه يحمل فى طياته ما يبيح لهذا الإنسان استعمال هذه القوة ، التى منحها الله له ، وإلا كان هناك تناقض فيما يفعله الله - وحاشا أن يصدر ذلك عن الله - إذ يخلق قوة فى الإنسان ، ثم يطالبه بعدم استعمالها ، والاستعمال الذى خلقت له . ومن هذا المنطلق يتحتم أن يكون القرآن الكريم داعيا الإنسان إلى استعمال قوة

التفكير التى منحها الله له . فإذا بحثنا عن وجود هذا الغرض فى القرآن، وجدناه يطالعنا بذلك فى أول آية نزلت منه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان مالم يعلم * » [العلق : ١ : ٥] .

كانت هذه هى الآية الأولى التى نزلت من القرآن الكريم ، وهى كما يبدو تتحدث عن القراءة والعلم ، والتعلم ، وكلها إشارات وتنبيهات إلى ما يجب على الإنسان عمله إزاء هذه الدعوة الجديدة ، ألا وهو : استعمال قوة الفكر التى أودعها الله فيه ، أى التفكير فيما يعرض عليه من دين نزل من عند الله .

لم يطالبه بادىء ذى بدء بالكف عن عبادة الأوثان والأصنام ، التى كانت شائعة فى مكة آنذاك ، ولو فعل لكان ذلك مصادرة للعقل ، إذ يطالب بتغيير عقيدة لمجرد الطلب ، دون التفكير فى الأسباب التى تحتم هذا التغيير ، وفى هذا إلغاء لوظيفة العقل ، الذى أودعه الله فى الإنسان .

فلو استعرضنا القرآن الكريم ، لوجدناه يحث على التفكير فى كثير من آياته ، لأن التفكير يقود المفكر إلى معرفة الواحد القهار ، كما أنه الوسيلة الوحيدة لفهم ما يعرض عليه من تشريعات وأحكام ، يقول الله تعالى :

« كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تتفكرون » [البقرة : ٢١٩] .

« قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون » [الأنعام : ٥٠] .

« أو لم يتفكروا فى أنفسهم » [الروم : ٨] .

« فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » [الأعراف : ١٧٦] .

« كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » [يونس : ٥] .

كذلك تكررت فى القرآن الكريم كلمات مرادفة للفكر مثل :

يفقهون ، يقول تعالى :

قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون » [الأنعام : ٩٨] .

بل ذم القرآن من لم يفقه ، وتوعده بسوء المصير ، يقول تعالى :

« فمال هؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثا » [النساء : ٧٨] .

« ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس ، لهم قلوب لايفقهون بها . . . أولئك كالانعام ، بل هم أضل » [الأعراف : ١٧٩] .

ومثل : يعقلون ، يقول تعالى :

« كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون » [البقرة : ٢٤٢] .

« . . . قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم * أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون * » [الأنبياء : ٦٦ - ٦٧] .

ولـو أحصينـا الآيات التى ورد فيها ذكر الفكر ومرادفاته، لضاقت بها المساحة الزمنية المخصصة لهذا الحديث ، وفى هذا دليل على أن القرآن الكريم قد أولى عناية خاصة بالتفكير والدعوة إليه، ذلك لأن الفكر - المتطور - خاصية من خواص الجنس البشرى ، بل هو أهم ما يميزه عن غيره من الكائنات الحية ، فلا يمكن أن يوجد إنسان سوى ، سليم بدون فكر ، فالفكر عصب حياته ، وأثر واضح فى جميع مجالات الحياة الإنسـانية ، غير أنه يختلف من مجتمع لآخر فى المضمون والقيمة، وفى قوة التأثير فى حياة الفرد ، وقدرته على التغيير فى النظم الاجتماعية ، فتفكير الإنسان فى المجتمعات البدائية كان بسيطا ، يكاد ينحصر - علاوة على المعتقدات الدينية - فى الصيد ، أو الرعى ، أو الزراعة لتحصيل ما يقتات به ، وكلما اتسعت دائرة نشاط الفكر ، ازدادت معلومات الإنسان ، فازدادت ثقافته التى يستخدمها فى تحسين وسائل الحياة ، فيتقدم المجتمع .

ولما كان القرآن الكريم قد نزل من عند الله الذى يعلم طبائع النفس البشرية ، ويدرك ما تحتاج إليه فى سبيل تقدمها ورقيها،وفى مقدمته : استخدام العقل فى وظيفته الأساسية ، وهى التفكير فيما حوله ، وفيما يعرض عليه من آراء واتجاهات ، ومن بينها : « العقيدة » ، احتلت الدعوة إلى التفكير فى القرآن مساحة واسعة ،

بل إنها كانت هى أول ما نزل منه على محمد صلى الله عليه وسلم .

* * *

دعا القرآن الكريم الإنسان فى كثير من آياته إلى التفكير ، وأعطاه الحرية فى هذا المجال ، لأن حرية التفكير شرط أساسى لتقدم المجتمع ، إذ هى البوتقة التى تنصهر فيها الآراء المختلفة ، فتعزل الأفكار الهزيلة ، والمبادىء الهدامة ، وتخرج الآراء الصحيحة صافية نقية ، تنير الطريق أمام مسيرة التقدم ، ولا ينبغى تقييد هذه الحرية ، بحجة المحافظة على وحدة الأمة ، أو الحيلولة دون وقوعها فى حلبة صراع فكرى ، لأن اختلاف الآراء دليل على حيوية المجتمع ومقدمة لتطوره ، إذا أراد كل طرف الوصول إلى الحق حيثما كان .

أما التقليد ـ وكذلك حمل الناس على أن يعتقدوا دون تفكير وبحث ، وقبل أن يظهر أمامهم الصحيح من الفاسد ـ فهو نذير بانهيار المجتمع ، لأنه يقضى على البراعم الفكرية فيه ، ويوقف قلبه النابض .

لهذا ذم القرآن الكريم التقليد ، أو إيمان الإنسان بدون تفكير فيما يعرض عليه من آراء واتجاهات ، يقول الله تعالى :

« ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين * إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون * قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين * قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين * » [الأنبياء : ٥١ : ٥٤] .

أى لو فكرتم فيما تعبدون أنتم وآباؤكم ، لتبين لكم أن هذه العبادة هى ضلال بَيِّنٌ ، كذلك ينهى القرآن عن اتباع من ضل ، حتى لايقعوا مثلهم فى الهلاك ، حيث يقول :

« قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا ، وضلوا عن سواء السبيل » [المائدة : ٧٧] .

كما يحكى القرآن مشهد عتاب بين المقلِّدين والمقلَّدين فيقول :

« وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه ، ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم ، يرجع بعضهم إلى بعض القول ، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لو لا أنتم لكنا مؤمنين * قال الذين استكبروا للذين استضعفوا : أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ، بل كنتم مجرمين » [سبأ : ٣١ - ٣٢] .

وإذا كان القرآن الكريم قد ذم التقليد فيما يتعلق بالجانب الروحى فى الإنسان ، ومجال التفكير فيه محدود ، إذ لاينبغى أن يخرج عن الإطار ، الذى حددته العقيدة ، فمن الأولى أن يذم التقليد - أو التحجر على القديم - فيما يتعلق بشئون الحياة الدنيوية ، السريعة التغير والتطور ، فهو يدفع المسلم دفعا إلى البحث فى الظواهر الكونية ، المحيطة به ، سعيا وراء تحسين مستوى الحياة فى المجتمع الإسلامى ، يقول الله تعالى :

« فإذا قضيت الصلاة ، فانتشروا فى الأرض ، وابتغوا من فضل الله » [الجمعة : ١٠] .

ويقول :

« هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » [الملك : ٣] .

ويقول :

« قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » [يونس : ١٠١] .

ولا يقتصر النظر على التأمل فقط ، بل يشمل البحث أيضا ، بدليل قوله تعالى :

« قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » [العنكبوت : ٢٠] .

ولا يعرف الإنسان كيفية بدء الخلق ، إلا بعد أن يعرف طبيعة المخلوقات ، من أنها لايمكن أن تكون قد خلقت عن طريق الصدفة ، بل لها خالق عليم حكيم ،

ولا يتأتى هذا إلا بعد البحث والتفكير والتجربة .

فهم المسلمون الأوائل هذه الروح فى القرآن الكريم ، فقادوا حركة علمية فى صدر الإسلام ، استهدفت شرح قضايا الإسلام من مصادره الأصلية : القرآن الكريم والسنة الصحيحة ، وكان استخدامهم للفكر :

إما تفقها واستنباطا للأحكام الدينية ، التى تنظم سلوك المسلم نحو خالقه فى العبـادات ، ونحـو أخيه المسلم فى المعـاملات ، أو معالجة لأحداث جدت فى المجتمع الاسلامى ، وبالتالى لم تعرف أحكامها من قبل .

وإمـا توفيقـا بين مبادىء الدين وتعاليمه من جانب ، أو فِكَرٍ أجنبية دخلت المجتمع الإسلامى من جانب آخـر .

أو دفاعا عن المبادىء التى وردت فيه ، أوردا لعقائد أخرى مناوئة لها ، حاولت أن تحتل منزلة فى الحياة الإسلامية لسبب أو لآخر .

كذلـك تأصلت هذه الروح ـ روح البحث والتفكير ـ التى دعا إليها القرآن الكريم فى الأجيال المتعاقبة فواجهوا التيارات الفكرية ، بحثا ونقاشا وحوارا مع أصحابها ، كما اجتهدوا فى البحث عن أحكام للأحداث التى جدت فى المجتمع الإسـلامى ، وكـان من نتيجة هذا النشاط الفكرى ظهور المدارس المختلفة فى المجتمع الإسلامى ، إذ تكونت : المدارس الكلامية ، ومذاهب الفقه ، ومدارس الصوفية ، ومدارس الفلسفة ، ومدارس تفسير القرآن الكريم ، ومدارس الحديث وعلومـه .

حقا : لقد كانت نهضة علمية ، قامت على أساس ما دعا إليه القرآن الكريم من استخدام العقل والتفكير فى كل ما يتعلق بالإنسان ، ولم يتخلف المسلمون فكريا إلا عندما فقدوا هذه الروح ، ولا يتسع المقام لبيان أسباب هذا التخلف ، وإنما الذى يمكن أن يقال فى هذا المقام ، أن القرآن الكريم لم يكن السبب فيه ، لأن كثيرا من آياته تحث على التفكير والبحث .

الفصـــــــل الســابع

حث الإســـلام على العلــــم

أقـرت المجتمعـات الإنسـانية ـ على اختـلاف مذاهبهـا السياسية والعقـدية والاقتصادية ـ حق الملكية الخاصة ، رغم ما بينها من تفاوت فى تحديد مجال هذه الملكية ، إذ يسـود فى كل بقاع الأرض ، مبدأ : أن ما للإنسان من متاع وأموال لايجوز لأحد اغتصابه ، فليس لكائن من كان أن يأخذ ماليس له ، وإن ساعدته الظروف على أن يأخـذه عنوة ، فإنه يظل فى دائرة عدم الشرعية ، فلا يقره قانون ، ولا يرضى به ضمـير الجـماعة الواعى ، المدرك للحدود الفاصلة بين حقوق الافراد والجماعات ، بل إن التنازع والتطاحن على الملكية والسيطرة يعطى الانطباع بأن هنـاك أمورا لايملكها الإنسان ، ولا يجوز له ـ على الأقل فى رأى أحد الطرفين المتنازعين ـ الاستحواذ عليها ، أو الانفراد بمنفعتها دون الآخرين .

يسرى هذا المبدأ على كل ما يحيط بالإنسان ، وتحرص كل المجتمعات المتحضرة ـ بل والبـدائية فى غالب الأحيان ـ على تلقينه ، وتعليمه للأطفال ، بل وتذكير الكبار به بين الحين والآخر ، غير أن هناك مجالا واحدا تعارفت البشرية على شيوعه بين شعوبها ، فلا يحرم منه إنسان ، ولا يحول بينه وبين طالبه أحد ، بل إن صاحبه يحرص على أن يصـل إلى كل النـاس ، بل يزداد سروره ، كلما رأى الجماعات البشرية تسعى للحصول عليه ، ذلكم هو الانتاج العقلى ، وهو ما تسطره أقلام العلماء والفلاسفة ، هو العلوم الإنسانية بجميع فروعها ، فالعلم ـ كما قالوا ـ لا

وطن له ، وصاحبه لا يحرص على احتكاره ، لأن من طبيعته الانتشار ، ومن لوازمه أن يصل إلى الناس ، فهو لايخرج من منطقة الإبداع فى الانسان ـ سواء كان ذلك فى صورة التعليم والتلقين الشفهى ، أو مسطورا بالقلم ـ إلا بقصد توصيله للآخرين ، وانتفاعهم به ، وتصرفهم فيه تصرفا مطلقا ، فلا أحد يحرم عليه استعمال نتائجه فى جميع مجالات الحياة ، وما نسمعه اليوم من تحريم نقل التكنولوجيا ـ وهى من نتاج العلم المشاع بين الناس جميعا ـ من وطنها إلى الأوطان الأخرى ، فلا يمثل القاعدة ، التى يجب أن يكون عليها وضع إنتاج العقل البشرى ، من أنه يجب أن يكون فى متناول كل بنى الإنسان ، لأن هذا الإجراء ـ وهو تحريم انتقالها ـ يمثل حجر عثرة فى سبيل تقدم الشعوب ، لجأ إليه أنانى ، لايحب إلا بنى جلدته ، أو جبار يريد أن يسيطر بامتلاكه لهذه التكنولوجيا على مقادير الشعوب الأخرى ، ويحدد مصائرها ، أو مستغل يميل إلى أن يمتلك وحده ما يدره هذا الجانب من أموال ، مضحيا فى سبيل ذلك بالقضية التى تهم البشرية جمعاء ، ألا وهى العمل على تقدم كل المجتمعات الإنسانية ، حتى لاتظل الفجوة بينها عميقة .

ورغم القيود التى وضعها أمثال هؤلاء الناس أمام انتشار الإنتاج العلمى ، فان طبيعة وضعها فى حياة الأمم والشعوب سوف تتغلب على هذه القيود ، لأن الانتشار خاصية من خواص العلوم ، فلابد أن تكون الغلبة لها .

كذلك ترفض مجتمعات قبول بعض الاتجاهات الفكرية ، فتقيم الحواجز بينها وبين انتشارها بين المواطنين ، وتتخذ من الإجراءات ما يحول بين الناس وبين معرفة هذه الاتجاهات ، إما خوفا على عقيدتها ، أو حفاظا على سلطان المؤسسات الثقافية والتعليمية فى بلدها ، لأنها ترى أن هذه الافكار ستقوض من سلطانها على نفوس الناس ، فذلك أيضا وضع غير طبيعى ـ خاصة فى عصرنا الحالى ، حيث ذابت الحواجز الثقافية والإعلامية بسبب التقدم الهائل فى مجال الاتصالات اللاسلكية سواء كانت مسموعة أو مرئية ـ ينبغى تركه ، كى يعود الأمر إلى وضعه

الطبيعى ، ويأخذ انتشار الأفكار بين المجتمعات البشرية طريقه السليم .

فإذا وضعنا هذه المسألة بأبعادها المختلفة أمام الإسلام ، لم نجد فيه إلا حثا على طلب العلم وتعليمه ، وتحذيرا من كتمان الحكمة والرأى الذى فيه نفع للناس ، ففى مجال طلب العلم ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » . ويقول : « اطلبوا العلم ولو بالصين » ، ويقول : « الحكمة ضالة المؤمن فأنى وجدها فهو أحق بها » . كما ينفى القرآن الكريم أن يكون هناك مساواة بين من يعلم ومن لا يعلم ، فيقول :

« قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب » [الزمر : ٩] .

وفى مجال وجوب تعليم الآخرين ، حذر الله المسلمين من أن يكونوا مثل من كتموا الحق ، لأن من يفعل ذلك يصيبه ما أصاب هؤلاء الذين منعوا تعليم غيرهم فقال :

« وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم ، واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون » [آل عمران : ٨٧] .

وقـــال :

« إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب ، أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » [البقرة : ١٥٩] .

هذا هو موقف الإسلام من قضية العلم والتعليم ، لايحرم على المسلمين تعلم أفكار الآخرين ، ولو بعدت أوطانهم ، ويحذر من احتكار الإنتاج العقلى ، لأن مبادئه جاءت مطابقة للطبيعة البشرية ، ومن خصائص هذه الطبيعة أن يكون العلم كلأ مباحا لكل الناس .

يحرص الإسلام على العلم ويشجع المسلمين على التعلم ، بل وَيُكْبِر كل من يبذل جهدا فى تحصيل العلم ، ويكرمه ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع » ، فهذا الحديث يدل على رفع منزلة من يطلب العلم ، حيث أن الملائكة تكرمه ، لا لشىء إلا أنه يسعى ليتعلم شيئا . ومما يدل أيضا على مكانة العلم والتعلم فى الإسلام ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم جعل فداء الأسرى بعد معركة بدر تعليم المسلمين الكتابة ، فقد وافق على أن الأسير الذى يعلم عشرة من أولاد المسلمين الكتابة يطلق سراحه ، وهذا يدل على أن الإسلام يرفع من شأن العلم ، بل يقدمه على الكسب المادى ، فقد تنازل الرسول عن الفداء المادى ، وجعل التعليم بدلا منه .

وقد بين القرآن الكريم أن العالم لايستوى مع الجاهل فى الدرجة فى الحياة الاجتماعية ، وماذاك إلا ليحث المسلمين على التعليم لينالوا مراكز أعلى فى المجتمع فقال تعالى :

« هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » [الزمر : ٩] .

وقال :

« شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم » [آل عمران : ١٨] .

فعطف « أولو العلم » على الملائكة ، وفى ذلك إعلاء لمكانتهم ، وسمو لشأنهم على غيرهم ممن لا يتعلمون .

كذلك أمر الله سبحانه وتعالى فى آيات كثيرة محمدا صلى الله عليه وسلم أن يجعل العلم حكما بينه وبين مجادليه ، مثل قوله تعالى :

« ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين » [الأحقاف : ٤] .

وقـــال :

« **نبئونى بعلم إن كنتم صادقين** » [الأنعام : ١٤٣] .

وقـــال :

« **قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا** » [الأنعام : ١٤٨] .

وليس من المصادفة أن تكون أول كلمات نزلت من القرآن الكريم أمرا بالدعوة إلى القراءة ، وأن تتضمن التوجيه إلى العلم والتعلم ، فإن أول ما أنزل من القرآن الكريم على محمد صلى الله عليه وسلم هو قوله تعالى :

« **اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم *** »[العلق : ١ - ٥] .

فهذا توجيه واضح إلى تعلم القراءة والكتابة ، بل فيه لفت نظر الإنسان إلى أدق العلوم التى تحظى فى عصرنا الحالى باهتمام كبير فى دوائر البحث والتنقيب ، ويحتل المكان الأول فى أروقة المختبرات والتجارب ، ألا وهو علم الحياة ، وخلق الإنسـان .

وليس من قبيل الصدقة أيضا أن ينزل فى القرآن الكريم قوله تعالى :

« **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين * ثم خلقنـا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فسكونا العظام لحما** » [المؤمنون : ١٢ - ١٤] .

ثم يأتى العلم الحديث بعد مئات السنين فيقرر - بعد أن استخدم المجاهر وأجهزة التصوير والأشعة وغير ذلك من الآلات التى لم تكن معروفة فى عصر نزول القرآن الكريم على محمد صلى الله عليه وسلم - أن الترتيب المنصوص عليه فى هذه الآيات هو ترتيب خلق الأجنـة .

أليس فى هذا دعوة صريحة من الله عز وجل للمسلمين بأن يبحثوا ويجربوا ، ليصلوا إلى النتائج العلمية التى تعود عليهم بالفائدة فى حياتهم ؟

أهناك أوضح من هذا فى بيان أن الإسلام يحث على التعليم ؟

ثم ألا يدل هذا على أن الإسلام لايحارب العلم ، ولا يحرض على اضطهاد العلماء ، بل على العكس من ذلك ، يدعو إلى العلم ، ويكرم العلماء فيرفع منزلتهم فوق منازل غيرهم من البشر ؟ ولا شىء غير العلم يرفع صاحبه بين بنى قومه ، يقول الله تعالى :

« **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** » [المجادلة : ١١] .

تعلم المسلمون من هذه التوجيهات الربانية ، فبذلوا جهدا كبيرا فى مجالات العلم والثقافة ، وأقاموا بذلك صرحا ثقافيا فى عصر كان الظلام مخيما على كل المجتمعات من حولهم ، فلم تكن هناك حركة ثقافية فى ذلك العصر تضاهى ما كان موجودا داخل المجتمع الاسلامى ، بل لم يكن للعلم والبحث والتجربة وجود فى ذلك العصر خارج الدولة الاسلامية ، وذلك أمر يعترف به العلماء المنصفون للإسلام فى الغرب ، فقد قال « موريس بوكاى » : « علينا أن نتذكر أن فى عصر عظمة الإسلام ، أى بين القرن الثامن والقرن الثانى عشر من العصر المسيحى ، وعلى حين كانت تفرض القيود على التطور العلمى فى بلداننا المسيحية ، أنجزت كمية عظيمة من الأبحاث والمكتشفات بالجامعات الإسلامية ، فى ذلك العصر كان الباحث بهذه الجامعات يجد وسائل ثقافية عظيمة ، ففى قرطبة كانت مكتبة الخليفة تحتوى على أربعمائة ألف مجلد ، وكان ابن رشد يعلم بها . وبها أيضا كان يتم تناقل العلم اليونانى ، والهندى ، والفارسى . لهذا السبب كان الكثيرون يسافرون من مختلف بلاد أوربا للدراسة بقرطبة، مثلما يحدث فى عصرنا أن نسافر إلى الولايات المتحدة، لتحسين وتكميل بعض الدراسات . ولكم هى كثير تلك المخطوطات القديمة التى وصلت إلينا بواسطة الأدباء العرب ، ناقلة بذلك الثقافة إلى البلاد المفتوحة . . . ولكم نحن مدينون للثقافة العربية فى الرياضيات (فالجبر عربى) وعلم الفلك والفيزياء (البصريات) والجيولوجيا ، وعلم النبات والطب الى غير ذلك . لقد اتخذ العلم لأول مرة صفة عالمية فى جامعات العصر الوسيط

الإسـلامية. فى ذلـك العصر كان الناس أكثر تأثرا بالروح الدينية مما هم عليه فى عصرنا . . ولكن ذلك لم يمنعهم من أن يكونوا فى آن واحد : مؤمنين علماء . كان العلم الأخ التوأم للدين ، لكم كان ينبغى على العلم ألا يكف عن أن يكون كذلك . . »

هو كذلك فى الإسلام الأخ التوأم للدين وما يظهر بين الحين والآخر من آراء عدائية للعلم فى المجتمع الإسلامى ، فلا تمثل هذه الظاهرة إلا رأى فئة قليلة جدا من المسلمـين، عجزت عن فهم روح الإسلام ، فلا تسعف أفرادَها قوة فكرهم فى فهم تعاليمه ، وعليه فهم لايمثلون إلا أنفسهم .

أما الاسلام فلازال يدعو الى العلم ويحث على تحصيله ، ويرفع من قدر العلماء ويحترم كل نتيجة علمية مؤسسة على القواعد السليمة للبحث العلمى .

الفصـــــــل الثامن
خلــق العالــــــم

دقة التعبير عن الحقائق الكونيـة :

نزل الـوحى على محمـد صلى الله عليه وسلم طالبـا منه : أن يبلغ الناس جميعا بهذه الـرسـالة السماوية ، وأن يوضح لهم : أن خطاب الله موجه إلى جميع البشر ، على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم ، وعلى تباين درجاتهم الثقافية والحضارية ، فرسالة الإسلام للناس جميعا فى كل العصور والأزمان ، وفى جميع مناطق الكرة الأرضية ، لافرق فيها بين من يسكن فى شمالها أو جنوبها ، أو يقطن فى شرقها أو غربهـا .

ومن المعـروف علميا أنه يكاد يكون من المستحيل أن يصاغ كلام تفهمه جميع الطبقات ، الثقافية فى المجتمع البشرى ، ويرضون عنه نفسيا ، لأن ما يستحسن لدى طبقة ، يكون أقرب إلى الهذيان منه إلى ما يرضى العقل ، ويمتع السمع لدى طبقـة أخرى . وما تميل إليه عقول شريحة اجتماعية وتستأنس به ، تعجز عقول شريحة أخرى عن فهم أسراره ، وإدراك معانيه . كذلك الحال بالقياس الزمنى ، فما يقـرر من النظريات فى عصر ، تثبت الأبحاث والتجارب خطأه فى العصور التـالية ، ومـا تؤكـده العقول والأبحاث فى زمن ، تنفيه عقول وتجارب الأجيال اللاحقة ، وتبين بما لايدع مجالا للشك خطأ من سبقوهم ، وضلالهم فيما اعتقدوا أنه هو الصحيح ، الذى لانقض له .

ولهـذا كان من المستحيل عقليا وعمليا أن يتحدث دين بالتفصيل عن خلق الكـون وظـواهره ، حديثا ، ترضى عنه كل الطبقات الثقافية ، وتثبت القرون التـالية أنـه الحق الـذى لا مراء فيه ، والحقيقة التى لايمكن أن تنقض ، مهما استحدث الإنسان من آلات ومجاهر ، تكشف له ما خفى من أسرار الطبيعة ، فقد أثبت العلم الحديث أن النصوص التى تحدثت عن خلق الكون فى الكتب المقدسة - التى سبقت الإسـلام - لم تكن دقيقـة ، بل إن بعضهـا أصبـح - بعد ظهور النظريات الحديثة عن خلق الكون - لغوا لا معنى له ، فمثلا تذكر التوراة بوضوح - ليس فيه إشارة ولا تورية لمعانى الكلمات -: أن الله أتم الخلق فى ستة أيام، ثم استراح فى اليوم السابع ، وذلك بالتجانس مع أيام الأسبوع . وهذا أمر واضح الخطأ ، ذلك أن كلمة « يوم » كما يفهم من التوراة ، تُعَرِّف المسافة الزمنية بين إشراقين متواليين للشمس ، أو غروبين متواليين ، وذلك بالنسبة لسكان الأرض . إن اليوم وقد تحدد بهذا المعنى يرتبط وظيفيا بدوران الأرض حول نفسها ، وواضح تماما أنه من المستحيل منطقيا أن يتحدث عن « الأيام » بهذا المعنى الذى تحدد ، على حين أن العملية المـركبة ، التى ستؤدى إلى ظهورها ، أى وجود الأرض ، ودورانها حول الشمس - لم تكن قد أنشئت بعد ، عند أولى مراحل الخلق ، وذلك بحسب رواية التوراة .

فكيف عالج الإسلام الوضع دون أن يقع فى الخطأ ؟

وكيف استطاع أن يخاطب الناس فى تلك العصور بحديث عن خلق الكون ، دون أن يصطدم بعجزهم عن فهم النظريات الكونية ، التى لم يكن لهم بها علم ، اللهم إلا شذرات قليلة ، انحـدرت إليهم من الكتب السـابقـة، التى كانت فى معظمها أساطير ، لاتعبر عن حقيقة الوجود تعبيرا صحيحا ؟

عبر القرآن الكريم عن خلق الكون بأسلوب تفهمه كل الطبقات الثقافية ، وترى فيه بغيتها ، واطمئنانها النفسى ، ومع ذلك لا يتصادم مفهومه مع ما تتوصل إليه أحدث الأبحاث والتجارب العلمية ، ذلك أنه ذكر أن الله خلق السموات

والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، وهو أمر يركن إليه من لا علم له بنظريات خلق الكون، لكنه أضاف إلى ذلك أن مفهوم «اليوم»، ليس هو ما تعارف الناس عليه من الفترة الزمنية ، التى تنحصر بين شروق الشمس وغروبها ـ أو على حد تفسير آخر، بين غروب الشمس وغروبها فى اليوم التالى ـ بل بَيَّنَ أن له معنى آخر، وهو الحقبة من الزمن التى يتجاوز طولها كل ما يمكن أن يخطر ببال إنسان ، ويتضح ذلك من قوله تعالى :

« **تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة** » [المعارج : ٤] .

ومن هنا فإن من ينظر فى آيات الخلق فى القرآن الكريم ، عليه أن يتذكر أن أيام خلق الكون ليست كالأيام عند الناس ، لأن المراد بها فى التعبير القرآنى المراحل ، فمعنى خلق الكون فى ستة أيام ، أنه خلقها فى ستة أحقاب ، وذلك ما أشار إليه العلم الحديث بمراحل الخلق . ولا شك أنه ـ أى العلم الحديث ـ لم يسمح للناس بتقرير أن عدد المراحل المختلفة للعمليات المعقدة ، التى أدت الى تشكيل العالم هو ستة مراحل ـ وربما يثبت ذلك مستقبلا ـ، ولكنه قد أثبت بشكل قاطع أنها فترات زمنية طويلة جدا ، تتضاءل إلى جانبها الأيام كما نفهمها ، وتصبح شيئا تافها . وقد أشار القرآن الكريم إلى أن اليوم المذكور فى مجال خلق الكون هو فترة زمنية طويلة ، عبر عنه تارة بخمسين ألف سنة ، كما ذكرنا ، وأخرى بألف سنة كما فى قوله تعالى :

« **إن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون** » [الحج : ٤٧] .

مما يدل على أن المقصود ليس ألف سنة ، أو خمسين ألف سنة ، وإنما بيان أنه فترة طويلة جدا ، لاتقاس باليوم العادى المعروف للناس بعد إتمام الخلق ، وهذا دليل مؤكد على أن المقصود به « مرحلة » ، أى أنه خلق الكون فى ستة مراحل .

فالتعبير عن أطوار الخلق بالأيام إعجاز نفسى ، له أهميته فى تحقيق الهداية التى أنزل من أجلها القرآن الكريم ، ألا وهو صلاحية التعبير لأن يفهمه جميع الناس ،

وفى كل العصور ، كل حسب معطياته الثقافية والحضارية ، فلا يكون عجز طبقة أو جيل منهم عن فهمه حاجزا فى طريق هداية الناس إلى اعتناق الإسلام ، ومع هذا يتضمن كل ما يتوصل إليه العلم من نتائج . ولا يقدر على هذا إلا خالق البشر ، فهو أعلم بما هو كائن ، وما سيكون .

سبحانك لاعلم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .

* * *

لم يعرف الانسان فى العصور القديمة عن الطبيعة إلا النزر القليل ، بل إن معلوماتـه ـ وبـالتالى معتقداته ـ عن الظواهر الطبيعية المحيطة به ، تبين مدى سطحية عقليتـه فى ضوء ما كشف عنه العلم الحديث ، وأحيانا تبدو نظرته إلى بعض هذه المظاهر ـ بالنسبة الى النظريات العلمية ، التى توصل إليها العلماء فى عصرنا الحالى ـ خيالا أسطوريا ، أقرب إلى السذاجة منه إلى النضج الفكرى ، وأكثر التصاقا بعالم اللا معقول منه بالإفصاح عن حقيقة كونية ، تقرب من الواقع أو تدانيه ، فقد كان الناس يرون أن الأمطار تنزل من السماء ، وأن الأرض مستوية كالفراش ، وأن السماء سقف الأرض ، وكانوا يرون أن النجوم مسامير لامعة من الفضة ، مركبة فى قبة السماء ، أو أنها قناديل معلقة فى الفضاء . . .

وكان أهل الهند الأقدمون يؤمنون بأن الأرض محمولة على أحد قرنى « البقرة الأم »، وهى حين تقـوم بنقـل الأرض من قرن إلى آخر يحدث الزلزال على البسيطة . وكان الناس يرون أن الأرض ساكنة بلا حراك ، وأن الشمس هى التى تسير . . . الخ .

كان الإنسـان مؤمنـا بهذه التصـورات وغـيرهـا مما يتعلق بالكون، إلى أن جاء « كوبـرنيك » (١٤٧٣/ ١٥٤٣ م)، فبرهن على أن الأرض تدور حول نفسهـا وحـول الشمس ، وتقـدمت الأبحاث الفلكية رويدا رويدا ، فزادت معلومات الإنسان عن كثير من مظاهر الكون حوله ، فكشف عن أسرار كثيرة ، أظهرت

خطأ كثير من معتقدات الإنسان فى الظواهر الطبيعية ، ووضحت أن كثيرا مما توصل إليه العلماء - فى القديم - فى عالم الكون ، واعتقدوه ، أصبح خطأ بينا لايشك فى ذلك أحد .

وهذا يدل بكل صراحة على أنه لاوجود لكلام إنسانى تدوم صحته كليا . . لأن الإنسان يتكلم عما هو معروف من المعتقدات والعلوم فى عصره ، ويسرد ما وجده فى زمنه شائعا بين الناس ، سواء وقع كلامه فى دائرة الشعور أو اللاشعور . ولذلك لانجد كتابا مضى عليه حين من الدهر، إلا وهو مملوء بالأغلاط والأخطاء من سائر نواحيه ، نظرا إلى الكشوف الحديثة فى كل الميادين .

بل إن من اشتهر فى التاريخ الفكرى بحصافة رأيه ، وسداد فكره ، ودقة ملاحظاته وقع فى أخطاء ، كان من الممكن ألا يقع فيها، لو بذل مجهوداً أكبر وأشمل فى هذا الميدان ، وأوضح مثل على ذلك، ما قاله أرسطو - وهو المعروف بدقة منطقه ، وسلامة استدلاله - مستدلا على أسبقية الرجل على المرأة : « إن فم المرأة يحوى أسنانا أقل عددا من أسنان الرجل » . فمن الواضح أن هذا الكلام لا علاقة له بعلم الأجسام ، بل هو يدل على أن صاحبه جاهل بهذا العلم ، فإن عدد الأسناء سواء لدى الرجل والمرأة .

لقد أصبح من المسلم به أن كلام السابقين لا يؤخذ على علاته ، بل لابد أن يقول العلم - بإمكاناته وآلاته الحديثة - رأيه فى كل الحقائق الكونية التى توارثناها عن الأجداد ، وخاصة بعدما أثبت العلماء عدم صحة معظم النظريات القديمة عن مظاهر الطبيعة المحيطة بنا ، لكن ما جاء فى القرآن الكريم يختلف تمام الاختلاف عن هذه الكلمة ، فهو حق وصادق الآن فى كل ما قاله ، كما كان فى القرون الغابرة ، لم يطرأ على ما قاله أى تغيير، رغم مضى قرون وعصور طويلة .
وهذا فى نفسه دليل على أن منبعه عقل جبار ، يحيط بالأزل وبالأبد علما ، وهو يعلم سائر الحقائق فى صورها النهائية والحقيقية ، ولا يخضع علمه ومعرفته لحواجز الزمان والمكان والأحوال ، ولو كان هذا الكلام صادرا عن بشر محدود النظر والعلم ،

لكان الزمان قد أبطله منذ عصور عديدة ، كما يحدث لكل كلام إنسانى فى مستقبله .

يركز القرآن الكريم على إصلاح العقل الإنسانى وتزكيته ، فهو هدفه الأول ؛ ويقتضى هذا أن يذكر الإنسان بالنعم التى أنعم الله بها عليه فى مجال الطبيعة ، الأمر الذى يجعل من المحتم أن يذكر جانبا من تركيب هذا الكون ، وهى من كبرى المشاكل التى واجهها القرآن الكريم عند نزوله ، إذ كان الأقدمون يعرفون عن تكوين الكون ومظاهر الطبيعة جزئيات قليلة ، وكانت معرفتهم هذه ناقصة جدا بالنسبة إلى المعرفة ، التى أتيحت للإنسان اليوم بفضل الاختراعات الحديثة ، فلو كشف القرآن عن حقيقتها فى ذلك الزمان بكلمات محددة ، لاختلف الناس فيما بينهم حول ما جاء فيه ، ولو جاراهم فيما يعتقدون ، لكان ذلك منافيا للواقع الذى كشفته العلوم الحديثة ، فكان من الاعجاز العلمى والبيانى أنه تغلب على هذه المشكلة ، باستعماله كلمات وتعبيرات لم تستوحشها أذواق الأقدمين ولا معارفهم ، وفى الوقت نفسه تتحمل معانيها ما كشفته اليوم ـ وتكشفه فى المستقبل ـ الأبحاث الكونية . .

كذلك كانت هناك ظواهر طبيعية معروفة لدى الأقدمين ، لكنهم لم يكشفوا عن قوانينها ، إلا بعد تقدم العلوم ، ومع عدم معرفتهم بهذه القوانين ، فقد أشار إليها القرآن الكريم بإشارات ، لاتحدث بلبلة فكرية بالنسبة للأقدمين ، وفى الوقت نفسه ، تضع معالم على طريق البحث العلمى ، لإرساء النظريات المتعلقة بهذه الظواهر ، فلو تصفحنا آيات القرآن الكريم المتعلقة بالكون ومظاهره ، لوجدنا فيها دليلا وشاهدا على هذا الاتجاه .

تقنين الظواهر المعروفة :

وبيان ذلك بالتفصيل أن معارف الإنسان الكونية تنقسم فى القديم إلى قسمين : قسم كان معروفا له ، ولكن لم يكشف قانونه ، والقسم الآخر لم يعرف عنه شيئا على الإطلاق . فمن القسم الأول : قانون ضبط الأشياء السائلة ، فقد

تحدث القرآن الكريم عن القانون الخاص بالماء فى سورتين : هما سورة الفرقان والرحمن ، فقال فى السورة الأولى :

« وهو الذى مرج البحرين هذا عذاب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا » [الفرقان : ٥٣] .

وقال فى الثانية :

« مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان » [الرحمن : ١٩ - ٢٠] .

فهذه الظاهرة الطبيعية التى تحدثت عنها السورتان كانت معروفة عند الإنسان منذ أقدم العصور ، وهى أنه إذا ما التقى تياران من الماء : أحدهما عذب والآخر ملح فى مجرى واحد ، فماء أحدهما لايدخل (أى لايذوب) فى الآخر، ويبدو هذا فى الأنهار القريبة من السواحل ، فماء البحر يدخل مجرى النهر عند حدوث « المد البحرى» ولكنهما لايختلطان، ويبقى الماء عذبا تحت الماء الأجاج. فهذه الظاهرة وإن كانت معروفة عند الإنسان القديم ، إلا أن قانونها لم يكتشف إلا منذ بضع عشرات من السنين ، وهو ما أطلقوا عليه «قانون المط السطحى»، وهو يفصل بين السائلين ، لأن « تجاذب » الجزئيات يختلف من سائل لآخر ، ولهذا يحتفظ كل سائل باستقلاله فى مجاله . وقد استفاد العلم الحديث كثيرا من هذا القانون الذى عبر عنه القرآن الكريم بقول الله سبحانه :

« بينهما برزخ لا يبغيان » .

وعليه فنستطيع أن نقول بدون تردد : إن المراد من «البرزخ »، إنما هو «المط أو التمدد السطحى » ، الذى يوجد فى الماءين ، والذى يفصل أحدهما عن الآخر .

كذلك جاء فى القرآن الكريم إشارات مماثلة إلى ظواهر كونية ، فمثلا يقول الله تعالى :

« الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها » [الرعد : ٢] .

فهذه الآية وإن كانت مطابقة لما يشاهده الناس من قيام هذه الكواكب المحيطة بهم من الشمس والقمر والنجوم فى الفضاء ، دون عُمُد ، إلا أنه أضاف إليها كلمـة «ترونها»، التى تحمل معنى أن هناك «أعمدة» ولكننا لانراها ، إذ لو أغفلت الآية كلمـة : « ترونها » المنفية ، لكـان ذلك متناقضا مع ما كشف عنه العلم الحديث ، من أن هناك عمدا غير مرئية ، تتمثل فى قانون « الجاذبية » ، وهى التى تساعد كل هذه الأجرام على البقاء فى أمكنتها المحددة .

إن تعبير القرآن الكريم على هذا النحو يعتبر معجزة ، لأنه أخبر الإنسان القديم بأن قدرة الله هى التى جعلت هذه الكواكب تقف فى الفضاء بدون عُمُد ، وذلك مطابق لما يشاهده الإنسان القديم ، ثم أضاف إليها معنى أنها قائمة بدون عمد مرئية ، لأنها هى الحقيقـة التى كشف عنها العلم الحديث . فلو تحدث القرآن عن الجـاذبية ، لثار جدل حول هذا المعنى ، لأن الإنسان القديم لم يكن فى وضع يمكنه من فهم هذه الظاهرة الكونية ، فصاغها على هذا النحو الذى فيه إعجاز واضـح ، إذ أنه بهذا الأسلوب لم يصطدم اصطداما مباشرا بما يعتقده الإنسان القديم ، ومع ذلك لم يكن متناقضا مع ما توصلت إليه الأبحاث العلمية الحديثة .

وجاء فى القرآن الكريم عن دوران الكواكب فى الفضاء قوله تعالى :

« والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون * »[يس : ٣٨ - ٤٠] .

لم يكن هذا التعبـير القـرآنى : « وكـل فى فلك يسبحـون » موضـع دهشـة القدماء ، لأنهم كانوا يشاهدون النجوم والكواكب تتحرك وتبتعد عن أمكنتها بعد وقت معـين ، لكن البحـوث العلمية قد خلعت على هذا التعبير ثوبا جديدا ، فليس هنـاك تعبـير أروع ولا أدق من « السباحة » لدوران الأجرام السماوية فى الفضاء البسيط اللطيف .

ويلاحظ هنا بوضوح : أن القرآن الكريم يذكر أمرا جوهريا ، ألا وهو وجود مدار لكل من الشمس والقمر ، كما يشير إلى تنقل هذين الجرمين فى الفضاء كل بحركة خاصة .

وبالإضافة إلى ذلك فهذه الفقرة : « وكل فى فلك يسبحون » ، تظهر أمرا آخر ، وهو الإشارة إلى تنقل الشمس على مدار ، دون تفصيل عن هذا المدار بالنسبة للأرض . فهذا المدار ظاهرى فقط بالنسبة للملاحظ ، وقد كان يعتقد فى عصر تنزيل القرآن ، أن الشمس تنتقل مع الأرض كنقطة ثابتة . كان ذلك هو نظام المركزية الأرضية ، السائد منذ بطليموس ، أى منذ القرن الثانى قبل الميلاد ، والذى ظل يحظى بالتأكيد حتى « كوبرنيك » فى القرن السادس عشر . هذا المفهوم - برغم التشيع له فى عصر محمد صلى الله عليه وسلم - لايظهر فى أى موضع من القرآن لا فى الآيات الكونية ، ولا فى مواضع أخرى .

فما عبرت عنه بحوث العلماء بكلمة « مدار » ، يقابلها فى نص القرآن الكريم كلمة « فلك » ، وهى كلمة عربية قديمة فسرها كثير من المفسرين بكلمة « كرة » ، أى ضمنوها المعنى الكروى ، وترجمها حميد الدين بكلمة « مدار » .

ولقد حيرت الكلمة قدامى مفسرى القرآن ، إذلم يكن بمقدورهم أن يتخيلوا الرحلة الدائرية للقمر والشمس فى الفضاء ، وعليه فقد تمثلوا عن مسيرة هذين الجرمين صورا مغلوطة تماما ، أو على درجات مختلفة من الصحة . ويذكر حمزة أبو بكر ، فى ترجمة القرآن ، المعانى التى ذهب إليها العلماء فى تفسير هذه الكلمة ، منها : « هو كهيئة حديد الرحى ، كرة سماوية ، مدار ، بروج ، جرى ، سرعة . . . الخ » ، ولكنه يضيف إليها ما قاله الطبرى - وهو من مفسرى القرن العاشر الميلادى : « ونسكت عما لا علم لنا فيه » .

ذلك يوضح لنا إلى أى حد كان الناس عاجزين عن تصور فكرة المدار الشمسى والمدار القمرى ، ويتضح من هذا أنه لو كانت كلمة « فلك » تعنى مفهوما سائدا فى عصر صدر الاسلام لما لقى تفسير هذه الآيات مثل هذه المصاعب .

وعليه فقد قدم القرآن الكريم فى ذلك العصر مفهوما جديدا ، لم يتضح إلا بعد قرون عديدة .

* * *

وتعاقُب الليل والنهار على الكائنات الحية تعاقبا رتيبا وبطيئا للعين المجردة، أَوْحَى إلى الانسان أن يتصور فى بادىء الأمر أن هذه الأرض لاتدور ، ثم لما أدرك دورانها، لم يتخيل أنها تدور بهذه السرعة المذهلة ، إذ أن سرعتها تبلغ ألف ميل فى الساعة ، حسب ما توصلت إلى مقياسه الآلات العلمية الحديثة . فلو حدد القرآن الكريم للإنسان فى العصور القديمة سرعة دوران الأرض بالكيلو مترات ، لاختلف الناس فى فهم هذه الصورة ، بل ربما انصرفوا عنه لعجزهم عن فهم ما يقول. ولو حدث ذلك لكان منافيا للهدف الرئيسى لنزول القرآن ، ألا وهو هداية العقل الإنسانى وتزكيتـــه .

ولهذا عبر القرآن الكريم عن دوران الأرض بهذه السرعة المذهلة تعبيرا لا يثير رد فعل مضاد لهدفه الرئيسى ، ومع ذلك يتضمن الإشارة إلى ما سيثبته العلم الحديث بعد ذلك ، من أن الأرض تسير بهذه السرعة العجيبة ، يقول الله تعالى :

« **يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا** » [الأعراف : ٥٤] .

فالمغشى يصح أن يكون الليل أو النهار ، لأن التعبير يحتملها ، وهذا من أدق التعبيرات التى أفصحت عن ظاهرة كونية ، لا يصل إليها فكر الإنسان العادى فى ذلك العصر ، وهى أنه بينما يغشى الليل النهار فى نقطة ما ، فإن النهار يغشى الليل فى نقطة أخرى فى نفس الوقت ، فكل من الليل والنهار يطلب الآخر طلبا حثيثا كى يغشاه ، ثم يكون ذلك على وجه التجدد المستمر .

فهـذه الآية تحوى إشـارة رائعة إلى دوران الأرض محوريا، وهو الدوران الذى يعتبر سبب مجىء الليل والنهـار طبقا لمعلوماتنا الحديثة ، ثم إن كلمة « حثيثا » تعنى الإسراع ، فهى تعبر عن السرعة الهائلة التى تحدث فى إزالة الليل النهار ، وإزالة

النهار الليل ، نتيجة لدوران الأرض بسرعة ألف ميل فى الساعة .

وقد أدلى رواد الفضاء بعد دورانهم حول الأرض : بأنهم شاهدوا « تعاقبا سريعا » بين الليل والنهار على سطح الكرة الأرضية . وهو ما تعبر عنه الآية بكلمة « حثيثا » .

جاء التعبير فى القرآن الكريم عن حركة الأرض بنوعيها ـ حول نفسها وحول الشمس ـ عن طريق الإشارة ، لا بأسلوب التصريح والبيان ، إذ لو صارح الناس بحركة الأرض وهم يحسبونها ساكنة لكذبوه ، وحيل بينهم وبين هدايته ، فكان من الحكمة البالغة ، والإعجاز البلاغى فى الأسلوب ، أن ينبه الناس فى كتاب الله إلى آيته ـ سبحانه ـ فى حركة الأرض حول محورها . وحركتها حول الشمس بمختلف الإشارات ، وإلى نتائج كل من الحركتين ، مَنًّا عليهم بها ، وحثًّا لهم على اكتناه أسبابها ، والبحث عما يوصلهم إلى إمكان تصورها ، فقد وصف الله سبحانه وتعالى الليل عند القسم به ، بالإدبار تارة فى قوله :

« **والليل إذا أدبر** » [المدثر : ٣٣] .

كما وصفه بالإقبال والإدبار كليهما فى قوله :

« **والليل إذا عسعس** » [التكوير : ١٧] .

لأن الفعل « عسعس » معناه أقبل ظلامه أو أدبر ، كذلك وصفه بالسرى فى قوله :

« **والليل إذا يسر** » . [الفجر : ٤] .

وكلها أوصاف تقتضى الحركة ، وهى كناية عجيبة ، عن حركة الأرض اليومية ، لاتفهم على حقيقتها إلا إذا تذكرنا أن الظلمة هى الأصل فى جو الأرض فى النصف غير المقابل ، (أى المدابر) للشمس ، وإلا إذا تصورنا الأرض تدور حول محورها دورة فى اليوم ، من المغرب إلى المشرق أمام الشمس ، ليتعاقب فيها الليل والنهار على كل مكان فى الأرض على جانبى خط الاستواء إلى قريب من القطبين .

ومن عجيب أمر القسم بالصبح وبالنهار فى القرآن الكريم ، أنهما لم يوصفا بإقبال ولا بإدبار ، لأن ذلك لو كان لما جاء بمعنى جديد ، إذ هو لازم حتما من إدبار الليل وإقباله ، ولكنهما وصفا بالوصف الخاص بهما الناشىء عن سلوك الضوء ، ضوء الشمس فى الغلاف الهوائى المحيط بالأرض ، وولوجه فيه تدريجيا عن طريق الانكسار فى طبقات الهواء العليا الأخف ، إلى طبقات الهواء السفلى الأكثف من الفجر إلى الإسفار ، ثم انتشاره بعد طلوع الشمس تدريجيا أيضا وبالانعكاس على الأخص بالانكسار أيضا ، حتى يعم النهار ، ولولا الغلاف الهوائى ما كان هناك فجر ، ولا صبح ، ولا إسفار فى أول النهار قبل طلوع الشمس ، ولا شفق فى آخر النهار بعد غروبها ، فليس شىء من ذلك بكائن على القمر مثلا ، بعد أن فقد هواءه ، لضعف جاذبيته الناشىء عن صغر كتلته مع سرعة حركة الجزئيات فى أى غاز .

ولهذا عبر الله سبحانه وتعالى بقوله :

« **والصبح إذا أسفر** » [المدثر : ٣٤] .

بعد القسم بالليل إذ أدبر ، وجاء القسم بالنهار إذا جلى الشمس فى قوله تعالى :

« **والنهار إذا جلاها** » [الشمس : ٣] .

وليس على القمر نهار كالذى نعرفه على الأرض تتجلى فيه الشمس ، فسماء القمر تظل مظلمة فى نهاره الطويل طول نصف شهر عندنا ، كما هو الحال فى نهارنا أيضا ، اذا علونا الغلاف الجوى بهوائه وسحبه ، كما استنتجه العلماء من أن الضوء لايرى بذاته ، ولكن بالانعكاس عن المرئيات ، وكما شاهده طيارو الفضاء ، حين دارت بهم مراكب الفضاء الصناعية حول الأرض أعلى من غلافها الجوى .

ومن عجب أن هذا الذى يستنتجه العلماء ، وشاهده طيارو الفضاء من ظلمة السماء قاطبة بالنهار إذا علونا الأرض وتجاوزنا غلافها الهوائى . هذه الحقيقة الذى

لم يكن ليصدق بها أحد من قبل ، قد دل عليها القرآن الكريم صراحة فى كلمتين هما : وأغطش ليلها . فى قوله تعالى :

« أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها * رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها * » [النازعات : ٢٧ - ٢٩]

فالضمير فى «ليلها» راجع إلى السماء، التى تتحدث الآيات عنها وحدها فالله سبحانه ينبئنا أنه أظلم ليل السماء لاليل الأرض .

فكل هذه الآيات تدل دلالة واضحة على أن القرآن الكريم ليس من عند محمد - لأنه إنسان عاش فى عصر لم يكن يعرف شيئا عن هذه الحقائق الكونية - وإنما هو من عند الله ، الذى يعلم سر الكون ، فصاغ الحديث عنه للناس بأسلوب معجز بليغ ، يتحاشى معارضة من نزل عليهم ، وفى الوقت نفسه يحمل فى طياته حقائق علمية لاتتصادم مع الاكتشافات العلمية الحديثة ، وذلك هو أعلى درجات الإعجاز العلمى والبيانى . .

الكشف عن الظواهر المجهولة :

هذا ما يتعلق بالقسم الأول من معارف الإنسان الكونية، وهو ما كان معروفا له ، ولكنه لم يكشف قانونه ، أما القسم الثانى الذى لم يعرف الإنسان عنه شيئا على الإطلاق ، فقد كشف القرآن الكريم فيه عن أسرار بالغة الأهمية ، ثبت صدقها بعد الدراسات الحديثة ، فقد طرح فكرة معينة محدودة المعالم حول بداية العالم ونهايته . ومن المعروف أن الإنسان القديم لم يتطرق إلى هذه الفكرة ، إذ لم يكن من الممكن أن يتصور أجزاءها .

يقول القرآن الكريم عن بداية الكون :

« أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما » [الأنبياء : ٣٠] .

أى أنهما كانتا متماسكتين متضامتين ، ففصلهما الله سبحانه وتعالى عن بعضهما .

لم تكن هذه الفكر معروفة عند الناس ، ولذلك فسرها ابن عباس بأن السماء كانت رتقا ، لا تمطر ، وكانت الأرض رتقا ، لاتنبت ، فلما خلق الله للأرض أهلا ، فتق هذه بالمطر ، وفتق هذه بالنبات ، فهذا التفسير وإن كان لا أساس له من الواقع ، إلا أنه وأمثاله أعطى للمسلمين فى صدر الاسلام نوعا من الرضا فى فهم الآية ، كما أنه أغلق باب المنازعات والمشاحنات التى قد تحدث عندما يستغلق على الناس فهم نص ما ، استغلاقا محكما ، فكان نوعا من التسكين ، إلى أن جاء العلم الحديث ، فبين ما ترمى إليه الآية ، اذ توصل العلماء خلال أبحاثهم ومشاهداتهم لمظاهر الكون إلى أن « المادة » كانت جامدة وساكنة فى أول الأمر ، وكانت فى صورة غاز ساخن كثيف متماسك . وقد حدث انفجار شديد فى هذه المادة قبل . . . , . . . , . . . , . . . , . . . , ٥ تريليون سنة على الأقل ، فبدأت المادة تتحدد وتتباعد أطرافها ، ونتيجة لهذا أصبح تحرك المادة أمرا حتميا ، لابد من استمراره طبقا لقوانين الطبيعة .

فالآية تشير إلى عملية الانفجار هذه ، لأن معنى « فتق » هو فعل القطع ، أو فك اللحام أو الفصل ، وهو الذى عبر عنه العلم الحديث بالانفجار ، ولا يكون هذا إلا « للمرتوق » أى الملحوم ، والمتصل بعضه ببعض على هيئة التماسك والتلاحم ، إذ أن فصله عن بعضه ، يحدث صوتا ، فكلما كان التماسك قويا كان الصوت أشد ،وهو ماعبر عنه بالانفجار ، فاذا وضعنا تفسيرا للآية على ضوء ما وصل إليه العلم ، فإنه لا يخرج عن قولنا « كانتا رتقا »،أى كانتا كتلة غازية متماسكة « ففتقناهما »،أى أحدثنا انفجارا شديدافى المادة ،فبدأت تتمدد وتتباعد أطرافها .

ويقول القرآن الكريم عن نهاية الكون :

« يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين » [الأنبياء : ١٠٤].

أى نعيده كتلة كما كان سابقا. ومن المعروف أن الأجسام والأجرام التى كُنَّا فى القديم نحسبها كاملة وسالمة ، بينت الأبحاث أن أكثرها يحتوى على فضاء خال ، وأن كل جسم مادى يدور حول نظام ـ مثل نظام الشمس، الذى تدور حوله نجوم وسيارات كثيرة ـ له فضاء خال . ومعنى ذلك أن كل شىء ـ حتى ولو بدا متماسكا ـ يحوى حيزا من الفضاء فى داخله ، ومثاله : أننا لو جردنا الفضاء أو المكان (Space) من الذرات المادية فى الجسم الإنسانى ، فلن نجد إلا كمية قليلة جدا من المادة ، تكاد تكون متناهية فى الوجود .

وهكـذا يرى علماء الطبيعة الفلكية أننا لو طوينا كل شىء فى الكون، بدون أن نترك للفضاء مكانا، فسيكون حجم الكون كله ثلاثين ضعفا من حجم الشمس : إذن ، فيمكن أن يقال : إن هذه الآية تدل على إمكانية انكماش مادة الكون مرة أخرى ، لتعود إلى حالتها التى كانت عليها قبل الانفجار والتمدد ، وهو ما تشير الأبحاث الكونية إلى توقع حدوثه فى المستقبل .

كذلك تحدث القرآن الكريم عن ظاهرة كونية أخرى ستظهر فى المستقبل ، ألا وهو انشقاق القمر وتناثره فى الفضاء فقال :

« **اقتربت الساعة وانشق القمر** » [القمر : ١] .

أى اقتربت الساعة وسينشق القمر عند اقترابها . وهذه إشارة إلى ما توصل إليه العلماء ، من أنه لابد فى المستقبل القريب ـ وطبقا لقانون دوران الأجرام السماوية ـ أن يقترب القمر من الأرض حتى ينشق من شدة الجاذبية ، وتتناثر أجزاؤه فى الفضاء . وسوف تحدث عملية انشقاق القمر هذه بناء على نفس القانون الذى يحكم المـد والجزر فى البحار ، فالقمر هو أقرب جيراننا فى الفضاء ولا يبعد عن الأرض غير ٢٤٠,٠٠٠ ميلا ، وهذا القرب يؤثر على البحار مرتين يوميا ، حيث ترتفع فيها أحيانا أمواج يبلغ طولها ستين مترا ، وأما تأثير هذه الجاذبية على سطح الأرض فيبلغ عدة بوصـات .

ويرى علماء الفلك أن الأرض مرت بأدوار أثناء عملية التكوين ، حتى وصلت

إلى بعدها الحالى عن القمر بناء على قانون الفلك ، وهذا القانون هو نفسه سوف يأتى بالقمر قريبا من الأرض مرة أخرى . ويرون أن من المتوقع حدوث هذا قبل بليون سنة ، وعندئذ سوف ينشق القمر وسوف يتناثر حول فضاء الأرض فى صورة حلقـــة .

أليست هذه النظرية من أعظم موافقات العلم لتلك النبوءة الواردة فى القرآن الكريم حول انشقاق القمر ، حين تقترب القيامة ؟

* * *

كذلـك أشــار القـرآن الكـريم إلى عدد من الـظواهر الكونية التى لم يعرف المعاصرون لنزول الوحى عنها شيئا ، وجاءت الأبحاث العلمية الحديثة مؤكدة صحة ما أخبر به الوحى عن هذه الظواهر ، فمثلا نجد القرآن الكريم يشير إلى أن هناك أكثر من عالم واحد فيقول :

« **الحمد لله رب العالمين** » [الفاتحة : ٢]

ويقـــول :

« **ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين** » [الأعراف : ٥٤] .

وقد تكررت كلمة « العالمين » فى القرآن الكريم أكثر من سبعين مرة ، فاذا كان مفهوم العالم لدى الإنسان العادى هو ما يحيط به من أرض وسماء ، فإن معنى ذلك أن هناك أكثر من مجموعة كونية ، أى عوالم متعددة ، وهو ما تقول به الاكتشافات الحديثة فى عالم الفضاء ، إذ يرى العلماء : أن هناك مجموعات عدة مثل مجموعتنا الشمسية .

ويؤكد القرآن الكريم تعدد المجموعات الكونية بقوله تعالى :

« **هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم** » [البقرة : ٢٩] .

ويقولـــه :

« ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين » [المؤمنون : ١٧] .

وقولـــــه :

« الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت » [الملك : ٣] .

وقولـــــه :

« تسبح له السموات السبع » [الإسراء : ٤٤] .

وقولـــــه :

« الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن » [الطلاق : ١٢] .

فقـد ذكـر السمـوات السبـع فى أكثـر من آية ، وليس المقصود العدد (٧) بالتحديد ، وإنما المراد بهذا العدد أنهن كثيرات ، لأن الرقم « ٧ » استخدم فى القرآن الكريم ٢٤ مرة ، وكان دلالته العدد الكثير غير المحدد ، وهذا الاستعمال معروف عند كثير من الشعوب ، فالرقم « ٧ » يبدو عند اليونان والرومان وكأن له نفس معنى التعدد غير المحدد .

وبـما أن الـرقم « ٧ » يشـير إلى تعدد غير محدد ، فيمكن استنتاج أن النص القرآنى يشير بوضوح إلى أنه لايوجد أرض واحدة فقط ، أرض البشر ، بل هناك فى الكون كواكب أخرى تشبه الأرض يقول تعالى :

« الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ، يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علما » [الطلاق : ١٢] .

كذلك ذكر القرآن الكريم أكثر من مرة أن الجبال أرسيت فى الأرض حفاظا على توازنها ، يقول تعالى :

« وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم » [النحل : ١٥] .

يقـــول :

« وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم » [الأنبياء : ٣١] .

فلم يكن الإنسان يدرك هذه الظاهرة ، وظل الغلم جاهلا بهذه الحقيقة طوال القرون الثلاثة عشر الماضية ، من يوم أن نزل القرآن حتى العصر الحديث ، حيث ظهرت لدارسى الجغرافيا الحديثة فعرفوها تحت اسم « قانون التوازن » ، ولا يزال العلم الحديث فى مراحله البدائية بالنسبة إلى أسرار هذا القانون يقول الاستاذ : « انجلن C.R. van Augeln » : من المفهوم الآن أن المادة الأقل وزنا ارتفعت على سطح الأرض ، على حين أصبحت أمكنة المادة الثقيلة خنادق هاوية ، وهى التى نراها الآن فى شكل البحار . وهكذا استطاع الارتفاع والانخفاض أن يحافظ على توازن الأرض .

وجاء فى « The World we live in N.Y. 1955 » أن : « من الظواهر المحيرة ، أن هذه الخنادق البحرية توجد قرب السواحل البرية ، بدل أن توجد فى أعالى البحار . ومن ذا يستطيع أن يعلم قدر ذلك الضغط الهائل ، الذى أحدث هذه المغارات السحيقة فى قاع البحار ، ولكن قرب هذه الوديان من الجزر والبراكين ، يدل أن هناك علاقة بين طول الجبال والخنادق البحرية . . . وهو أن الأرض يقوم توازنها على أساس الارتفاع والعمق فى أجزائها المختلفة » .

أليس هذا دليلا على صحة ما جاء فى القرآن الكريم من أن الله جعل الجبال رواسى لتحفظ توازن الأرض . . ؟

فمن عَلَّم محمدا هذه النظرية التى لم يعرفها أحد حتى العصر الحديث ؟ إنه الله الذى يعرف سر ما خلق ، هو الذى أخبره بها فى أسلوب موجز ، لايثير جدالا بين المعاصرين لنزول الوحى لجهلهم بها ، وفى الوقت نفسه يشير فى مضمونه إلى ظاهرة كونية . سيكشف العلم عنها، لتكون دليلا على أن القرآن الكريم هو وحى الله الذى أنزله على محمد ، فهو ليس من عند محمد ، لأنه لو كان من عنده ما استطاع أن يخبرنا عن هذه الظواهر الكونية التى لم تكن معروفة فى عصره .

ومما يزيدّ هذا المعنى تأكيدا : أن القرآن الكريم تحدث عن الجبال فى آية أخرى فقال :

« وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شىء » [النمل : ٨٦] .

فمن أعلم محمدا أن الجبال تســير ؟

فالــرائى يراهـا فيظنهـا جامـدة فى مكـانها لاتتحـرك، مع أنها تسـيرء بسرعـة كالسحـاب ، فإذا كان السحـاب يسير مسرعا محمولا على الرياح ، فإن الجبال محمولة أيضا،وليس لها حامل إلا الأرض ، فالأرض تدور حول نفسها حاملةالجبال. فالجبال تسير بسرعة محمولة على الأرض كالسحاب الذى يسير بسرعة محمولا على الرياح .

لم يعـرف محمد هذا من ثقافة عصره ، ولم يكن ليستطيع أن يدركه بنفسه ، ولكنه من الله الذى يعلم جميع أسرار الكون ، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . .

* * *

كذلك وصف القرآن الكريم الجبال بالرسو على الأرض ، كما ترسو السفينة على الماء ، فقال :

« والجبال أرساها » [النازعات : ٣٢] .

فإذا بحثنا عن السر فى هذا التعبير ، لاحظنا أن هناك : ثقل المرساة ، وثقل السفينة إلى أسفل ، يقابله : ثقل الجبال . وهناك رفع الماء السفينة إلى أعلى ، يقابله : ضغط حرارة جوف الأرض بغازاته وأبخرته على الجبال .

وفى هذا الصدد يقول العالم الجيولوجى « فيشر » : « إن البحث من ناحيته : الـرياضية والجيولـوجية ، يدل على أن تحت القشرة الأرضية طبقـة سائلة تحوى غازات مذابة ، وأن الجبال لها جذور غير منصهرة ذاهبة فى منصهر سائل ، مادته أثقل من مادتها . « وقد دل البحث على أن متوسط كثافة مادة الجبال هو ٢,٦ ، ومتوسط كثافة الأرض هو ٥,٥ جم / سم ٣ . فبطن الأرض السائل أكثر كثافة حتى من جبالها ، و هذه حقيقة علمية أخرى تقابل المعروف من أن متوسط كثافة

السفينـة ، أى وزنها مقسـومـا على حجمها ، هو أقل من كثافة ماء البحر أو النهر ، وإلاّ لما طفت عليه ، بل لغرقت فيه . فإلى هذا الحد من الدقة يتحقق الشبه بين إرساء الجبال فى أحد نوعيها الأساسية ، وبين إرساء السفينة ، وتبارك الله الذى أودع هذه الحقيقة عن الأرض وجبالها آية واحدة من كلمتين ، حيث قال :

« **والجبال أرساها** » .

فإذا تركنا عالم الكون الذى كشف الوحى عن بعض جوانب أسراره ، ويممنا وجهنا نحو عالم آخر ، لوجدنا نفس الظاهرة ، وهى كشف القرآن الكريم أسرارا لم تكن معـروفة للمعاصرين لنزول الوحى على محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد حرم القرآن بعض الأطعمة ، على الرغم من عدم معرفة ضررها فى العصر القديم ، فقال تعالى :

« **حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير** » . [المائدة : ٣]

لكن الأبحـاث العلمية فى العصر الحـديث ، بينت ما تحتوى عليه هذه الأنواع الثلاثة من مواد تضر بجسم الإنسان ، فالميتة : ما مات من الحيوان حتف أنفه من غير ذبح ، وكان تحريم أكلها لما فيها من المضرة ، ويكمن الضرر فى أن الدم يحتقن فيها ، فلا يخرج وهو ضار بالإنسان ، كما نص عليه فى النوع الثانى فى الآية بقـولـه : « والـدم » ، أى حرم عليكم الـدم المسفوح . وقد أثبتت التحليلات العلمية الحديثة : أن الدم يحتوى على كمية كبيرة من حمض البوليك « Uric Acid » وهو مادة سامة تضر بالصحة لو استعملت غذاء .

ومن أجل هذا أمر القرآن الكريم بأن يذبح الحيوان بطريقة معينة ، حتى يخرج الدم كله من جسمه ، ولا يكون ذلك إلا بقطع الوريد الرئيسى الذى يوجد فى العنق فقط . فلا يجوز قطع الأوردة الأخـرى ، حتى يمكن استمـرار علاقة المخ بالقلب إلى أن يموت الحيوان ، لكيلا يكون سبب الموت الصدمة العنيفة ، التى وجهت إلى أحد أعضاء الحيوان الرئيسية كالدماغ ، أو القلب أو الكبد .

والغرض من التنصيص ـ فى الإسلام ـ على هذه الطريقة فى الذبح ، هو الحيلولة دون تجميد الدماء فى العروق ، وسريانها فى الجسم ، لو مات الحيوان بصدمة عصبية ، لأن ذلك يؤدى إلى سريان « حمض البوليك » فى كل جزء من جسمه ، فإذا أكله الإنسان أصيب بالضرر ، ولهذا حرم أكل الميتة ، التى لاتذبح بهذه الطريقة ، كما حرم الدم المسفوح ، وقيد الإسلام بالمسفوح ، ليدل على أن الكبد والطحال ـ وتكوينهما : دم متجمد ـ حلال ، لأن علة التحريم ـ وهو « حامض البوليك » ـ ليس موجودا فيهما ، كذلك يحل أكل السمك الميت ـ أى الذى لم يذبح بالطريقة المنصوص عليها فى الإسلام فيما يتعلق بالحيوان ـ لأن العلة أيضا لا توجد فى هذا النوع ، وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك فيما روى عنه ، حيث يقول : « أحلت لنا ميتتان ودمان : السمك والجراد ، والكبد والطحال » .

أما النوع الثالث الذى حرمه القرآن الكريم : فهو لحم الخنزير ، حرمه يوم أن كان الإنسان لايعرف شيئا عن أسرار التحريم ، ولكن العلم أثبت اليوم أن لحم الخنزير يسبب أمراضا كثيرة ، لأنه يحتوى على أكبر كمية من « حمض البوليك » من بين سائر الحيوانات على ظهر الأرض ، فالحيوانات الأخرى تفرز هذه المادة بصفة مستمرة عن طريق البول ، فجسم الإنسان يفرز ٩٠٪ من هذه المادة بمساعدة الكليتين ، ولكن الخنزير لايتمكن من إخراج « حمض البوليك » إلا بنسبة اثنين فى المائة ، والكمية الباقية تصبح جزءا من لحمه ، ولذلك يشكو الخنزير من آلام المفاصل ، والذين يأكلون لحمه هم الآخرون يشكون من آلام المفاصل والروماتيزم وغير ذلك من الأمراض .

ولا يحتج على هذا بأن كثيرا ممن يأكلون لحم الخنزير لاتظهر عليهم هذه الأمراض ، فهذه الاحتجاج غير سليم ، لأن تأثير الغذاء ليس واحدا لدى كل إنسان يأكله ، والسبب فى ذلك أن الإنسان لايأكل شيئا بمفرده ، وإنما يتناوله مع مأكولات من أنواع عدة ، ويحدث بينها تفاعلات قد تحد من الضرر ، أو قد يكون

لجسم مناعة لاتوجد فى الآخر . فالمؤكد - الذى لا خلاف عليه - أن فى لحم الخنزير ضررا .

فمتى تظهر أعراض هذا الضرر على الجسم ، وعند مَنْ مِنَ الذين يتناولونه ؟

هذا شىء يختلف من إنسان لآخر . .

ولا يستطيع أحد أن ينكر ضرر هذا اللحم على الإنسان ، لأن الشعوب التى تبيح أكله ، تعرف تمام المعرفة : أن الأطباء كثيرا ما ينصحون مرضاهم بعدم أكل لحم الخنزير ، وما ذاك إلا لأن فيه ضررا لا يكون فى أنواع اللحوم الأخرى .

من أخبر محمدا بهذا السر ، وهو لم يكشف عنه إلا فى العصر الحديث ؟

إنه الله العلى القدير ، وهذا دليل قطعى على أن القرآن الكريم صادر عن عقل غير إنسانى ، وما زالت البحوث العلمية تؤكد ذلك كل يوم .

* * *

وبعد أن عرضنا لبعض ما أخبر الله به محمدا فى القرآن الكريم عن أسرار ما فى البنية الكونية ، التى لم تكن معروفه للمعاصرين لنزول الوحى ، مما يدل على أنه ليس من عقل إنسانى ، بل هو من الله ، عالم الغيب والشهادة ، يجدر بنا أن نذكر بعض الآيات التى وردت فى القرآن ، مشيرة إلى إمكانية غزو الإنسان للفضاء الخارجى ، يقول الله تعالى :

« يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان » [الرحمن : ٣٣] .

فالآية تشير إلى إمكانية البشر ذات يوم أن يحققوا ما نسميه فى عصرنا « غزو الفضاء » . وينبغى ألا نغفل أن الآية لا تشير إلى غزو الفضاء فقط ، بل تعبر عن إمكانية النفاذ عبر مناطق الأرض ، أى استكشاف الأعماق .

وجاء فى التعبير القرآنى ما يفيد - من الوجهة البلاغية - على أن هذا من الممكن وقوعه مستقبلا ، ذلك أن فى اللغة العربية ثلاثة حروف شرط هى : « إذا » ،

« ولـو » ، « إن » فـ « إذا » للتعبـير عن الاحتـمال المؤكد ، و « لو » للتعبير عن الامتنـاع ، و « إن » للتعبـير عن الفـرض الجائز . فكون القرآن يؤثر التعبير بـ « إن » ، التى تدل على الفـرض الجـائـز ، يشـير إلى أن غزو الإنسان الفضاء الخارجى مما يجوز وقوعه .

ويتضح ذلك من المقارنة بين هذه الآية ، وبين آيتين أخريين تتحدثان عن نفس الموضوع ، وهما قوله تعالى :

« ولـو فتحنـا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون » [الحجر : ١٤ - ١٥] .

فقـد صدرت الآيتان بحرف « لو » الذى هو للامتناع ، لأنهما تتحدثان عن فرض لن يتبعه أى إنجاز ، وما ذاك إلا لأنهما تتحدثان عن فرض صعود أهل مكة فى ذلك الزمن إلى السماء ، وذلك لن يشهده أهل مكة فى ذلك الزمن .

فهذا الاختلاف فى التعبير ، طبقا للتحقق وعدم التحقق لا يتأتى من إنسان أمى ، لم يعرف عن حقيقة الكون شيئا له قيمة فى عالم الأبحاث الفضائية ، ولم يكن لديه ما يمكنـه من الحكم بذاتـه على أن الانسان سوف يستطيع مستقبلا الصعود إلى الفضاء . وعليه فهو لم يخبر بشىء من عند نفسه ، وإنما هو مبلغ ما أوحى إليه من عند الله .

ونحب أن نختم حديثنـا عما فى القرآن الكريم من إشارات إلى أسرار كونية كشفها العلم - ومازال يكشف عنها - بعد أربعة عشر قرنا من نزوله بواقعة رواها العالم الهندى الدكتور عناية الله ، فهو يقول :

« كان ذلـك يوم أحد ، من أيام سنة ١٩٠٩ ، وكانت السماء تمطر بغزارة ، وخرجت من بيتى لقضاء حاجة ما ، فإذا بى أرى الفلكى المشهور « السيرجيمس جينز » - الأستاذ بجامعة كمبردج - ذاهبا إلى الكنيسة ، والانجيل والشمسية تحت إبطه ، فَدَنَوْتُ منه ، وسلمت عليه ، فلم يرد علىّ ، فسلمت عليه مرة أخرى

فســألنى : « ماذا تريد منى ؟ »، فقلت له : أمــرين ياسيدى : الأول هو : أن شمسيتـك تحت إبـطك رغم شدة المطر ، فابتسم «السير جيمس» وفتح شمسيته على الفور ، فقلت له : وأما الأمر الآخر، فهو : ما الذى يدفع رجلا ذائع الصيت فى العالم - مثلك - أن يتوجه إلى الكنيسة ؟ وأمام هذا السؤال توقف «السير جيمس» لحظة ، ثم قال : عليك اليوم أن تأخذ شاى المساء عندى . وعندما وصلت إلى داره فى المســاء ، خرجت « ليدى جيمس » فى تمام الســاعـة الرابعة بالضبط ، وأخـبرتنى أن السير جيمس ينتظرنى . وعندما دخلت عليه فى غرفته ، وجدت أمامه منضدة صغيرة موضوعة عليها أدوات الشاى ، وكان البروفيسور منهمكا . . فى أفكاره . وعندما شعر بوجودى ، سألنى : ماذا كان سؤالك ؟ ودون أن ينتظر ردى ، بدأ يلقى محاضرة عن تكوين الأجرام السماوية . ونظامها المدهش ، . . وأبعـادهـا وفـواصلهـا اللا متناهية ، وطرقها ، ومداراتها ، وجاذبيتها ، وطوفان أنـوارهـا المـذهلة ، حتى أننى شعرت بقلبى يهتز بهيبة الله وجلاله ، وأما « السير جيمس » فوجدت شعر رأسه قائما ، والدموع تنهمر من عينيه ، ويداه ترتعدان من خشية الله ، وتوقف فجأة ثم بدأ يقول : ياعناية الله . . عندما ألقى نظرة على روائع خلق الله ، يبدأ جسمى يرتعش من الجلال الإلٰهى .، وعندما أركع أمام الله وأقول له : إنك لعظيم ، أجد كل جزء من كيانى يؤيدنى فى هذا الدعاء ، وأشعر بسكـون وسعـادة عظيمين . وأحس بسعادة تفوق سعادة الآخرين الف مرة ، أفهمت ياعناية الله خان ، لماذا أذهب إلى الكنيسة ؟ .

ويضيف العلامة عناية الله قائلا :

لقد أحدثت هذه المحاضرة طوفانا فى عقلى ، وقلت له : ياسيدى لقد تأثرت جدا بالتفـاصيل العلمية التى رويتموها لى ، وتذكرت بهذه المناسبة آية من آى كتابى المقدس ، فلو سمحتم لى لقرأتها عليكم ، فهز رأسه قائلا : بكل سرور ، فقرأت عليه الآية التالية :

« ومن الجبـال جدد بيض وحمـر مختلف ألـوانها وغرابيب سود ، ومن الناس

والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك . إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

فصرخ « السـير جيمس » قائلا :

ماذا قلت ؟ إنما يخشى الله من عباده العلماء ؟! مدهش ! و غريب وعجيب جدا . .

إنه الأمر الذى كشفت عنه دراسة « ومشاهدة » استمرت خمسين سنة ، من أنبأ محمداً بـه ؟

هل هذه الآية موجودة فى القرآن حقيقة ؟ لو كان الأمر كذلك فاكتب شهادة منى أن القرآن كتاب موحى من عند الله .

ويستطرد « السير جيمس جينز » قائلا :

لقـد كان محمـد أميا ، ولا يمكنه أن يكشف عن هذا السر بنفسه ، ولكن « الله » هو الذى أخبره بهذا السر . . . مدهش . . وغريب ، وعجيب جـــدا . .

الفصـــــل التاسـع

خلـق الإنســـــان

خلـــــق آدم :

نزل القرآن الكريم فى عصر لم يكن الناس فيه يعرفون عن مبدأ خلق الإنسان شيئا ذابال ، فقد كانت معلوماتهم عن هذا الموضوع خليطا من معطيات الأديان السابقة ومن الأساطير الشعبية ، ولم تتعد وصفا لخلق الإنسان الأول « آدم » من التراب ، ثم تحويل أحد أضلاعه إلى امرأة له سماها : « حواء » .

فلو كان القرآن الكريم ظاهرة اجتماعية ، لا نعكس فيه ما يتناقله الناس فى المجتمع عن هذا الموضوع ، ولو كان ظهوره خاضعا لتطور الفكر البشرى، لصبت فيه روافد الثقافة الإنسانية التى ترعرعت فى المجتمعات السابقة عليه ، ولبنيت تصـوراتـه عن الخلق الأول على أنقـاض الأفكار التى تناقلها الناس عبر مسيرة المجتمعات البشرية ، فصار اعتماده فيما لايقع عليه الحس ، أو يخضع للتجربة المتاحة فى هذا العصر على ما تناقلته الأجيال قبله ، ولكنه جاء مخالفا لكل هذه المقاييس العادية ، ومناقضا لقانون الفكر الذى يؤكد : أن اللاحق لابد وأن يحوى فى طياته معالم وسمات السابق ، فلم يتحدث عن تراب جاف خلق منه آدم ، ولم يخبر بأن حواء خلقت من ضلعـه ، بل أخـبر عن الخلق الأول بأسلوب لايثـير التساؤلات التى قد لايفيد الخوض فى تفاصيلها شيئا ، وليس من الحكمة إخبار

الناس بكل دقائقها ، لأن وضعهم الفكرى لم يكن يمكنهم فى ذلك الوقت من استيعابها ، أو الاحاطه بها ، وفى الوقت نفسه جاءت صياغته لعملية خلق الإنسان الأول على نحو لا يمكن أن يقف حجر عثرة فى سبيل النتائج العلمية التى توصل إليها العلماء حديثا فى هذا المجال ، بل أعتقد أنه لن يكون عائقا لعملية المزيد من البحث العلمى عن أسرار خلق الإنسان وتطوره .

فماذا قال القرآن الكريم عن خلق الإنسان الأول ؟

تحدث الله فى القرآن الكريم عن هذا الموضوع فى آيات عديدة ، بأساليب مختلفة ، منها قوله تعالى :

« **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين** » [المؤمنون : ١٢] .

فهو ، وإن ذكر التراب فى آية أخرى ، إلا أن هذه الآية تشير إلى أن التراب لم يكن جافا ، لأن الجاف ليس مقرًّا لحياة ، ولا يخرج منه كائن حى ، فقد أثبتت التجارب أن الجفاف يقتل الكائنات الحية ، وصدق الله إذ يقول :

« **وجعلنا من الماء كل شىء حى** » [الأنبياء : ٣٠] .

لم يذكر أن الانسان خلق من تراب فقط ، بل من طين ـ وهو التراب الذى اختلط به الماء ـ وكان هذا سببا فى أن بعض المفسرين حاول أن يفسر هذه الآية على أنها إشارة الى ما توصل إليه العلم الحديث عن مبدأ خلق الكائنات الحية ، فقال فى تفسير قوله تعالى :

« **من سلالة من طين** » .

إن الانبثاق من الطين درجة درجة وخطوة خطوة ، من الأميبيا إلى الإسفنج ، إلى الحيوانات الرخوة ، إلى الحيوانات القشرية ، إلى الفقريات ، إلى الأسماك ، إلى الزواحف ، إلى الطيور ، إلى الثدييات ، إلى أعلى مرتبة الآدمية بفضل الله وهديه وإرشاده .

وعندما واجهه المفسرون التقليديون بأن هذا يطابق نظرية داروين التى

عارضها كثير من العلماء ، وأوردوا عددا من الأدلة على عدم صحتها ، أجابهم بأن رأيه يختلف عن داروين ، ذلك أن التطور عند داروين جاء نتيجة الحوافز الذاتية ، أما ما ارتضاه هو من تفسير لهذه الآية ، فهو أن التطور الذى ذهب إليه ، هو ما كان بهدى الله وإرشاده . ولكن العلماء رأوا ـ على الرغم من حجته ـ أن تفسيره لخلق آدم فى القرآن الكريم بهذه النظرية ـ ولو مع تعديلها بما ارتضاه هو ـ مجازفة خطيرة ، لأن هذه النظرية يعارضها كثير من الفلاسفة وعلماء الأجناس ، ويَسِمُونها بالفساد ، بل يقول بعضهم بجنون قائلها .

ومما لاشك فيه أن مثل هذا الرأى ـ وإن كان باطلا وفاسدا فى نظر جمهرة المفسرين ـ يشير إلى أن صياغة القرآن الكريم لمثل هذه القضايا ـ التى لم تتضح بعد بصورة مؤكدة ، ولم يكشف العلم عن حقائقها بعد بصورة قاطعة ـ تمثل جانبا من جوانب الإعجاز فيه ، لأن فى استطاعة كل المستويات الفكرية ، وكذلك كل إنسان على امتداد التاريخ الفكرى، أن يوجه النص طبقا لمعلوماته وثقافته فى هذا المجال ، بل ربما يتحمل النص ما سوف يتوصل إليه العلماء فى المستقبل ، ولا يدل هذا على نقص فيه ، بل على أن من صاغه يملك من القوة الفكرية مالا توجد عند أحد من المخلوقات البشرية ، ولا يتصف بهذه القوة إلا الله سبحانه وتعالى ، فهو القادر وحده على التعبير بأسلوب يصلح لكل زمان ومكان ، دون أن يعتريه خلل ، أو يتطرق إليه وهن ، وصدق الله إذ يقول :

« **قرآنا عربيا غير ذى عوج** » [الزمر : ٢٨] .

وغنى عن البيان أن كتابا هذا شأنه ، لاينبغى الشك فيه ، أو الارتياب فيما احتواه من معلومات ، يقول تعالى :

« **ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين** » [البقرة : ٢] .

خلق حواء :

شاع فى المجتمعات البشرية أن الله لما خلق آدم أبا البشر، أخذ ضلعا من

أضلاعه وسواه امرأة، وسماها « حواء » . وترتب على هذا الاعتقاد أن المرأة ظلت ينظر إليها فى المجتمعات الإنسانية - حتى اليوم - على أنها تابع للرجل ، بل على أنها أقل قدرا منه ، لأنها بعضه ، والبعض أقل فى القدر والقيمة من الكل، لأنه لايحمل جميع صفات الكل . ومن هنا فتكوينها لا يؤهلها لأن تتساوى بالرجل ، فمركزها فى الصف الثانى فى جميع مجالات الحياة .

فلو كان القرآن الكريم من تأليف البشر لذكر حكاية الضلع هذه ، ولبين أن المرأة خلقت من ضلع الرجل ، جريا وراء هذه المعطيات التاريخية التى تناقلتها المجتمعات الإنسانية ، لأن كل إنسان لايخرج عن دائرة التأثر ببيئته ، فلا يعقل على الإطلاق أن يخرج واحد من بنى آدم عن هذا القانون الطبيعى ، وخاصة فيما يتعلق بأحداث ما قبل التاريخ ، فكيف بالحدث الذى يتعلق بمبدأ من صنعوا التاريخ أنفسهم .

أهمل القرآن الكريم خبر الضلع ، وذكر شيئا آخر عن خلق حواء ، فقال :

« **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منها رجالا كثيرا ونساء** » [النساء : ١] .

وقال :

« **وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة** » [الأنعام : ٩٨] .

وقال :

« **هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها** » [الأعراف : ١٨٩] .

وقال :

« **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة** » [الروم : ٢١] .

فهم الناس أن المقصود من النفس الواحدة التى خلق منها زوجها، هو ما تناقلته الأجيال من أن حواء خلقت من ضلع آدم ، على الرغم من عدم وجود ذكر للضلع

فى القرآن الكريم على الاطلاق ، ففسروها طبقا لاعتقاد المجتمعات البشرية حول أحداث الخلق الأول للإنسان ، من أن الله أخذ ضلعا من آدم وسواه امرأة ، لكن ذهب بعض المفسرين فى العصر الحديث إلى أن المراد من قوله تعالى : « خلقكم من نفس واحدة » بيان أن خلق حواء كان من جنس المادة التى خلق منها آدم ، أى أن طبيعة تكوينها واحدة ، فهما متآلفان لما بينهما من توافق وانسجام ، إذ أن المادة تنجذب إلى ما هو من طبيعتها ، وما يحمل خصائصها .

ولكن لماذا لم يذكر القرآن الكريم حكاية الضلع جريا على ما اعتقده الناس فى هذا الحدث ؟

لو حدث هذا ، لكان دليلا قاطعا على أن القرآن الكريم ليس من عند الله ، بل من عند محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه فى هذه الحالة يكون قد ردد ما يشاع فى أوساط المجتمعات البشرية ، بصرف النظر عن صحته وعدم صحته ، لأن الاكتشافات الحديثة أثبتت خطأ هذا الزعم .

مادام القرآن الكريم من عند الله ، وهو يعلم حقيقة بدء الخلق ، فلماذا لم يبين خطأ الناس فيما يزعمونه ، ويرددونه من خلق حواء من ضلع آدم ، ويكون هذا البيان بأسلوب واضح لايحتمل التأويل ؟

لم يفعل هذا ، ليجنب محمدا صلى الله عليه وسلم الدخول فى مناقشات لافائدة من ورائها ، لأن هذا الموضوع لايتعلق به صحة عقيدة ، ولا يترتب عليه تقويم سلوك ، بل يتبع مجال الترف العلمى الذى قد يفيد صاحبه فى دائرة التكوين الثقافى ، ومع ذلك فإغفاله للضلع إشارة إلى عدم صحة هذه المعلومة التاريخية .

ولكن ، ألا يعد التعبير بالنفس الواحدة ، والتعبير بأنه « خلق منها زوجها » ، ايحاء بصحة خبر خلق حواء من ضلع آدم ؟

قد يكون ، ولم لا نفهمه على الطريقة الأخرى ، وهو أنه من التعبيرات التى تدل على إعجاز القرآن الكريم ، لأنه عبر عن هذا الحدث بأسلوب يظن من يعتقد

فى حكاية الضلع أنه يؤيده ، فلا يثير مشاكل جدلية لاتنفع قضية التوحيد فى شىء على الاطـلاق ، وفى الـوقت نفسـه يوحى بعـدم صحتها لمن يأتى من الأجيال الـلاحقـة ، حيث يكـون الاستعداد الذهنى والثقافى مؤهلا لطرح هذه القصة الخيالية جانبـا ، وتفسـير الآية بما يؤكد : أن آدم وحواء خلقا من مادة واحدة ، وبذلك لايصطدم مع نتائج البحوث العلمية الحديثة .

الخطيئـــــة الأولى :

ارتبطت قضية الخطيئة الأولى بأحداث خلق الإنسان الأول ارتباطا وثيقا ، فقد أفـادت الكتب المقدسة : أنها وقعت بعد إتمام عملية الخلق ، ولهذا وضعها الفكر الـدينى فى مرتبة تلى مرتبة الخلق مباشرة فى الزمن ، فاعتبرت وكأنها نتيجة تالية لعملية الخلق فى مسيرة التاريخ الإنســـانى .

وتصـورهـا المصـادر الـدينية : بأن الله حرم على آدم وزوجته الأكل من إحدى الأشجار فى الجنة ، فوقعت زوجته تحت تأثير الحية ،حين صورت لها بأن المنع من الأكل لم يكن بسبب أن الذى يأكل من هذه الشجرة سيموت ، بل لأن من يأكل منهـا تتفتح عينه ، ويكون عارفا للخير والشر ، والله لايريد لكما ـ هكذا قالت لها الحية ـ أن تعرفا الخير والشر ، وتمضى المصادر الدينية فى وصف الأحداث،فتقول : إن المرأة رأت ـ بعد ما سمعت ما قالته الحية ـ أن الشجرة جيدة للأكل ، وأنها بهجة للعيون ، وأن الشجرة شهية للنظر ، فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضا معها فأكل ، فانفتحت أعينهما ، وعلما أنهما عريانين ، وكان من قبل الأكل لا يعرفان ذلك .

ويلاحظ فى هذه القصة : أن المرأة هى التى وقعت فى حبائل الغواية ، فأكلت ثم حملت زوجها على الأكل أيضا ، حيث يقول النص : « وأعطت رجلها معها فأكل » وقد انعكس هذا التصور على علاقة المرأة بالرجل عبر التاريخ الإنسانى ، فكان ينظر إليها على أنها هى الجانب الضعيف ، وأنها مسكن الشيطان ، الذى

اتخذه لغواية الرجل وتضليله .

فلو كان القرآن الكريم من عند محمد صلى الله عليه وسلم، لنسج هذه القصة على غرار ما هو شائع عنها فى المجتمعات الإنسانية ، ولو كان القرآن الكريم من تأليف محمد صلى الله عليه وسلم، لحكم على المرأة بمثل ما حكمت عليها الأجيال الانسانية من لدن خلق آدم إلى عصره ، ولو كان منبع القرآن الكريم بشريا لما اختلف فى الحكم فى هذه القضية عما تناقلته الأجيال السابقة عليه ، لأن شواهد التاريخ ورواياته ـ وإن كان معظمها يخالف الحقيقة ـ لها تأثير كبير على من يتناول أى جانب من جوانب التاريخ الإنسانى بالبحث والدراسة والتدوين ، بل إن الباحث يكاد يكون أسير المعطيات التاريخية ، التى وصلت اليه عبر القنوات الثقافية ، التى تشكل الإنسان فكريا ، فتطبعه بطابعها ، وتلونه بلونها . ولا يستطيع أى باحث أن يخرج عن الإطار الذى تشكل فيه ثقافيا ، إلا فى حدود ضيقة ، وفى مسائل فرعية ، بعد أن يثبت له بالدليل القاطع ـ إن بالتجربة ، أو عن طريق الحفريات ـ عدم صحة ما سلمت بصحته الأجيال السابقة ، وهذا هو طريق التطور فى مجال المعطيات التاريخية .

لم يكن ما أخبر به القرآن الكريم عن أحداث الخطيئة الأولى خاضعا لهذا القانون ـ إذ لم يتأثر بما كان شائعا فى المجتمعات الإنسانية عن هذا الحدث ، ولم يكرر ما جاء فى المصادر الدينية المجهولة المصدر ، والمشكوك فى زمن تدوينها ، كذلك لم يكن لدى محمد صلى الله عليه وسلم نتائج تجريبية، أو شواهد من الحفريات، توضح له جوانب الخطأ فى هذه الروايات ، فهو أمى ، يعيش فى مجتمع انعدمت فيه الظواهر الثقافية ، التى تساعده فى هذا المجال ـ بل كان وحيا من الله الذى خلق الإنسان ، والذى اطلع على ما حدث من آدم وحواء بعد أن أسكنهما فى الجنة ، فجاء حديث القرآن الكريم عن الخطيئة الأولى مغايرا فى العناصر الرئيسية لما شاع بين الناس نقلا عن المصادر الدينية القديمة ، إذ لم يشر إلى أن المرأة هى التى وقعت أولا فى الخطيئة ، بل نسب وقوعها إليهما معا ، لاسابق

منهما ، ولا مسبوق ، حيث يقول :

« وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه » [البقرة : ٣٥ - ٤٦] .

فإسناد الذنب إليهما بصيغة المثنى ، يفيد عدم تحمل أى منهما وحده ذنب البدء فى الوقوع فى الخطيئة ، فهما متضامنان فى تحمل المسئولية .

بل إن القرآن الكريم نص فى موضع آخر على أن الشيطان وسوس لآدم فقط ، فيقول تعالى :

« فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى * فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى » [طه : ١٢٠ - ١٢١] .

ولاشك أن تبرئة القرآن الكريم المرأة على هذا النحو يرفع عنها لعنة لحقتها عبر القرون ، ويرفع عنها سبة الضعف المطلق ، والانهيار السريع أمام الغواية . ولا يخفى أثر هذا على وضعها فى المجتمع .

كان هذا قبـل أن تسمع المجتمعات شيئا عن تحرير المرأة ، وقبل أن يعرف الإنسان ما عرفه فى القرن العشرين من وصول المرأة إلى مراكز ، فى كثير من مجالات الحياة ، محاولـة بذلك محو ما ترسب فى ذهن المجتمعات من آثار الروايات الدينية ، التى انحدرت من عصور ما قبل ظهور الإسلام . وهذا فى حد ذاته دليل على أن القـرآن ليس من عند محمد ، بل هو وحى من الله الذى يعلم حقيقة ماخفى على الناس جميعا ، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .

النطفـــة والبويضة :

كثرت الأساطير حول عملية التناسل ، فروى الناس عنها كثيرا من الخرافات والتصورات التى أثبتت الأبحاث العلمية خطأها ، بل بعدها عن الصواب بعدا

شاسعا ، ذلك أن عملية التناسل من المسائل المعقدة ، التى يتطلب فهمها معرفة علم التشريح ، واكتشافات المجهر ، والإلمام بالعلوم الأساسية ، التى تبنى عليها علوم وظائف الأعضاء ، والأجنة ، والتوالد ، وغير ذلك من فروع العلم المختلفة ، التى توصل إلى معرفة عملية التناسل ، والإحاطة بتطوراتها المختلفة .

ولم يكن هذا متاحا للمعرفة فى العصور التى سبقت الإسلام ، بل إن مجتمع الجزيرة العربية ، الذى نشأ فيه محمد صلى الله عليه وسلم ، لم يكن لديه أدنى معرفة بهذا الجانب ، اللهم إلا ما يبدو واضحا لكل الناس ، من التقاء الذكر بالأنثى ، ذلك الالتقاء ، الذى ينتج عنه التوالد والتناسل ، أما كيفية حدوث ذلك داخل الرحم ، ابتداء من التقاء الحيوان المنوى بالبويضة ، والتفاعل الذى يعقب ذلك ، حتى يخرج بشرا سويا ، فلم يكن الناس فى الجزيرة العربية ، يعرفون عنه شيئا على الإطلاق .

نزل القرآن الكريم على محمد صلى الله عليه وسلم - وهو الذى لم يعرف شيئا عن التناسل أكثر مما يعرفه بنو عصره - بوصف مراحل التناسل وصفا دقيقا ومحددا ، دون أن يكون فى طيات هذا الوصف أدنى خطأ ، وجاء تعبيره عنها بعبارات بسيطة ، يسهل على الإنسان فهمها وإدراك ما تحمل من معان ، وفى الوقت نفسه تطابق ما كشفت عنه الأبحاث الحديثة بآلاتها ومجاهرها الالكترونية ، ولكى نقف على دقة الوصف القرآنى الذى نزل على محمد صلى الله عليه وسلم قبل أربعة عشر قرنا ، ينبغى أن نلخص ما توصل إليه العلم الحديث فى مجال الكشف عن أسرار عملية التناسل ، ثم نستعرض بعد ذلك ما قاله القرآن الكريم للناس الذين كانوا يجهلون هذه المعلومات فى عصره ، وفى القرون التالية له .

يحدث التناسل البشرى بواسطة سلسلة من عمليات مشتركة بين كل الثدييات ، وبداية هذه السلسلة الإخصاب فى البوق لبويضة انفصلت عن المبيض فى منتصف الدورة الحيضية . والعامل المخصب هو منى الذكر ، أو بالتحديد

الحيوان المنوى ، فخلية منتجة واحدة منه تكفى للإخصاب : إذن ، فلكى يتم الإخصاب يكفى له كمية ضئيلة جدا من هذا السائل المنوى ، الذى يحتوى على حيوانات منوية بعدد ضخم (لعملية قذف واحدة عشرات من ملايين الحيوانات المنوية) . وينتج السائل المنوى بواسطة الخصيتين، ويخزن مؤقتا فى جهاز للتخزين ، وفى القنوات التى تؤدى فى النهاية إلى المسالك البولية .

وتوجد غدد ملحقة متفرقة على طول هذه المسالك، تضيف إلى السائل نفسه إفرازا إضافيا ، لكنه لا يحتوى على عناصر مخصبة .

وفى نقطة معينه من جهاز الأنثى التناسلى، تعشش البويضة المْخصَّبة ، فهى تهبط عبر بوقٍ من البوقَينْ إلى الرحم، وتعشش بالرحم نفسه ، حيث ما تلبث أن تعلق به حرفيا وتدخل فى سمكه ، ثم فى عضلته بعد تشكيل المشيمة وبالاستعانة بها . واذا تم على سبيل المثال تثبيت البويضة المُخَصَّبة فى البوق، بدلا من الرحم، فان الحمل سينقطع ، ويبدو الجنين عندما يمكن رؤيته بالعين المجردة ، على شكل كتلة لحمية صغيرة ، لايمكن فى البداية أن تميز فيها مظهر الكائن الإنسانى ، ويتم فى هذه الكتلة تدريجيا وعبر مراحل متوالية معروفة اليوم جيدا ، ما سيكون بعد هذا الهيكل العظمى ، تحيط به العضلات ، والجهاز العصبى ، والجهاز الدموى ، والأحشاء وغير ذلك .

ويلاحظ فى وصف العلماء لهذه العملية أربعة أشاء هامة ، هى :

- الإخصاب بواسطة كمية ضئيلة جدا من سائل ، هو منى الذكر .
- وطبيعة السائل الذى يحمل خاصية الإخصاب .
- وعملية البويضة بعد الإخصاب .
- وتطور الجنين الذى عبر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى :

« **وقد خلقكم أطوارا** » [نوح : ١٤] .

فماذا قال القرآن الكريم عن مراحل هذه العملية ؟

ذكر القرآن الكريم المرحلة الأولى من عملية التناسل ، وهى السائل المنوى ، فى اثنى عشر موضعا ، منها قوله تعالى :

« **خلق الإنسان من نطفة . . .** » [النحل : ٤٠] .

وقـــوله :

« **إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه** » [الإنسان : ٢] .

فالنطفة هى القليل من الماء، يبقى فى دلو، أو قربة بعد تفريغهما ، فهى تؤدى معنى كمية ضئيلة جدا من سائـل ، فالآيات التى جاءت فيها كلمة (نطفة) كبداية للتناسل البشرى ، تشير إلى أنه يكفى لعملية الإخصاب كمية ضئيلة جدا من السائل المنوى ، وهذا هو ما أكدته الأبحاث العلمية فى مجال الإخصـاب .

فكيف حصل محمد صلى الله عليه وسلم على هذه المعلومة فى عصر جهل الناس فيه هذه الأشياء ؟

إن من أخبره بها هو الله ، خالق كل شىء ، فهو يعلم دقائق عملية الخلق ، لأنه هو الذى يصنعها ، يقول تعالى :

« **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** » [الملك : ١٤] .

طبيعة السائل المنـوى :

كلما فكر المرء فيما أخبر به القرآن الكريم محمدا صلى الله عليه وسلم عن عملية التناسل ، ازداد يقينا بأنه وحى الله ، لأن هذه الأخبار وصفت دقائق لا ترى فى هذه العملية ، فلم يعلمها الإنسان قبل اكتشاف العلم الحديث لها بمجاهره ، ومناظره ، وآلاته الدقيقة المعقدة . أضف إلى ذلك طريقة صياغتها لأناس جهلوا كل شىء عما يدور فى داخل رحم المرأة ، فقد عبر عنها القرآن الكريم بأسلوب يتنـاسب مع كل المستـويات البشرية ، ويلائم كل المستويات الثقافية ، وذلك إعجاز ما بعده إعجاز ، ذلك أن المفكرين طبقات ، وكل طبقة تستطيع صياغة أفكارها بأسلوب يتناسب مع شريحة معينة من البشر .

فمنهم من علا بأسلوبه ، فلا يفهمه ويقف على دقائقه ، ويلم بتفصيلاته إلا من كان على مستوى عال من الثقافة والفكر ، فلا يفهمه من لم ينل حظا كبيرا من الثقافة .

ومنهم من هو سهل الأسلوب ، بسيط الأفكار ، فيفهمه عامة المثقفين ، لكن الخاصة منهم لا ترى فيه ما يشبع نهمهم الفكرى ، أو يمدهم بما يشعرون أنهم فى حاجة اليه ، أو يشعرهم - عند القراءة - بلذة الاطلاع والاستمتاع بسمو الفكرة التى عبر عنها الأسلوب ، ولا يوجد مفكر جمع بين الأسلوبين ، أى لايوجد كاتب وجدت كل الطبقات الثقافية ما تحتاج إليه ، وما تفضله فيما يكتبه ، فهو إما سهل مبسط للعامة ، وإما متين رصين للخاصة .

كذلك لم - ولن - يوجد كاتب، يلقى ما يكتبه قبولا فى جميع العصور والقرون ، فكل مؤلف يعبر عن عصره ، وكل كاتب يسطر ما كان مستقرا فى مجتمعه ، وإن حدث أن فاق أحدهم عصره ، فإنه لا يتعدى قرنا أو اثنين ، أما أن يكون ما يكتبه مناسبا لكل العصور على امتداد عشرات القرون ، ولا يصطدم مع نتائج البحوث العلمية ، رغم تقدمها الهائل فى جميع المجالات ، فذلك محال على أى إنسان . فإذا وجدنا ذلك فى القرآن الكريم ، فإنما يدل ذلك دلالة لا مجال للشك فيها على أنه ليس من صنع بشر ، وإنما هو من الله سبحانه وتعالى .

تحدث القرآن الكريم عن طبيعة السائل الذى يخلق منه الإنسان حديثا معجزا ، إذ فهمه الإنسان فى عصر صدر الإسلام فهما يتناسب مع المعطيات الثقافية التى كانت لديه ، فلم يثر حوله مناقشات لافائدة من ورائها ، ولم يتصادم مع الواقع فى بعض جوانبه . كذلك جاء وصف هذا السائل فى القرآن الكريم والتعريف به معبرا عما توصل اليه العلم الحديث فى الكشف عن كنه هذا السائل وطبيعته .

فماذا كان وصف القرآن الكريم لهذا السائل ؟

سلام

يقول الله تعالى :

« **إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه** » [الإنسان : ٢] .

فوصف السائل بكلمة (أمشاج)، وهى تعنى فى اللغة العربية : « الأخلاط » ، ولهذا فسرها العلماء فى صدر الإسلام بأن المراد منها : اختلاط ماء الرجل بماء المرأة ، كما فسرها بعضهم بأنها أخلاط الكَيْموسَات الأربع ، وهى : المرار الأحمر ، والمرار الأسود، والدم ، والمنى . وقال ابن السكيت : الأمشاج : الأخلاط ، ويقصد بها النطفة لأنها ممتزجه من أنواع ، ولذلك يولد الإنسان ذا طبائع مختلفة .

فاذا استعرضنا ما توصلت إليه الأبحاث العلمية ، نجد أنها توصلت إلى أن السائل المنوى يتشكل من إفرازات مختلفة ، تأتى من الغدد الآتية :

X

(أ) الخصيتان ، إذ يحتوى إفراز الغدة التناسلية للذكر على الحيوانات المنوية ، وهى خلايا مستطيلة مزودة بهدب طويل وتسبح فى سائل مَصْلِىّ .

(ب) الحويصلات المنوية : تخزن هذه الأعضاء الحيوانات المنوية ، وتقع على مقربة من البروستاتا ، وتفرز إفرازا خاصا ، لكنه لايحتوى على عناصر مخصبة .

(جـ) البروستاتا وتفرز سائلا يعطى السائل المنوى قوامه الغليظ ورائحته الخاصة .

(د) الغدد الملحقة بالمسالك البولية : وهى الغدد المعروفة باسم كوبر (Cooper) أو ميرى (Mery) وتفرز سائلا جاريا، وغدد ليترى (Littre) ، وتفرز المخاط . هذه هى أصول المخاليط التى عبر عنها القرآن الكريم بقوله : « أمشاج » ، وهى معبرة تمام التعبير عن الأخلاط التى يتكون منها السائل المخصب .

فهل كانت هذه المعلومات متاحة لأى انسان فى القرن السادس الميلادى ؟ بل ، هل عرفها الإنسان فى القرون التالية له ؟

لا ، فلم يكتشفها العلماء إلا بعد عصر النهضة .

وهل يستطيع أحد أن يصيغها هذه الصياغة التى تمكن كل جيل من أن يفهمها ، طبقا لمعلوماته الثقافية ، دون أن يكون فى ذلك خطأ بَيِّن ؟

فالقدماء قالوا : إنه اختلاط ماء الرجل والمرأة ، وهو صحيح من جانب ، والعلم بيَّن المنى خليط من عدة إفرازات ، وهو مطابق أيضا لمعنى كلمة : « أمشاج » ، ولهذا فسر علماء المسلمين فى القرن العشرين هذه الكلمة بأنها تفيد : أن منى الرجل يحتوى على عناصر شتى .

وعليه فإخبار القرآن الكريم عن هذا الجانب من عملية التناسل دليل واضح على أنه من عند الله الذى يعلم ما فى الأرحام ، لأنه هو خالقها فهو أعلم بها ، سبحانك ربى إنك أنت علام الغيوب .

العلقـــــة :

تحدث القرآن الكريم عن جانب ثالث من جوانب عملية التناسل الإنسانى ، فقال :

« **فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ، ثم من علقة** » [الحج : ٥] .

وقــــال :

« **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة** . . . » [المؤمنون : ١٢ - ١٤] .

فيلاحظ أنه أطلق على هذه المرحلة كلمة : « علقة » ، وكررها فى آيات القرآن الكريم خمس مرات ، مرتين فى الآيتين السابقتين ، وثلاث مرات فى الآيات : رقم ٦٧ فى سورة غافر ، وهى قوله تعالى :

« **هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم يخرجكم طفلا** » .

ورقم ٣٨ فى سورة القيامة ، وهى قوله تعالى :

« ثم كان علقة فخلق فسوى »

كما ذكرت بصيغة الجمع فى سورة سميت بهذا الاسم ، وهى سورة العلق ، ونص ما جاء فى هذه السورة قوله تعالى :

« خلق الإنسان من علق » [العلق : ٢] .

ولما كانت العرب قد استعملت كلمة « العلق » ، للدلالة على النشوب فى الشىء فيقال : علق الصيد فى حبالته ، أى نشب ، فقد دلت الكلمة فى الآيات القرآنية على مرحلة، يتعلق فيها مافى منى الرجل بشىء تعلق المتشبث به . وقد فسرت الأبحاث العلمية هذا المعنى حين أثبتت أن البويضة ، تنزل إلى الرحم بعد أن تخصب ، فتعشش فى جداره ، ويتحقق استقرارها بالرحم بواسطة امتدادات حقيقية ، فيكون تعلقها به، كما لو كانت بذورا تضرب فى الأرض ، فهى تنشب فى جدار الرحم ، لتنهل منه ما يلزم لنمو الجنين ، ولم يعرف هذا إلا فى العصور الحديثة .

فلو سئل إنسان فى القرن السادس الميلادى - وفى الجزيرة العربية بالذات حيث كان المجتمع بدويا ، لا يعرف سوى القتال بين القبائل ، والشعر الذى تدور أبياته حول المظاهر البدوية : من طعن وقتال ، وبخل وعطاء ، وسماحة وكرم وغيرها- عما يعرفه عن سير العملية التناسلية داخل رحم المرأة ، لكان جوابه منحصرا فيما يراه ويشاهده، عندما تلفظ المرأة جنينها قبل أن يكتمل . والدليل على ذلك ما ورد فى تفسير القرآن الكريم بيانا لكلمة « العلق »، فقد ذهب المفسرون إلى أن النطفة تمكث فى رحم المرأة أربعين يوما ، ثم يضاف إليها ما يجتمع عليها ، ثم تنقلب علقة حمراء بإذن الله ، فكانت العلقة - فى نظرهم - عبارة عن جلطة دم ، وهذا أمر غير صحيح ، لأن الإنسان لا يمر بمرحلة جلطة الدم .

وقع المفسرون فى هذا الخطأ، على الرغم من أنهم نشأوا فى عصر متقدم نسبيا فى مجال العلوم والثقافة - وهو القرن التاسع الميلادى - عن العصر الذى نزل فيه القرآن

الكريم ، وتربوا فى مجتمع كانت له صلة قوية بالمنابع الثقافية فى العالم ، فقد كان الإنتاج العلمى للشرق والغرب بين يدى العلماء ـ ومنهم المفسرون ـ والمفكرين ، بما فيه البحوث الطبية .

وهذا يجعل الباحث يقف متعجبا أمام ما أخبر به القرآن الكريم محمدا صلى الله عليه وسلم عن هذه المرحلة التى لم يتوصل إليها إنسان ذلك العصر ، ولم يعرف عنها إلا ما يشاهده من خروج الجنين من بطن أمه غير مكتمل فى حالة السقط الذى ينزل ميتا ، ويتساءل عن كيفية معرفة محمد بهذا العمل الذى لم يطلع عليه أحد ، ولم يكشف الإنسان سره إلا بعد اكتشاف الآلات التى مكنته من رؤية ما يدور فى هذا الجوف المظلم .

كيف عرف محمد صلى الله عليه وسلم تعلق البويضة بالرحم وتشبثها بجداره ؟

وكيف استطاع التعبير عنها بكلمة « العلقة » التى يطابق معناها مع ما توصل إليه العلم الحديث ، وما كشفت الأبحاث عنه من هيئة تعلق البويضة بجدار الرحم ؟

إن إمكاناته الثقافية ، ومعطيات عصره، لايمكن أن يمداه بهذه المعلومات ، لهذا فلا تفسر هذه الظاهرة إلا على أنها وحى الله ، فهو الذى يعلم ما فى الأرحام ، وهو قادر على صياغة ما يريد إخبارنا به بأسلوب لايثير شكوكا عند محدودى الثقافة ، وفى الوقت نفسه لايتصادم مع نتائج البحوث العلمية ، واكتشافات التقدم الحضارى . فالقرآن الكريم نزل من عند الله الذى يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام ، وما تزداد وكل شىء عنده بمقدار . وما محمد إلا رسول ، بلغ الناس بما أوحى إليه من ربه ، فيقول تعالى :

« **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك** » [المائدة : ٦٧] .

فالإخبار عن هذه المرحلة بكلمة « علقه »، كان تبليغ وحى الله للناس ، وهم بعد ذلك مكلفون بالاعتقاد بأنه حق ، والأيام بأبحاثها واكتشافاتها أكدت ـ وما زالت تؤكد كل يوم ـ أنه حق ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لأنه

من العليم الحكيم سبحانه وتعالى .

تطـــــور الجنين :

سيطرت الخرافات فى العصور القديمة على فكر الإنسان فيما يتعلق بتطور الجنين فى بطن أمه ، ولا غرابة فى هذا ، فكل ما كان بعيدا عن متناول العين انطلق الخيال فى تصوره إلى أقصى الآفاق ، ونسج الفكر حوله خيوطا وهمية ، لا يستطيع أى إنسان ، مهما أوتى من حصافة فى الفكر ، ورجاحة فى العقل أن يتخلص منها ، لأن قدرة الإنسان ـ حتى ولو فاق قومه فكريا ، ورجح عقله عن بقية بنى عصره ـ لا تمكنه من التخلص كلية من المعطيات الفكرية التى ضربت بجذورها فى أعماق التاريخ ، وحاصرت الأجيال اللاحقة ، فلا يستطيع المرء منها فكاكا ، ولا يقدر أحد على تجاوزها ، إلا فى حدود ضيقه جدا ـ فى حالة ما إذا أوتى بصرا فى الفكر وبصيرة فى القلب ـ لا يُلتفَت إليها إلا بعد أن يرحل عن الحياة بزمن طويل .

فلو حدث أن استطاع أحد أن يأتى بمعلومات، لاتمت إلى هذه الأساطير بصلة ، بأن لا تكون نابعة منها ، ولا مرتكزة عليها فى أى جانب من جوانب القضية ، التى تتعلق بها هذه المعلومات ، بل قد تكون ناقضة لما فى الأساطير من خيالات لا أساس لها من الصحة ، ومن أفكار ليس بينها وبين الواقع أية صلة ، فلا بد أن يكون له مصدر آخر خارج عن نطاق البشر ، استقى منه هذه المعلومات ، مصدر له القدرة على استكشاف مالا يستطيع الإنسان رؤيته ، وعنده العلم بكل ما يدور فى هذا المجال الذى حجب عن الإنسان فى ذلك العصر .

وهذا هو ما نراه فى حديث القرآن الكريم عن تطور الجنين فى الرحم ؛ إذ كانت الخرافات والأفكار النظرية التى لا تتمتع بأى أساس ، هى قاعدة مختلف التصورات عن هذا التطور ، وظل هذا الاتجاه سائدا على امتداد التاريخ القديم، حتى القرن السابع عشر الميلادى، حين دخل علم الأجنة مرحلة حاسمة بدعوى

هارفى (Harvey) : بأن كل شىء حى يأتى أولاً من البـويضـة ، وأن الجنين يتخلق تدريجيا جزءا بعد جزء . ولم يصل هارفى إلى هذا إلا بعد أن مهد العلم له طريقا طويلا ، وأمـده بالمجهر الذى ساعده على اكتشاف هذه الحقيقة ، لكن الاعجاز فى حديث القرآن الكريم : هو أنه كشف عن هذه التطورات قبل أحد عشر قرنا من وصـول العلم إلى أول طريق الكشف عن عملية تطور الجنـين فى رحم أمـه ، فوصفها بأوصاف لا يستطيع العلم الحديث أن ينقدها ، فهو يقول : إن الجنين - بعد مرحلة التشبث التى تناولناها فيما سبق - يمر بمرحلة المضغة (أى اللحم الممضوغ) ، ثم يظهر بعد ذلك النسيج العظمى الذى يُغلَّف باللحم ، ويعنى به : اللحم النَّضِرْ،يقول الله تعالى :

« ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما » [المؤمنون : ١٤] .

فالتعبير بالمضغة هو إشارة إلى ما يشبه اللحم الممضوغ ، أى أن الجنين فى هذه المرحلة يكون كتلة شبيهة باللحم الممضوغ ، وهو يختلف عن اللحم النضر ، إذ أن الجنين فى مرحلته الأولى يكون كتلة صغيرة ، تبدو فعلا للعين المجردة كلحم ممضـوغ ، ثم يتطور الهيكل العظمى فى هذه الكتلة ، وبعد أن تشكل العظام تتغطى بالعضلات،وعلى العضلات يتكون ما يمكن أن يسمى لحمـا .

والمعروف أن بعض الأجزاء فى أثناء تطور الجنين تبدو غير متناسبة مع ما سيكون عليه الفرد فى المستقبل ، على حين تظل أجزاء أخرى متناسبة ، وذلك هو ما أشار اليه القرآن الكريم فى قوله تعالى :

« ثم من مضغة مخلقه وغير مخلقة » [الحج : ٥] .

فقـدَ قال العلماء فى تفسيرها : مستبينة الخلق ، مصورة ، وغير مصورة . وقال ابن زيد : المخلَّقة : التى خلق الله فيها الرأس واليدين والرجلين. وغير مخلقة. التى لم يخلق فيها شىء ، هذا فهم يتناسب مع معطيات العصر الثقافية ، لكن حين

أثبتت الأبحاث أن بعض أجزاء الجنين فى هذه المرحلة تبدو غير متناسبة ، والبعض الآخر متناسبة أمكن تفسير قوله تعالى :

« **مخلقة وغير مخلقة** » .

بهذا المعنى .

وتلك خاصية انفرد بها القرآن الكريم ، فأسلوبه يناسب كل عصر ، كما يجد فيه كل مستوى ثقافى مبتغاه ويعثر فيه على ما يرضيه فكريا ، ويطمئن إليه نفسيا .

ويتحدث القرآن الكريم عن المرحلة التالية لتكوين العظام واللحم ، ألا وهى ظهور الحواس والأحشاء ، فيقول :

« **وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة** » .

كما يشير إلى تشكل الجنس فى قوله تعالى :

« **وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ، من نطفة إذا تمنى** » [النجم : ٤٥-٤٦] .

لقد عبر القرآن الكريم عن عملية التناسل البشرى بألفاظ بسيطة ، دلت على حقائق لم يتوصل إليها العلم إلا بعد بحوث استمرت مئات السنين ، وجاءت نتيجة هذه البحوث متوافقة مع ما قاله قبل أربعة عشر قرنا ، حيث كان الناس بعيدين كل البعد عن مجال الحصول على هذه المعلومات .

فليس هناك أدنى شك فى أن هؤلاء الذين عاصروا نزول الوحى على محمد صلى الله عليه وسلم لم يعرفوا آنذاك تفسير المقولات القرآنية بالتفصيل الذى نعرفه اليوم ، بعد ما كشف العلم الحديث عن مجاهل تطور الجنين فى الرحم ، لأن معطيات المعرفة الحديثة ساعدتنا على فهمها ، وبالتالى على تفسيرها أكثر منهم .

حسن التعبير :

تحتل التعاليم الدينية لدى المؤمن مكانة سامية ، فهو ينظر إليها نظرة التقديس والاجلال والاحترام ، وينفذها دون اعتراض ، أو إظهار أدنى شىء من الضجر أو الملل ، بل على العكس من ذلك ، فهو يجد لذة فى تنفيذها ، وتعتريه الطمأنينة

بعد تأدية ما يطلب منه ، وترتاح نفسه عندما يشعر أنه يسلك فى المجتمع سلوكا يتفق وتعاليم عقيدته ، لأنه يحس بالأمان من كوارث الدهر ، ومصائب الزمن ، إذا أخذ جانب معبوده ، فالتزم بأوامره ، وتجنب نواهيه ، لأنه يعتبر هذا العمل سياجا من فولاذ ، يحفظه من الأخطار التى تتساقط حوله ، ويبعده عن مكامن الشر التى تنتشر حوله ، وتتناثر فى طريقه .

استغل الكهان هذا الخضوع المطلق لتعاليم الدين ، فأضافوا إليها كثيرا من القيود ، سواء كان ذلك عن قصد منهم ، أو عن خطأ فى تفسير النصوص الدينية ، وظلت هذه القيود تتكاثر جيلا بعد جيل ، حتى ضاق بها مجال حرية الانسان ، إذ ظلت المراسيم المقدسة تلاحقه فى كل ناحية من مجالات حياته ، تحرم عليه مباشرة كثير من السلوكيات النابعة من غرائزه الانسانية التى لايمكن القضاء عليها ، وإلا كان ذلك متعارضا مع طبيعته البشرية .

كان التعارض بين التعاليم الدينية وتفسيرات الكهان لها ـ التى أخذت صفة القداسة ـ وبين مطالب الانسان الأساسية فى حياته من الأسباب الرئيسية فى ظهور محاولة التأويل ، أو التنصل ـ وبلغة العصر : التحرر ـ من القيود الدينية ، التى تحول بين الانسان وبين مباشرته الحياة العادية فى جميع أنشطة المجتمع الانسانى . وبلغت ظاهرة التحرر من القيود الدينية ذروتها بعد عصر النهضة الأوربية ، حيث تحول كل ما يتعلق بسلوك الانسان فى المجتمع إلى المجال المدنى ، يُقوِّمه، وينظمه، ويحكم عليه، ولم يبق للدين إلا النزر اليسير، حتى فيما يتعلق بالغريزة الجنسية التى كانت لصيقة بالدين ، خرجت عن هذه الدائرة، فأصبحت من الأمور الشخصية التى لايتدخل الغير فيها ، فانطلق الناس فى ممارستها دون قيود ، ومن غير التزام بحدود ما يسمى بالحياء ، إذ تلاشى هذا الجانب النفسى عند الانسان فى خضم موجات التحرر العاتية .

لكن الاسلام جاء موافقا لطبيعة الانسان البشرية ، فلم يأمر بكبت غريزة ، ولم يقيد سلوك الانسان بقيود تتنافى مع ما فطر عليه ، بل هذب ما يحتاج إلى

تهذيب، وقـوّم ما تدعو الحياة الاجتماعية إلى تقويمه، فأوصى بمبادىء للسلوك تحفظ حياة الفـرد والمجتمـع من الانهيار ، وفى الوقت نفسه تشبع الغرائز الطبيعية فى الانســان ، فلم يحجر على الفكر ، بل أعطى الانسان حرية التفكير ، مادام ملتزما بالقـواعـد التى قامت الأدلـة على صحتهـا ، وبـالتـالى وجب على جميع الناس اتباعها ، كذلك أباح كل ما من شأنه تلبية دواعى الغريزة فى الانسان ، مادام لاينتج عن ذلك ضرر جسمانى أو نفسى ، أو ينشأ عنه انحلال فى المجتمع يسبب انهيار بنيانه ، وتصدع أركان الحياة فيـه .

ومن بين ما أبـاحه مباشرة الجنس ، فقد رسم له طرقا تؤدى إلى إشباع هذا الجـانب فى الإنسان ، وتحدث عنه بصراحة لم تعهدها القوانين الاجتماعية ، ولم تعرفها العادات والتقاليد فى المجتمعات التى سبقته ، حيث كان الحديث عنه غير مباح ، وإن كان الناس يباشرونه سرا ، غير أنه استعمل فى حديثه عن العلاقة بين الرجل والمرأة ألفاظا تجمع بين الدقة فى التعبير ، والاحتشام اللازم فى هذا المجال ، تأمل قوله تعالى :

« **خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب** » [الطارق : ٦ - ٧] .

فهو يشير إلى منطقة الرجل الجنسية بكلمة : « الصلب » ، أما منطقة الأنثى الجنسية فيستعمل لها كلمة : « ترائب » ، وهذا هو غاية الالتزام بالحشمة والوقار فى التعبير عن هذه الاشــياء .

كذلـك حين أراد أن يرسم سلوك الرجل مع امرأته فى زمن الحيض، عبر عنه تعبيرا يوحى بما يجب اتبـاعه فى هذا الصدد من تورية ، حتى لاتبدو المعطيات السلوكية فى صورة مسفة ، تتنافى مع ما ينبغى اتباعه فى المجتمع من الوقار والحشمة والأدب .

يقول تعـــالى :

« **ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهر ن فإذا تطهر ن فأتوهن من حيث أمركم الله ، إن الله يحب التوابين ويحب**

المتطهرين * نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ، وقدموا لانفسكم »
[البقرة : ٢٢٢ - ٢٢٣] .

فقد أفاد صدر الآية تحريم إقامة علاقات جنسية مع امرأة حائض تحريما قاطعا ، ثم أشارت إلى أن الهدف من العلاقة الجنسية - فضلا عن إشباع الغريزة - هو الانجاب ، فعبر عن ذلك بكلمة : « الحرث » الذى يسبق وضع البذور التى ستنبت زرعا .

وختم النص بإرشاد الرجل إلى أن يكون لطيفا مع زوجته، عند ما ينوى القيام بهذه العملية ، فلا يسلك معها سلوكا خشنا ، بل يلاطفها ويداعبها فعبر عن ذلك بقوله : « وقدموا لأنفسكم » ، وهو إشارة إلى مقدمات المباشرة الجنسية .

فإذا قارنا بين هذا الأسلوب العفيف ، وبين ما يشاهد فى المجتمعات التى أباحت الجانب الجنسى بصورة تشمئز منها النفس ، وتنفر منها الطبيعة السليمة للإنسان المتحضر ، لأدركنا أن القرآن الكريم عالج هذا الجانب قبل أربعة عشر قرنا بأسلوب يحفظ على الإنسان آدميته ، ويبعده عن دائرة الحيوان ، كما أنه لا يفرض عليه من القيود ما يشعره بالضيق أو التالم ، ولا يطلب منه أن يسلك سلوكا يقتل به غريزته .

وعليه ، فليس هناك ما يدعو المسلم أن يطالب بالتحرر من مبادىء الإسلام ، لأنها موافقة لطبيعته البشرية ، ومنظمة للحياة فى المجتمع على نحو يضفى عليها الهناءة والسعادة . .

الفصـــــل العاشـر

الأنبيـــــاء والرسـل

معنى النبـوة فى الاسلام :

عرف الإنسان منذ القدم كلمة : « النبوة » ، فقد عثر عليها علماء اللغة فى جميع اللغـات واللهجات ، غير أن استعمالاتها تعددت وتنوعت ، ففى اليونانية القديمة كانت تطلق على المتكلم بصوت جهورى ، أو على من يتحدث فى الأمور الشرعية وعند الفراعنة كانت تطلق على كهنة آمون ، كما أطلقت على « إيزيس » فى مصر القديمة ، وعلى « زرابيس » فى روما ، وكلاهما لا يخرج عن هذا المعنى .

ولم يقتصر الأمر على إطلاقها على من يعمل فى الحقل الدينى ، بل أطلقت أيضا على السحـرة والمنجمين ، وكذلك على من اختل عقلهم ، وضعف تفكيرهم ، فأتوا من الأعمال مالا يفهمه العقلاء ، ولذا ذكر علماء مقارنة الأديان أنواعا كثيرة من النبوات ، منها : نبوة السحر ، ونبوة الرؤيا والأحلام ، ونبوة الكهانة ، ونبوة الجذب ، أو الجنون المقدس ، ونبوة التنجيـم .

وكانت كلمة « النبوة » عند بنى إسرائيل تفيد معنى الأخبار عن الله وعن الأمور الدينية ، ولذا كانت تطلق على من يتخرجون فى المدارس الدينية ، حيث كانوا يتعلمون فيها تفسير شريعتهم ، كما كانوا يدرسون فيها أيضا الموسيقى والشعر ، لذا كان منهم شعراء ومغنون وعزافون على آلات الطرب ، وبارعون فى كل ما يؤثر

فى النفس ويحرك الشعور والوجدان ، ويثير رواكد الخيال . ومن المسلم به أن خريجى هذه المدارس لم يكونوا على درجة واحدة من الصفاء الذهنى ، والإدراك العقلى ، كما لم يكونوا كلهم على درجة واحدة من التقوى والصلاح ، ولذا لم تفرق الكتب المقدسة قبل الإسلام فى حديثها عن الانبياء بين من يتلقون الوحى من الله ، وبين من يدرسون شريعة الله ويشرحونها للناس ، فجاء حديثها ـ أحيانا ـ عن أنبياء كذبة ، فنجد فى سفر أشعياء حديثا عن النبى الكذاب ، حيث يقول أشعياء :

« **الشيخ والمعتبر هو الرأس ، والنبى الذى يعلم بالكذب هو الذنب** » [١٩ : ١٥] .

ويقـــول متى :

« **ويقوم أنبياء كذبة كثيرون ، ويضلون كثيرين** » [٢٤ : ١١] .

ويقول لـوقا :

« **لأنه هكذا كان آباؤهم يفعلون بالأنبياء الكذبة** » [٦ : ٦٦] .

ويصف يوحنا فى رؤيته خروج الأرواح النجسة من فم النبى الكذاب .

وحين نزل القرآن الكريم على محمد صلى الله عليه وسلم حدد معنى كلمة « النبـوة »، فوضـح أن النبى هو ما نزل عليه وحى الله وأمر بتليغه للناس ، فهو ليس ساحرا ، إذالنبوة الصحيحة لا تلتبس بالسحر ، لأن الفلاح لا يكون حليفه ، يقول تعالى :

« **ولا يفلح الساحر حيث أتى** » [طـه : ٦٩] .

كما أن ما يبلغه عن ربه ليس شعرا ، يقول تعالى :

« **وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون** » [الحاقة : ٤١] .

فلا ينبغى أن يقرن النبى بالشاعر ، أو بمن يلقى الكلام بصوت جهورى ، كما كان ذلك معروفا عند اليونان ، كما أنه ليس كاهنا كما كان معروفا بذلك عند قدماء المصريين ، إذ نفى القرآن الكريم عنه هذه الصفة . فقال تعالى :

« ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون » [الحاقة : ٤٢] .

فإذا بين القرآن الكريم أن النبى ليس شاعرا ولا كاهنا ، فالأولى أن ينفى عنه وصفا كان يطلقه بعض الناس علي المشعوذين باسم الدين ، وهو « الجنون المقدس » ، فقال تعالى :

« ما أنت بنعمة ربك بمجنون » [القلم : ٢] .

أى ما أنت بهذا الذى نزل عليك من الله واحد من هؤلاء الذين كانوا يعرفون بين الناس بأنهم « مجاذيب » ، أو لديهم « جنون مقدس » ، وأخيرا لست ممن يتخذون العرافة والتنبؤ بالغيب حرفة لهم ، فلا يلتبس ما تبلغه عن الله بكلام من يدعون أنهم يعرفون الغيب ، يقول تعالى :

« فقل إنما الغيب لله فانتظروا إنى معكم من المنتظرين » [يونس : ٢٠] .

ويقــــول :

« وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو » [الأنعام : ٥٩] .

ويقــــول :

« قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول لكن إنى ملك ، إن أتبــع إلا ما يوحى إلى ، قل هل يستــوى الأعمى والبصـير أفـلا تتفكرون » [الأنعام : ٥٠] . ؛ ،

وبهـذا فرق الإسلام بين النبوة الإلهية ، وبين ملابساتها من الكهانة والعرافة والقيافة والفراسة ، كما أنه حدد استعمالات الكلمة ، فلا تطلق إلا على من نزل عليه الوحى من الله ، فلم يعد من المستساغ عقلا ، ولا من الجائز شرعا أن تطلق على الكهنة ، أو على من يدرسون الشريعة ، ويعلمونها للناس ، وبالتالى لا تطلق على السحرة والمنجمين ، ولا على المجانين والمشعوذين فى طريق الدين ، فلم يبق من الاستعمالات القديمة لكلمة « النبوة » إلا أصحاب الرؤيا الصالحة ، وغالبا ما تكـون مقدمة وإرهاصا لنزول الوحى على من اختصه الله بهذه الرؤيا ، كما حدث ليوسف عليه السلام ، يقول تعالى :

« إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين » [يوسف : ٤] .

الفرق بين النبى والرسول :

صحح الإسلام استعمال كلمة : « النبوة » ، فجعل لفظ : « النبى » لايطلق إلا على من أوحى إليه برسالة . والوحى كما هو معروف ، إما أن يكون إلهاما ، أو رؤيا صادقة ، أو بإرسال ملك إليه ، غير أن الإلهام والرؤيا يحدثان - غالبا - قبل إرسال رسول الوحى إليه ، فيكونان بمثابة الإرهاص لمقدم الوحى ، كما أن تعبير الرؤيا - أو تفسيرها - يعد أيضا من علامات النبوة ، فقد فسر يعقوب رؤيا ابنه يوسف - حينما قص عليه : أنه رأى أحد عشر كوكبا والشمس والقمر ساجدين له - بأن الله سيجتبيه ، ويعلمه من تأويل الأحاديث .

كما كان تعبير يوسف لرؤيا صاحبيه فى السجن ،ولرؤيا الملك ، علامات على طريق نبوته ، فقد قص عليه صاحباه فى السجن ما رأياه فى مناهما ، فقال لهما :

« يا صاحبى السجن أما أحد كما فيسقى ربه خمرا وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضى الأمر الذى فيه تستفتيان » [يوسف : ٤١]

وحينما وقع ما قاله يوسف لهما ، ورأى الملك رؤياه ، واختلفت الآراء فى تفسيرها ، تذكر الذى نجا منهما يوسف ، فعرض على الملك أن يأتى بمن يفسر هذا الحلم ، يقول الله تعالى فى وصف هذا الحدث :

« وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع خضر سنبلات وأخر يابسات يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون * قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين * وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون * يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون * قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون * ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا

الأولى على من أنزل عليه وحى ولم يؤمر بتبليغه ، والثانية على من أنزل عليه وحى وأمر بتبليغه ، وهذا الاتجاه خاطىء من ناحيتين :

الأولى : أنه عطل مبدأ من مبادىء الدين ، وهو التبليغ ، أى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لأن التبليغ إذا كان واجبا على كل مؤمن، فهو على النبى أكثر الزاما ، بل هو أول شىء يجب عليه القيام به .

والثانية : التى يتضح منها خطـأ هذا الرأى :

أنه إذا كان قد نزل عليه وحى ، فكيف لايؤمر بتبليغه ؟ إن هذا أمر يتنافى مع العقل ، بل هو عبث ينسب إلى الله تعالى وهو محال ، إذ كيف ينزل الله وحيا على إنسان اصطفاه ثم لا يأمره بتبليغه . إذا كان الأمر كذلك ـ وهو ما تنزه الله سبحانه وتعالى عنه ـ فما الفائدة من تنزيل هذا الوحى ؟

إذن ، فليس هناك فرق بين نبى ورسول ، فالنبى رسول والرسول نبى ، أى أنهما لفظان مترادفان ، بل إن لفظ النبى أدق ، لأنه لا يطلق إلا على من اصطفاهم الله ، أما الرسول فقط ـ أى بدون إضافة الى لفظ الجلالة ـ فيطلق على غيرهم ، إذ شاع بين الناس قولهم : رسول الملك ، أو رسول الحكومة ، أو رسول القوم ، ولا يقال : نبى الملك ، أو نبى الحكومة ، فالنبى لفظ خاص بمن اصطفاه الله من الناس ، وأوحى إليه ، وأمره بتبليغ هذا الوحى لهم .

الجانب القصصى فى القرآن الكريم :

اهتم الانسان بدراسة التاريخ ، لأنه يشبع رغبة داخلية عنده ، تدفعه إلى سماع سيرة الناس وأخبارهم ، ولأن قصص السابقين لون من ألوان الفكر البشرى ، مال إليه الإنسان، عندما تبين له أن معرفة الأحداث الماضية تساعده على استغلال حاضره ، والتخطيط لمستقبله ، كذلك فى دراسة التاريخ عبرة ، تستفيد منها المجتمعات ، لتصحيح مسارها فى جميع مجالات الحياة .

ولذا لم يخل مجتمع من المجتمعات البشرية من ممارسة هذا اللون من الثقافة ، غير أن أسلوب تناوله اختلف من مجتمع لآخر ، ففى المجتمعات البدائية كان

اللون السائد فى هذا المجال قصص البطولة والشجاعة ، صاغها الإنسان فى أسلوب يغلب عليه الطابع الأسطورى ، وفى القرون الوسطى تغلب الحديث عن الأسر الحاكمة على غيره من أنواع أنشطة الإنسان فى مختلف جوانب الحياة .

ولما كان الدين هو محور الحياة فى العصور القديمة ، فقد تغلب الطابع الأسطورى على كل ما ورد فى الكتب المقدسة ، إذ لم تخرج النصوص الدينية - فى معظمها - عن سرد لتاريخ السابقين من أنبياء ودعاة ، ورجال انخرطوا فى مجال الدين ، فجاءت تعاليم الدين ومبادئه مبثوثة فى طيات السرد التاريخى ، ومن أشهر الأدلة على ذلك الديوانان المنسوبان إلى هوميروس (Homere) أعنى الإلياذة والأوديسا ، وهما سلسلتان من القصص الشعرى عند قدماء اليونان ، إذ نقرأ فيهما مغامرات اليونانيين فى الأشعار ، وقصص أبطالهم وشجاعتهم فى الحروب ، وتنافسهم فى الغنائم والأسلاب ، وفى طيات هذا كله نقرأ أسماء آلهتهم وآلهة خصومهم ، ووصف ما كان يقدم لهم من القربان والضحايا ، وما يرفع لهم من توسلات المظلومين والمكروبين ، كما ذكر فيهما أيضا المحاورات والمشاورات التى كانت تجرى بين آلهة السماء ، كما كان يتصوره اليونانيون آنذاك .

ولم تقتصر هذه الظاهرة على أديان قدماء اليونانيين ، بل كان سمة كل الأديان فى جميع بقاع الأرض ، بل إن اليهودية والنصرانية لم يشذا عن هذه الظاهرة ، فمن يقرأ الكتاب المقدس، يجد أنه لا يخرج عن كونه قصصا للأنبياء السابقين ، وجاءت التعاليم الدينية بين ثناياها ، فبدت وكأن القصة هى المحور ، ومبادىء الدين وتفاصيل العبادات ملحقة بها ، فتعاليم الدين تستنبط من أحداث القصة .

غير أن القرآن الكريم ، اختلف عن هذا كله ، فهو ليس كتابا تاريخيا، أرخ فيه لحوادث ما سبق من الزمن ، ولا سجلا لأخبار من سبق من الأنبياء والصالحين ، وإنما هو - فى المقام الأول - كتاب هداية ، يبين للناس فيه العقائد الصحيحة ، ومبادىء السلوك الطيب ، والنظم الاجتماعية التى ينبغى على المجتمعات تطبيقها، كى يستقيم أمرها وينصلح حالها ، وتعيش فى أمن وأمان ، وطمأنينه وسلام .

مما تحصنون * ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون » [يوسف : ٤٣ - ٤٩] .

فكان هذا التعبير من علامات النبوة ليعقوب ويوسف ، وكذلك كانت الرؤيا الصالحة - التى يرى فيها صاحبها فى منامه ما سيحدث - علامة من علامات النبوة ، وقد حدثت لمحمد صلى الله عليه وسلم ، فقد روى : أنه كان لايرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح ، فإذا انقضت هذه الفترة من الإرهاص ، جاءه الملك بالوحى ليخبره بالرسالة ، وليأمره بتبليغ قومه بما أمره الله به . غير أن الانسان لا يميل إلى صدق ما يقال له إلا إذا كان هناك ما يحمله على هذا التصديق ، سواء كان ذلك أمرا معنويا ، أو ظواهر حسية تدفعه إلى تصديق ما يدعوه ، وقد أيد الله أنبياءه بمعجزات تساعدهم على إقناع أقوامهم بأنهم رسل الله إليهم ، فكانت معجزة موسى السحر ، ومعجزة عيسى الطب ، وغير ذلك من الأمور التى كانت تعجز أقوامهم عن الإتيان بمثلها .

كان الإخبار بالنبوة يعتمد على معجزات حسية من نوع ما يتفق وعصر كل نبى ، أما نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فلم تعتمد على المعجزات المادية الحسية ، بل كان اعتمادها على معجزة عقلية كبرى ، تحدى بها العرب ، بل لازال التحدى بها قائما للعرب وغير العرب من الأجناس البشرية ، تلك هى القرآن الكريم ، الذى جاء التحدى به فى قوله تعالى :

« **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعضهم ظهيرا** » [الإسراء : ٨٨] .

كما عبر عنه ما رواه الشيخان أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ما من الأنبياء إلا قد أوتى ما على مثله آمن البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحى إلىّ ، وإنى لأرجو أن أكون أكثرهم تبعا يوم القيامة » .

انحصرت كلمة « نبى » بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، فأطلقت على من أوحى إليه ، غير أن بعض العلماء فرقوا بينها وبين كلمة « رسول »، فأطلقوا

يقول الله تعالى :

« ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك ، وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » [البقرة : ٢ ـ ٥] .

ويقـــول :

« إن هذا القرآن يهدى التى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا » [الإسراء : ٩] .

ويقـــول :

« وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » [الإسراء : ٨١] .

وغـير ذلـك من الآيات التى تبين : أن القـرآن الكريم كتاب هداية ، وعلاج للأمراض الاجتماعية ، وليس كتابا تاريخيا ، فإذا جاء فيه حديث عن الأولين، كان تنـاولـه لأخبارهم بعيدا عن السرد التاريخى، إذ يذكر جانب العظة فقط ، ضاربا الصفح عن الأحداث التى لا تدخل فى هذا الجانب ، ولا تؤدى إلى الغرض الذى من أجله سيق الحدث ، ألا وهو العبرة والعظة ، يقول الله تعالى :

« لقـد كان فى قصصهم عبرة لأولى الالبـاب ، ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » [يوسـف : ١١١] .

ولهذا لانجد قصة كاملة ـ من ألفها إلى يائها ـ فى القرآن الكريم ، بل نجد الجانب الذى يتطلبه المقام فقط ، ومن هنا نجد الحديث عن كل نبى فى أكثر من موضع ، لأن ما يذكر فى هذا النص غير الذى يذكر فى نص آخر، لاختلاف المقام الذى يتطلب نوعا معينا من الاستشهاد بتاريخ الأنبياء السابقين ، فإذا أردنا أن نتحـدث عن الأنبياء الذين جاء ذكرهم فى القرآن الكريم، فإن الأمر يتطلب جمع هذه الأخبـار المتنـاثـرة عن كل نبى ، وتـرتيبهـا لينسـج منهـا عقـد تاريخى لهؤلاء

الأنبياء . وحتى لو حدث هذا ، فإن ما ينتج عن هذا العمل لن يكون قصة كاملة عن تاريخ لهؤلاء الأنبياء ، بل صورة خاصة تعرض للجوانب التى تتعلق باصطفاء الله لهم ، ليبلغوا رسالته لأقوامهم ، ولما حدث بينهم وبين أقوامهم من مناقشات حول ما جاءوا به من عند الله ، لأن هذا هو الجانب الذى ركز عليه القرآن الكريم ، ليضرب الأمثال للناس لعلهم يتفكرون فيما يبلغهم به محمد صلى الله عليه وسلم من وجوب الايمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، فيدركوا أن طاعة الله تقودهم إلى الصلاح فى الدنيا ، والفلاح فى الآخرة ، كما حدث مع من سبقهم ممن أطاعوا رسل الله ، فامتثلوا لما أمروهم به عقيدة وعبادة ، وسلوكا ، وأخلاقا .

آدم عليه السلام :

لم يتناول القرآن الكريم سير الأنبياء السابقين من الجانب التاريخى ، لأنه ليس سجلا تاريخيا ، ولم يعالجها من الزاوية القصصية ، لأنه ليس كتاب قصص وروايات ، ولكنه ذكر ما يقتضى المقام ذكره من هذه السير ، ألا وهو ما يدعو إلى العظة والاعتبار ، أو ما يحمل الناس على الإيمان بالله ، والتحلى بالأخلاق الحميدة ، وسلوك الطرق المؤدية إلى ما فيه صلاح حالهم فى الدينا ، وفلاح عاقبتهم فى الآخرة ، ومن هنا جاء الحديث عن كل نبى متناثرا بين سوره وآياته ، لأن كل حادثة ذكرت فى المقام الذى يناسبها ، كما أنه لم يأت الحديث فيه عن كل الأنبياء السابقين ، يقول تعالى :

« **ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك** » [غافر : ٧٦] .

لأن ما ذكر كان أمثلة وشواهد على قضايا أريد إثباتها للناس ، ومن شأن الأمثلة والشواهد أن ينوب واحد أو اثنان عن جميع الأشباه والنظائر .

تحدث القرآن الكريم عن أربعة وعشرين نبيا هم : آدم ، ونوح ، وإدريس ، وهود ، وصالح ، وإبراهيم ، ولوط ، وإسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب ،

ويوسف ، وأيوب ، وشعيب ، وموسى ، وهارون ، ويونس ، وداود ، وسليمان واليسع ، وزكريا ، وإلياس ، ويحيى ، وعيسى ، ومحمد صلى الله عليهم جميعا وسلم ، كما جاء فيه حديث عن بنى آدم : قابيل وهابيل ، وعن قارون ، وطالوت ، وذى القرنين ، وأصحاب الكهف ، وأصحاب الأخدود وغيرهم . ولما كان الحديث عن كل هؤلاء لا يتسم بالطابع التاريخى ، فلم يحدد القرآن الكريم العصر الذى عاش فيه كل هؤلاء ، تحديدا تاريخيا ، وإنما يمكن للباحث أن يستنتجه من سياق الحديث عنهم ، ولهذا فلن يكون محور حديثنا عنهم هو الجانب التاريخى ، بل سوف نركز على جوانب العظة والاعتبار التى من أجلها ذكروا فى القرآن الكريم .

أراد الله سبحانه وتعالى أن يجعل له خليفة فى الأرض فقال للملائكة :

« إنى جاعل فى الأرض خليفه ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . قال : إنى أعلم ما لاتعلمون » [البقرة : ٣٠] .

ويبدو من تعليق الملائكة على إخبار الله لهم ، بأنه سيجعل فى الأرض خليفة ، أنهم كانوا على علم ودراية بما يمكن أن يحدثه هذا المخلوق من فساد فى الأرض . ولم ينف الله إمكان حدوث الفساد منه ، بل رد عليهم ردا له مغزى كبير فى مجال التربية الإنسانية ؛ ذلك أنه بين لهم أنه يعلم ما خفى علمه عليهم ، وهو أن التعليم والثقافة من العوامل التى يمكن أن تحد من هذا الفساد ، أو تقاومه ، فلا تترك له السيطرة الكاملة على حياة الإنسان ، يشير إلى ذلك قوله تعالى :

« وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة ، فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين * قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم * قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم اقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » [البقرة : ٣١ - ٣٣] .

فقد وضع تفوقه عليهم فى العلم، ردا على سبب اعتراضهم على خلقه، بأنه سيفسد فى الأرض ، وتلك إشارة إلى أن العلم من شأنه أن يمنع الانحراف فى المجتمع ، ويقاوم الفساد فى الأرض ، فمهمته تقويم السلوك ، وتهذيب الأخلاق ، وهداية الإنسان إلى فعل ما يعود عليه وعلى المجتمع بالخير العام .

وليس بلازم ـ طبقا لتجربة التاريخ الإنسانى ـ أن يقضى العلم على جميع صور الفساد فى المجتمعات التى بلغت شأوا كبيرا فى مجال العلوم والثقافة ، ولكنه ـ على الاقل ـ يحد منها ، أو يقضى على الصور الصارخة منه ، فلو قارنا بين شريحة متعلمة وأخرى لم تنل حظا كبيرا من التعليم ، لوجدنا أن معدل الفساد فى الثانية أعلى منه فى الأولى ، ولتبين لنا أنه حتى لو حدث الفساد فى الأولى ، فإن صوره تكون أكثر احتمالا ، وأقل ضررا من الفساد فى المجموعة الثانية .

ولهذا لم ينف الله سبحانه وتعالى وجود الفساد من هذا المخلوق الذى سيجعله خليفة ، لأن من طبيعته الميل إلى عمل الشر ، والنزوع إلى ارتكاب أعمال قد تحدث الفساد فى الأرض .

وهذه نظرية لم تكن معروفة بهذه الدرجة فى المجتمع المكى ، يوم أن نزل الوحى على محمد صلى الله عليه وسلم . الأمر الذى يجعلنا نجزم بأن هذه المعالجة التى تضمنت معالم دراسات فى مختلف مجالات البحث عن هوية الإنسان ، لم تكن من عند محمد، لأنه كان أميا لا يعرف القراءة والكتابة ، ولم يكن فى مجتمعه هيئات علمية تمده بهذه النتائج التى من شأنها أن تكون حصيلة دراسات متعددة ، بل هى من عند الله الذى يعلم كنه وطبيعة ما يخلقه ، فهو أعلم بسلوكه ، وبما يميل إليه فى حياته .

فإذا انتقلنا إلى قضية أخرى من القضايا التى جاء الحديث فيها عن آدم ، نجد القرآن الكريم يقول :

« إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين * فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس استكبر

وكان من الكافرين * قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى أستكبرت أم كنت من العالين * قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين * قال فاخرج منها فإنك رجيم * وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين » [ص : ٧١ - ٧٨] .

وما ذكر الله هذه القصة ، إلا ليبين للناس أنه خلقهم من عدم ، إذ سوى أصلهم آدم من طين - وفى موضع آخر من تراب - والطين لاقيمة له فى هذه الحياة ، فإذا صار إنسانا سويا يفكر ويحس ، ويكون له تأثير فى مجالات الحياة المختلفة ، فما ذاك إلا لما أضافه الله من عنده إلى هذه المادة المبتذلة بما صيرها إنسانا على هذا النحو ، حيث يتباهى بنفسه على غيره من الكائنات المخلوقة ، فينبغى أن يفكر المرء فيمن حول هذه المادة إلى هذه الصورة التى لها إرادة وإحساس ، وتتمتع بقوة لها تأثير كبير على ما يشيد ويبنى على سطح هذه الكرة الارضية ، وفى محيطها الملاصق لها .

لقد نفحها الله شيئا من ذاته :

« فإذا سويته ونفخت فيه من روحى » .

فتسوية الله له بيديه ، ونفخه فيه من روحه ، يعتبرا امتدادا له ، وأثرا مباشرا من آثاره ، لذا ينبغى على الإنسان أن يسعى إلى الكمال ، لأنه مصدره ، ويعمل الخير ، لأنه نفخة منه ، ويتجنب الشر لأن الله - الذى هو من روحه - لا يرضاه ، ولا يقره ، وبذلك يكون تذكير الإنسان بأصله دعوة غير مباشرة له إلى أن يسلك فى حياته سلوكا طيبا ، وأن يسعى فى الأرض سعيا حسنا ، فلا يفسد شيئا ، ولا يؤذى أحدا ، بل يعمر ما وسعت قدرته على ذلك ، ويعطف على أخيه الإنسان ، ويساعده ، مهما اختلفت الأجناس ، وتباعدت الأوطان ، لأنهم من أصل واحد وهو آدم عليه السلام .

وأمر الله الملائكة بالسجود له إشارة إلى مكانته فى هذه الحياة ، حيث يكون سيدا على ما عداه فى هذا الكون ، يتحكم فيه ، فيسخره لمنفعته ، يقول تعالى :

« وسخر لكم ما فى السموات وما فى الارض جميعا منه » [الجاثية : ١٣] .

ومادام هذا شأنه وعلاقته بها فى الكون ، فينبغى أن يحتفظ بهذه المكانة ، فلا يأتى من الأعمال ما ينقص من قدره ، أو يحط من شأنه ، فعبادة الإنسان لشىء من مخلوقات هذا الكون تتنافى مع هذا المفهوم ، إذ المعبود أعلى مكانة من العابد ، وأرفع شأنا منه ، فهو ينظر إليه من عليائه ، ويحركه يمينا أو شمالا حسب إرادته ، ويملك عواطفه وإحساسه ، وليس للعابد سبيل إلا الخضوع والانقياد ، وبذلك يكون قد وضع نفسه فى درجة أقل من المعبود ، فإذا فعل الإنسان شيئا من هذا إزاء ما فضله الله عليه من سائر المخلوقات، يكون قد ضيع كرامته وحط من درجته ، ونسى ما ذكره الله به يوم استخلفه على الأرض: بأنه كرمه على سائر المخلوقات ، فلا ينبغى أن يعبد شجرا ولا حجرا ، لأنها خلقت له ، لينتفع بها ، لا ليقدسها ، ولا يجوز أن يؤله إنسانا ، لأنه مثله فى الدرجة ، فإذا وعى الإنسان هذا المعنى ، وتصرف فى حياته طبقا لمفهومه ، كانت له السيادة فى الأرض ، والغلبة والسيطرة على ما عداه من الكائنات على سطح الكرة الارضية .

فلا يخشى إلا الله ، ولا يخضع إلا له ، وبذلك يتحرر من القيود ، فينطلق بكل قوته فى مجال الإبداع والابتكار .

كذلك عقاب الله لمن لم يسجد من الملائكة بطرده من ساحتهم ، وغضبه عليه، إشارة إلى أن المكانة العليا ، والمنزلة الرفيعة لا تعفى من العقاب، إذا ارتكب صاحب هذه المنزلة ما يقتضى عقابه ، فلا ينبغى أن يفرق عند محاسبة المذنب بين من يقف فى أعلى السلم الاجتماعى ، ومن هو ملقى فى أسفله .

كذلك لا ينبغى أن تكون لعلاقة من ينفذ الحكم بمن ارتكب إثما أثرا على إحقاق الحق ، وتنفيذ الأحكام طبقا للقانون والدستور ، يقول تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » [المائدة : ٨] .

وحين شفع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى امرأة شريفة ارتكبت

جريمة السرقة ، غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لمن جاءه يشفع فيها : « أتشفع فى حد من حدود الله ؟ » ، ثم قام فخطب الناس قائلا :

« أيها الناس ، إنما ضل من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » .

فطرد إبليس من ساحة الملائكة التى كان يتمتع بالحياة فيها ، وإنزال اللعنة عليه عقابا له على عصيانه ، بيان للناس بأن القانون ينبغى أن ينفذ على الجميع بمقياس واحد ، فلا يعفى منه كبير لمنصبه ، بينما يعاقب من لاسند له فى المجتمع ، ولا يحابى إنسان لقربه من الحاكم ، بينما يبالغ فى عقاب من لا علاقة له بذوى النفوذ . فإذا فهم الناس هذا المبدأ سادت العدالة ، وعندما تسود العدالة فى المجتمع ، يطمئن كل فرد على نفسه وماله وعرضه ، فيعطى لمجتمعه كل ما لديه من طاقات ، وبذلك تزدهر الحياة ، وتتقدم الأمة فى جميع المجالات . .

* * *

جاء الحديث عن آدم فى موضع آخر من القرآن الكريم مخبرا أن الله أمر آدم أن يسكن الجنة بعد أن خلق له حواء ، وقد تناولنا بيان كيفية خلقها عند الحديث عن خلق الإنسان ، وأباح لهما كل شىء فى الجنة ، إلا شجرة واحدة عينها لهما ، فقال تعالى :

« ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » [الأعراف : ١٩] .

لكن إبليس أراد أن ينتقم لنفسه ، لأنه طرد من رحمة الله بسبب آدم ، فوسوس لهما حتى خالفا أمر الله ، فعوقبا على ذلك ، يقول تعالى :

« فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوءاتهما وقال : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين * وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين * فدلاهما بغرور * فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا

يخصفان عليهما من ورق الجنة * وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين * قالا : ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين * قال : اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين * قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون » [الأعراف : ٢٠ - ٢٥] .

ويشير هذا الموقف إلى عدة أمور :

أولاها : أنه ينبغى على الإنسان أن يدرك تحديد المباح له ، فلا يظن أن ما فى الوجود - اذا كان الله قد سخره له - ملكا له ، يستطيع أن يتصرف به بحرية ، بل لابد أن يعرف أن حريته لها حدود ، وما أبيح له الاستمتاع به له حدود أيضا ، وبذلك يتربى على التصرف فيما له ، والابتعاد عما ليس له حق فيه ، فإذا أدرك ذلك سارت الأمور فى المجتمع سيرا طبيعيا ، إذ يلتزم بما حدد له ، فلا يتعداه ولا يتجاوزه ، وبذلك يضمن لنفسه هو أيضا حقوقه المشروعة ، لأن الآخرين سوف لا يسلبونها منه ، وذلك إذا راعى كل إنسان ماله وما عليه .

ثانيها : أن هناك دوافع تدفع الإنسان إلى التعدى على ما ليس له ، فيرتكب إثما فى حق نفسه وإزاء الآخرين ، وهى وإن كانت فى نفس الانسان ، إلا أن ما يحركها عوامل خارجية ، أبرزتها قصة آدم فى وسوسة الشيطان له ولزوجته ، ولا يكون لهذه العوامل تأثير ، إلا إذا صورت للإنسان أن ما يتمناه سوف يتحقق ، لو أقدم على هذا العمل الذى تزينه له .

فانحراف الإنسان ينبع من ثلاثة أشياء : رغبة كامنة فى النفس ، وتأثير خارجى ، وأمل يريد تحقيقه ، ولا يستقيم الإنسان فى سلوكه إلا إذا هذب هذه الرغبات الكامنة فى النفس ، وأدرك أنه لا ينبغى أن ينساق وراء كل دعوة تدعوه إلى سلوك طريق ما ، إلا إذا كان ذلك فى حدود ما رسم له ، وأيقن أن ليس كل ما يتمناه المرء قابلا للتحقيق ، فيحصر أمانيه فى حدود الجائز ، ولا يسبح فى مجال الخيال الذى لا يجنى الإنسان من ورائه إلا الندم والحسرة على ما ارتكب من آثام فى سبيل

الحصول على ما يتنافى مع طبيعته وتكوينه البشرى .

ثالثها : أنه يجب على الإنسان فى هذه الحياة أن يحترس من الشيطان وأعوانه، لأنهم أعداؤه ، يريدون به الشر ، ويسعون فى غوايته حتى يخسر الدنيا والآخرة ، كما ينبغى عليه أن يبتعد عن كل الأشرار ، لأنه لا يجنى من القرب منهم إلا الخسران والهلاك ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يقول : « مثل الجليس الصالح والجليس السوء كمثل صاحب المسك وكير الحداد : لايعدمك من صاحب المسك ، إما أن تشتريه ، أو تجد ريحه ، وكير الحداد : يحرق بيتك أو ثوبك ، أو تجد ريحا خبيثه » .

وعليه فلم يكن القصد من ورود قصة آدم فى القرآن الكريم سردا تاريخيا ، وإنما جاءت للعظة والاعتبار ، وللتعليم والهداية . فحوار الله مع الملائكة حول خلقه يعملنا التسليم لما يريد ، لاننا لا نعلم سر إرادته .

وأمره الملائكة بالسجود لآدم، يوضح لنا مكانة آدم فى هذا الكون ، وأن هذه المنزلة لم ينلها إلا لأن الله نفخ فيه من روحه .

وعقاب الله إبليس يؤكد لنا أن من يرتكب إثما لابد من عقابه ، مهما كانت منزلته ودرجته .

وتحريم الله على آدم الأكل من شجرة معينة تعليم لنا بأنه ليس كل شىء مباحا ، بل هناك حدود لهذه الإباحة ، وهو الأمر الذى تسير عليه سنن الحياة فى المجتمعات البشرية .

ووقع آدم فى الخطأ وإبلاغه بأن الشيطانعدوله ،إشارة إلى ما ينبغى على الإنسان عمله من الحرص ، حتى لا يرتكب المعاصى .

هذه هى الأهداف التى من أجلها جاء الحديث عن آدم فى القرآن الكريم ، وما عداها من تاريخ حياته على الأرض ، فلم يذكر القرآن الكريم شيئا مما حدث له ، لأنها أمور عادية ليس فيها ما يلفت النظر ، فلو تحدث عنها لخرج عن كونه كتاب هداية ، وتحول إلى كتاب تاريخ ، تسجل فيه أحداث السابقين بغثها

وسمينها ، وهو ليس كذلك ، لأنه لم ينزل على محمد صلى الله عليه وسلم ليعلمه التاريخ ، ولكن ليبلغه ما يساعد الناس على اتباع طريق تكون فيها سعادتهم فى الدنيا وفلاحهم فى الآخرة . .

***

اختلف العلماء حول وضع آدم بين الأنبياء ، فقال فريق : إنه لم يكن نبيا ، لأن القرآن الكريم لم يصفه بكلمة : « نبى » كما وصف غيره من الأنبياء مثل : إبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، وغيرهم . وذهب آخرون إلى أنه نبى ، لأن من أوصاف النبوة أن يخاطب الله من اصطفاه نبيا ، ويأمره بتبليغ ما أوحى إليه إلى غيره من البشر ، وقد خاطبه الله بلا واسطة ، وشرع له فى ذلك الخطاب شرعا ، فأمره ونهاه ، وأحل له أشياء ، وحرم عليه أخرى ، وذلك هو معنى النبـوة .

ويعـترض من ينكـر نبـوتـه بأن الأنبياء معصومون من الخطأ ، وآدم ارتكب معصية ، وهى تتنـافى مع النبـوة . ولا مجال لهذا الاعـتراض، لجواز أن يكون قد ارتكب المعصية ناسيا ، ومن ينس فيرتكب إثما فلا تقع عليه مسئولية ، وإنما سمى ما اقترفه ناسيا خطيئة ، لأن النبى ليس كأحد من الناس ، فإذا نسى عد ذلك خطيئة فى حقه ، وإن لم تكن خطيئة فى حق غيره من الناس العاديين . ويمكن أن يكون ما حصل من الذنب صغيرة ، وهذا لا يتأتى إلا على رأى من يقول : لأن الأنبياء غير معصومين من الصغائر .

ويلاحظ فى سياق الحديث عن هذه الخطيئة أن الله نسب العصيان لآدم فقط دون حواء ، فقال تعالى :

« **وعصى آدم ربه فغوى** » [**طه** : ١٢١] .

فى حين أنه نسب وسوسة الشيطان لهما فقال :

« **فوسوس لهما الشيطان** » [**الأعراف** : ٢٠] .

فهل يشير ذلك إلى أن العصيان كان من آدم فقط ولم تقع حواء فى هذه المعصيـة ؟

لقد عبر القرآن الكريم عن أن كلا منهما قد وقع فى الغواية، فأكلا من الشجرة فى قوله تعالى :

« **فأزلهما الشيطان** » [البقرة : ٣٦] .

وقـــوله :

« **فأكلا منهـــا** » [طه : ١٢١] .

وذلـك يفيد أنهما متساويان فى عدم الالتزام بما أمرهما الله . وهذا من ناحية المسئولية الفردية ، لكن هناك مسئولية اجتماعية ، لا يسأل عنها إلا آدم فقط ، لأن وظيفة الرجل فى المجتمع تقتضى منه أن يكون حارسا على الأخلاق والفضيلة ، فهو يتحمل مسئوليتين: مسئولية فردية، وأخرى اجتماعية ، ولهذا جاء إسناد العصيان له فقط ، فهو المسئول وحده عن الناحية الاجتماعية دون حواء ، أما مسئوليتهما الفردية ، فقد جاء فى قوله تعالى :

« **فأزلهمـــا الشـيطان** » .

وينبغى ألا نترك قصـة آدم، دون أن نبين أن القرآن الكريم يرفض أن تنسحب خطيئة آدم وحواء على كل الناس ، كما يعتقد ذلك بعض علماء الأديان الأخرى ، فالمسئولية الدينية فى نظر القرآن الكريم شخصية محضة ، وقد بين الله ذلك فى آيات عدة ، فذكر منها على سبيل المثال قوله تعالى :

« **لها ما كسبت وعليها ما اكتسـبت** » [البقرة : ٢٨٦] .

وقولـــــــه :

« **ومن يكسب إثما فإنما يكســـبه على نفسه** » [النساء : ١١١] .

وقولـــــــه :

« **من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى** » [الإسراء : ١٥] .

وقولـــــــه :

« لايجـزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا » [لقمـان : ٣٣] .

وقولـــــــــه :

« اليوم تجزى كل نفس بما كسبت » [غافر : ١٧] .

وقولـــــــــه :

« ولكل درجات مما عملــوا » [الأحقاف : ١٩] .

وقولـــــــــه :

« وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » [النجم : ٣٩] .

بل إن القـرآن الكـريم ليصـور لنـا أخذ البرىء بالمذنب ، لاعلى أنه مضاد للشريعة فحسب ، بل على أنه كذلك غير متوافق مع الفكرة الأساسية للعدالة الإنسانية ، يقول تعالى حكاية عن يوسف :

« قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذاً لظالمون » [يوسـف : ٧٩] .

وخـلاصـة القـول : أن آدم كان نبيا ، لأنه أوحى إليه ، ولا يتنافى هذا مع معصيته ، لأن المعصية كانت قبل النبوة ، أو كانت من الصغائر ، وهى من الأمور التى يجوز وقوعها من الأنبياء على رأى بعض العلماء ، وأن نسبة المعصية إليه دون حواء لمسئوليتـه الاجتماعية ، وأن خطيئته لا يتوارثها بنوه من بعده، كما يرى ذلك بعض علماء الأديان الأخرى ، لأن كل نفس مسئولة عما تفعل ، فلا يسأل إنسان عما يفعل آخر ، ولا يؤخذ برىء بذنب المخطىء ، فالقرآن الكريم يرفض هذه الفكرة رفضا باتا ، لأنها تتنافى مع العدالة .

ادريس عليه الســـــلام :

ذكر القرآن الكريم إدريس مرتين : إحداهما فى قوله :

« واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا ورفعناه مكانا عليا » [مريـم : ٥٦] .

والثانية فى قوله تعالى :

« **وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين** » [الأنبياء : ٨٥] .

ويلاحظ أن المناسبة الأولى التى ذكر فيهاإدريس ،هى معرض سرد أسماء بعض الأنبياء السابقين،وما اشتهروا به من صفات ، إذ بدىء الحديث بقوله تعالى :

« **واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا** » [مريم : ٤١] .

ثم يستمر فى الأخبار عن الحوار الذى جرى بينه وبين أبيه حول توحيد الله ، ثم تكريم الله له بعد ما اعتزل قومه وما يعبدون ، بأن وهب له اسحاق ويعقوب .

وبعد ذلك يقول الله تعالى :

« **واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا** » [مريم : ٥١] .

ثم يعقب ذلك بالحديث عن الحدث الأكبر بالنسبة له ، وهو مناداة الله له فى جبل الطور ، فإنعام الله عليه بأن جعل أخاه هارون نبيا .

ثم ينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن إسماعيل وأمره بالصلاة والزكاة فيقول :

« **واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا * وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا** » [مريم : ٥٤ ـ ٥٥] .

ويجىء الحديث عن ادريس فى آخرهم ، فيقول عنه :

« **واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا ، ورفعناه مكانا عليا** » [مريم : ٥٦] .

ثم يختم ذلك كله بقوله تعالى :

« **أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ، وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ، وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا** » [مريم : ٥٨] .

فمقام ذكر إدريس هنا ، هو مقام التذكير بأنبياء الله الذين جاهدوا فى سبيل الدعوة الى الله ، فمنحهم ثوابا على المجهود الذى بذلوه فى حمل الناس على الايمان به ربا ، وذلك ليتعظ بذلك الناس ، فيسلكوا طريق الحق والصواب ، ولا يتبعوا من

ضل بعد رحيل هؤلاء الأنبياء حتى لايلقوا مصيرهم ، يقول الله تعالى مبينا ذلك :

« فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا * إلا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا * جنات عدن التى وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتيا » [مريم : ٥٩ - ٦١] .

أما الحديث عن إدريس فى الآية الثانية ، فجاء فى مقام بيان أجر الصابرين الذين لا يسألون إلا الله سبحانه وتعالى : إذ بدىء الحديث بأيوب ، بعد أن تحدث فى نفس السورة عن إبراهيم ، ولوط ، ونوح ، وداود ، وسليمان ، وختم بزكريا :

« وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين * فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين * وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين * وأدخلناهم فى رحمتنا إنهم من الصالحين * وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا اله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين * فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين * وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين * فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين» * [الأنبياء : ٨٣ - ٩٠] .

ولم يذكر الله شيئا آخر عن إدريس سوى هذين الخبرين ، لحكمة يعلمها هو ، لكن الإنسان مولع دائما بالبحث عن أخبار الناس ، فدفعه هذا الولع إلى الحديث عن كل اسم ورد ذكره فى القرآن الكريم ، ولما لم يجد أكثر من هذا عن إدريس ، بدأ يبحث فى المصادر الأخرى عنه ، فهداه تفكيره إلى أن يستقصى أخباره من الكتاب المقدس بقسميه : العهد القديم والعهد الجديد ، فماذا جاء فيهما عن إدريس ؟

لم يرد ذكر إدريس فى الكتاب المقدس ، وإنما ورد اسم ظنه المؤرخون المسلمون أن المقصود به إدريس ، ألا وهو : « خنوخ » أو « أخنوخ » فماذا ورد فى الكتاب

المقدس عن أخنوخ ؟

ورد ذكـر أخنوخ فى الكتاب المقدس خمس مرات : الأولى تحدثت عن نسبه حتى آدم ، والثانية ذكرت : أنه سار مع الله ، ولم يوجد لأن الله أخذه ، والثالثة ذكـرت نسبـه أيضا ، والرابعة : ذكره لوقا عند الحديث عن نسب عيسى عليه السـلام، والخامسة ماذكر عنه فى رسالة العبرانيين من أنه « بالايمان نُقِل أخنوخ ، لكى لايرى المـوت ، ولم يوجـد لأن الله نقله » . ويتضح من نصوص الكتاب المقدس أنه تحدث عن نسبه وأن الله رفعه معه حيـا .

ويستفـاد من هذا أن المسلمين حين تصدوا لكتابة تاريخ الأنبياء تحدثوا عن إدريس بما جاء فى الكتـاب المقـدس ، ولـذلك ذكروا أن الله رفعه حيا، مع أن القرآن لم يتحـدث عن رفعـه حيا ، كذلك اعتمد المؤرخون فى نسب « إدريس » عليه السلام على ما جاء فى الكتاب المقدس بشأن« أخنوخ »، ويبدو أن ولوعهم بذكر نسب كل نبى ورد اسمه فى القرآن، دفعهم إلى القول بأن ادريس هو « أخنوخ » ، إذ عندما تصدوا لكتابة قصص الأنبياء، وجدوا أن القرآن الكريم أشار إلى بعضهم إشارات عابرة ـ لأنه ليس كتاب قصص فى المقام الأول بل هو تشريع ـ لذا بحثوا عما سكت عنـه فى الكتـاب المقدس ، فكان عملهم هذا غير علمى ـ فى محيط المجتمع الإسلامى ـ إذ المصدر الذى يعتمد عليه فى البحث العلمى يشترط فيه أن يكون صحيحا ، وخاصة فيما يتعلق بشرح ما جاء فى القرآن الكريم .

وعليه فقـول المؤرخـين المسلمـين أن ادريس هو « أخنـوخ » يفتقر الى دليل صحيح من مصادر التشريع الإسلامى .

نوح عليه السـلام :

تحدث القرآن الكريم عن نوح فى ثلاثة وأربعين موضعا ، ولم يخبرنا فى موضع واحد منها عن طفولته ، أو عن خصوصياته ، بل تركزت كلها حول ما كان عليه قومه من ضلال وكفر ، وما انتشر بينهم من عبادة الأوثان والأصنام ، وذلك تمهيدا

لإخبارنا بجهوده فى مجال الدعوة إلى الله ، وما عاناه من تكبر قومه ، واستعلائهم على المستضعفين الذين آمنوا بـه .

ثم قص القـرآن الكـريم علينـا ما حدث له، عندما كان يصنع السفينة ، وما حدث من الطوفان وحديثه مع ابنه ، ومع الله حول ذلك الابن الذى عصا الله فلم يتبع ما كان يدعوه إليه أبوه .

ويلاحظ أن النقـاط التى ركز عليها القرآن الكريم فى قصة نوح عليه السلام، هى التى تهدف إلى العظة والاعتبار ، وتذكير الناس بما حدث بين الأنبياء السابقين وبين أقوامهم ، وعاقبة من تكبر وطغى ، فأبى واستكبر على الدخول فى دين الله ، وماذاك إلا ليحمل الناس على التفكير فى هذه الأحداث ، لعلهم يهتدون إلى طريق الله ، فيتبعوا ما جاءهم به الرسول . وطبيعى أن الأحداث التى لاتؤدى إلى هذا الهـدف ـ كأخبار نشأتهم وطفولتهم وما يتعلق بعائلتهم وأشباه ذلك ـ لم يذكرها القرآن الكريم ، لأن الغرض من ذكر أحداث الأنبياء مع قومهم هو التذكير ، لا مجرد التسجيل ، فهـو ليس كتاب تاريخ ، بل هو آيات بينات ، نزلت على محمد صلى الله عليه وسلم بهداية الناس إلى الطريق المستقيم .

فاذا أردنا الحديث عما جاء فى القرآن الكريم عن نوح عليه السلام ، فليس أمامنا إلا أن نحصره فى النقاط التاليـة :

أولا : قـــوم نـوح :

عكف قوم نوح على عبادة غير الله تعالى ، فاتخذوا أصناما يعبدونها من دون الله ، وأطلقوا عليها أسماء عديدة ، منها : ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر(1) . ويروى الرواة أن هذه الأسماء كانت أعلاما لقوم صالحين ، عاشوا بين آدم ونوح ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذ ذكرناهم ، فصوروهم ، فلما مات الأتباع وأتت أجيال أخرى وسوس إليهم إبليس قائلا : إنما كان الأتباع يعبدون

هذه الأصنام وبهم يُسْقَوْن ، وما زال يوسوس لهم حتى عبدوها من دون الله .

لم ترد هذه القصة فى القرآن الكريم ، وإنما ذكرها المفسرون عند تفسيرهم قول الله تعالى حكاية على لسان نوح :

« قال نوح : رب انهم عصونى * واتبعوا من لم يزده ماله وولد إلا خسارا * ومكروا مكرا كبارا * وقالوا لاتذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا » [نوح : ٢١ - ٢٣] .

فلم يزيد القرآن الكريم على ذكر أن قوم نوح عبدوا آلهة من دون الله ، وهى : ود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا . أما كيفية تحويلهم إلى عبادة هذه الأصنام ، فلم يذكر عنها شيئا ، لأن ذكرها ليس هو المقصود ، بل المراد هو بيان أنهم ضلوا ، بأى كيفية كانت ، لأن العموم فى هذا أبلغ ، حتى يشمل كل الطرق المؤدية إلى الضلال . فما ذكره المفسرون اجتهاد ، قد يكون خطأ ، وقد يكون صوابا ، ولذا فهو غير ملزم لأحد فى مجال الفكر الإسلامى .

ثانيا : إرسال الله نوحا إلى قومه :

اصطفى الله نوحا من بين هؤلاء الناس الذين عبدوا الأصنام التى ذكرناها ، وأنزل عليه وحيه ليبلغه لهم ، كى يرجعوا عن غيهم وضلالهم ، ولكنهم تمادوا فيما هم عليه من ضلال ، فكذبوه ، بل أجمعوا على الاستهزاء به واحتقاره هو ومن اتبعه ، مستنكرين أن يختاره الله ، ويصطفيه من بينهم لهذه المهمة . وهو الفقير الذى ليس له مال ولا جاه ، ولا تتمتع أسرته بملك ، ولا سلطان . كذلك لم يتبعه سوى الضعفاء وأراذل القوم ، ولم يطعه إلا من هم فى قاع المجتمع ، الذين لا مكان لهم فى السلم الاجتماعى ، فكيف يقبلون - هكذا قالوا - المساواة مع هؤلاء فى ظل دعوة نوح ، فإن كان ولا بد من اتباعك ، فيجب أن تطرد من عندك - هكذا طلبوا من نوح عليه السلام - هذه الشرذمة الفقيرة ، حتى نحتفظ بمركزنا الاجتماعى ، فأبى نوح إجابة هذا الطلب ، موضحا لهم أنهم يجهلون طبيعة الدعوات الإلهية ، التى لاتفرق بين الناس إلا على أساس التقوى ، وأن أمثال

هؤلاء الناس هم الجنود الذين ينصرون أصحاب الدعوات الحقة فى كل العصور والأزمان .

صور القرآن الكريم هذا كله فى قوله تعالى :

« فقال الملأ الذين كفروا من قومه مانراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ، وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين * قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون * وياقوم لا أسالكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقو ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون * ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون * ولا أقول لكم عند خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذاً لمن الظالمين * » [هود : ٢٧ - ٣١] .

صور القرآن الكريم النقطة الثالثة فى مراحل دعوة نوح فى الحديث عن حواره مع قومه وحرصه على هدايتهم واجتهاده فى إقناعهم بأن الله واحد ، ومحاولاته المتكررة فى حملهم على ترك عبادة الأصنام ، واستمراره فى محاورتهم ومجادلتهم ، ينصحهم تارة ، وينذرهم أخرى .

سلك معهم كل الطرق ، سرا وعلانية ، ليلا ونهارا فلم يلينوا ، بل ازدادوا فى إعراضهم عنه ، وبعدهم عن دعوته ، فضرب لهم الأمثال ، وذكرهم بصنع الله فى أنفسهم ، وفيما حولهم من مظاهر الكون ، وفيما يخرج لهم من نبات الأرض ، فلم يزدادوا إلا عنادا واستكبارا .

وبعد أن اتضح له عدم جدوى دعوته فيهم ، طلب منهم - بعد أن أسند الأمر كله لله - أن يتشاوروا فى الأمر بينهم ، بحيث لايتخلف عن ندوة المشاورة صاحب أهمية فيهم ، وبحيث لايبقى لبس فى تقديرهم فيما انتهوا إليه من رأى ، وحينئذ يأتون إليه فى غير إرجاء .

فإن كان ما انتهوا إليه من رأى هو استمرارهم فى الكفر ، وإعراضهم عن دعوته ، فهو يعلن مخالفته لهم ، وانتماءه إلى المسلمين الذين يؤمنون بالله وحده واليوم الآخر ، وفى الوقت نفسه يصارحهم : بأنه لم يؤجر من واحد منهم على دعوته فيما بينهم هذه السنين الطوال ، بل أجره على الله وحده ، أى لم يبتغ طوال هذه المدة المساعدة على زعامة ورياسة وتحقيق جاه أو مال ، وإنما ابتغى بها إصلاح حال المجتمع ، ونقل قومه من مستوى العابثين الماديين إلى مستوى الإنسانية الفاضل ، وهو مستوى الهداية الإلهية ، وهم إذا انتقلوا إلى هذه المستوى الفاضل ، كان كافيه فى الجزاء له .

يصور القرآن الكريم هذا المعنى فى قوله تعالى :

« واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه ياقوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت ، فأجمعوا أمركم وشركاءكم ، ثم لايكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلى ولا تنظرون * فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين * » [يونس : ٧١ - ٧٢] .

وبعد أن نفدت حيلته ، ويئس من صلاحهم ، فرأى أنهم مصرون على عبادة الأوثان ، بل إنهم واجهوه بما يدل على أنه لا فائدة من استمراره فى الدعوة إلى عبادة الله :

« قالوا : يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » [هود : ٣٢] .

فحينئذ أدرك نوح أن لافائدة من نصحهم ، فرد عليهم بما قصه الله علينا فى القرآن الكريم فى قوله تعالى :

قال : إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين * ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون » [هود : ٣٣ - ٣٤] .

لكنه عند ما بلغ درجة اليأس من إيمانهم ، حزن على ما وصل إليه حالهم من

إنكار دعوة الله ، فأمره الله ألا يبتئس بعملهم ، يقول تعالى :

« وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون » [هود : ٣٦] .

وعندئذ توجه إلى ربه بالدعاء عليهم قائلا :

« رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا » [نوح : ٢٦ - ٢٧] .

كان كفاح نوح مع قومه كفاحا طويلا ومريرا ، استخدم فيه شتى الطرق: محاورات ومناقشات ، وعظة وتذكيرا بآلاء الله ونعمه ، وتحذيرا وانذارا من غضب الله إن هم أصروا على عبادة الأصنام ، وقد سجل القرآن الكريم المعالم الرئيسية لهذا كله فى سورة سماها باسمه ، إذ تدعى« سورة نوح »،وفيها يقول الله تعالى » :

« إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم * قال ياقوم إنى لكم نذير مبين * أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون * يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون * قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا * فلم يزدهم دعائى إلا فرارا وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا * ثم إنى دعوتهم جهارا ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا * فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا * يرسل السماء عليكم مدرارا * ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا * ما لكم لا ترجون لله وقارا * وقد خلقكم أطوارا * ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا * والله أنبتكم من الأرض نباتا * ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا * والله جعل لكم الأرض بساطا * لتسلكوا منها سبلا فجاجا * قال نوح رب إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا ومكروا مكرا كبارا * وقال لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ، ولا يغوث ويعوق ونسرا * وقد أضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين إلا ضلالا » [نوح : ١ - ٢٤] .

وبعد أن تبين له عدم جدوى الاستمرار فى الدعوة ، توجه إلى ربه فدعاه بأن يهلكهم فأمره بأن يصنع سفينة .

* * *

كان نوح عليه السلام حريصا على هداية قومه ، ولكنه إزاء عنادهم واستكبارهم لم يجد سبيلا أمامه سوى أن يدعو الله عليهم بأن ينزل عليهم عذابه ، حتى يكونوا عبرة لمن بعدهم ، لأن تركهم بدون عقاب مع عصيانهم وتمردهم ، سوف يعطى انطباعا للأجيال التى تأتى بعدهم بالاستهتار بدعوات الله ، وبالتمادى فى سلوك طريق الضلال ، ذلك أن ترك المفسدين فى الأرض بدون عقاب يغرى غيرهم بأن يفعلوا مثلهم ، ولهذا شرعت العقوبات فى المجتمعات البشرية ، كى تكون وسيلة لمحاربة الفساد والإفساد ، كما وعد أهل الخير والصلاح بأجر غير ممنون ، تشجيعا لهذا الاتجاه فى المجتمع . وتلك هى طبيعة الحياة البشرية ، لاتخلو من الشر ومن يروجون له ، ولا من الخير ومن يعملونه ويدعون إليه ، ولا بد أن يتفق المجتمع على عقاب الأولين حتى لايستشرى فسادهم ، فينهار المجتمع ، ويعمل على ثواب الآخرين لتقسيم الحياة ، فيعيش الإنسان فى أمن وأمان ، وسلامة واطمئنان .

فإذا تابعنا أحداث قصة نوح عليه السلام مع قومه ، فسنجد أنه دعاهم إلى الخير والصلاح فأبوا ، فدعا عليهم بالهلاك حتى لايستشرى الفساد فى الأرض ، فيكون هو القاعدة التى تحتذى ، فيعم الشر ويعلو أصحابه ، ويتراجع الخير ويختفى الداعون إليه .

سأل نوح ربه أن يهلك الضالين ، فأمره بأن يصنع سفينة ، يقول تعالى :

« واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ، ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون » [هود : ٣٧] .

وهذا إخبار بأن الماء سيغمر المنطقة التى يعيشون فيها ، ثم يستمر القرآن الكريم فى سرد وقائع هذه الأحداث ، فيقول تعالى :

« ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ، قال إن تسخروا منـا فإنا نسخر منكم كما تسخرون * فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ، ويحل عليه عذاب مقيم » [هود : ٣٨ - ٣٩] .

لم يبين القرآن الكريم دافع سخريتهم منه ، ولا سبب سخريته منهم ، لكن المفسرين قالوا : إنهم سخروا منه لأنه يتنبأ بعذاب لهم لايرونه واقعا ، وكان يسخر منهم لعدم إدراكهم أن الله يستطيع إنزال العذاب عليهم من حيث لايعلمون ، وعندئذ سوف يسخر منهم كما يسخرون منه اليوم .

وبعد أن فرغ من صنع السفينه « جاء عذاب الدنيا بإغراقهم فى فيضان عارم تسبب عن أمـطار غزيرة هطلت على الجبـال فى شمال العراق وتركيا ، وأخذت طريقها إلى الوديان والنهريات والقنوات متجهة من الشمال إلى الجنوب . ولا يتصور أثر الفيضان فى إهلاك الناس وإسقاط منازلهم ، وإتلاف محصولاتهم الزراعية ، والعمل على إنفاق مواشيهم إلا من يعيش فى بلاد جبلية ، تتخلل جبالها : الوديان ومجارى المياه التى تنشأ بحكم دفع مياه الأمطار عند انحدارها وسقوطها » تفسير سورة هود : للدكتور محمد البهى [ص ٤٢ - ٤٣] .

وعنـدما انحدرت المياه من أعالى الجبال تشقق وجه الأرض من قوة اندفاعها، فأحدثت فجوات على سطحها ، أمر الله نوحا أن يصحب معه فى السفينة ، ثلاثة أصنـاف من خلق الله : أن يصحب المؤمنـين الذين آمنوا به ، وهم قلة ، وأن يصحب معه كذلك أهله ، عدا من حرم من رحمة الله منهم ، وسبق عليه قضاء الله بذلك ، وهو الذى بقى على كفره منهم وهو ابنه . كما أمره بأن يأخذ من كل نوع مما هو موجود فى بيئته الحيوانية والزراعية ذكرا وأنثى ، لأنه لا يستطيع نقل جميع ما فى هذه البيئة ، أى أنه أمر بأن ينقل معه ما يكوّن مجتمعا بشريا مع احتياجاته فى المعيشة إلى موطن آخر يتناسل فيه من جديد ، إذ الطوفان أو الفيضان سوف لا يبقى على شىء من حرث ونسل فى بيئة قوم نوح ومكان إقامتهم . وقد عبر القرآن الكريم عن هذا فى قوله تعالى :

« حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل * وقال اركبوا فيها باسم مجريها ومرساها إنى ربى لغفور رحيم * وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ، ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين * قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء ، قال : لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين * وقيل يا أرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين * ونادى نوح ربه فقال : رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين * قال : يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ماليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين * قال : رب إنى أعوذ بك أن أسألك ماليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين * قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم * تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين » [هود : ٤٠ - ٤٩] .

ويلاحظ فى هذا النص أن الله أراد أن يبين لنا أمورا :

أولا :

المساواة فى تطبيق القانون فى المجتمع ، فلا ينبغى أن يحاسب ويعاقب عامة الشعب ، بينما تترك علية القوم يعيثون فيرتكبون الجرائم ، دون أن يوقع عليهم عقاب لقربهم من أصحاب السلطة ، فقد ترك نوح ابنه ينال عقابه مع غيره من الناس ، فلم يشفع له أنه ابن نبى ، بل حينما سأل نوح ربه فيه ، نهاه الله عن ذلك ، مبينا له أنه ارتكب إثما ، فينبغى عقابه ، مهما كانت صلته به .

ثانيــــا :

أن هذا المجتمع الجديد ، وإن كان يتألف من المؤمنين بالله ، إلا أنه سيتحول فى أجياله القادمة ، على عهود رسل أخرى ، فيضل فريق منهم عن طريق الله ، وتلك سنة الله فى خلقه ، إذ لاتظل المجتمعات على ما تنشأ عليه ، بل يحدث بها

التغيير والتبديل فى معتقداتها ، يشير إلى ذلك قوله تعالى :

« قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب اليم » [هود : ٤٨] .

فالأمم التى سيمتعها الله ، ثم يلحق بها عذابه الأليم : هى بعض الجماعات التى ستتحول من نسل هذا المجتمع الجديد فيما بعد ، الى المادية ووثنية الشرك . وهذا التحول ظاهرة اجتماعية ضرورية ، لأن الله قضى باختلاف الناس فى الكفر والإيمان إلى أن تقوم الساعة .

ثالثا :

بيان أن الله قص على محمد قصة نوح ، ليبين للناس صدقه فى دعوته ، لأنه لا هو ولا قومه ـ كانوا يعرفون شيئا عن هذه الأحداث ، وليوضح لهم أن العاقبة للمتقين الصابرين .

* * *

ثالثا : الهدف :

اهتم القرآن الكريم ببيان أباطيل المادية فى إنكار وحدة الألوهية ، والكفر بالبعث فى الحياة الأخروية ، واستعان بالتاريخ وأحداث المجتمعات المادية السابقة فى توضيح : أن عاقبة المادية فى سلوك المجتمع هى الطغيان ، وعاقبة الطغيان هى زوال المجتمع الطاغى ، وزوال زعمائه المستكبرين فى الأرض .

فلم تخل قصة من قصص الأنبياء التى وردت فى القرآن الكريم من هذا الطابع ، كذلك قامت كل القصص على بيان الأصل العام الذى تقوم عليه رسالة كل رسول فى كل العصور ، ألا وهو الدعوة الى التوحيد فى الألوهية .

كذلك وضحت وظيفته كرسول ، إذ ركزت على أنه منذر ومبلغ فقط ، وليس بملزم ولا بمكره لأحد على قبول دعوته ، وبأنه لا يطلب مالا ، ولا زعامة قومه عن طريق دعوته ، بل أجره فيها على الله وحده ، وبأنه ليس من جنس آخر غير جنس البشر ، أى ليس ملكا ، بل هو من آحاد الناس ، وبأنه لا يستطيع أن يعد

المؤمنين بأن عنده خزائن الله فيعطيهم منها ، أو عنده علم الغيب فيطلعهم عليه كما كان يدعى الكهان .

وهذه هى معالم رسالة كل رسول وردت قصته فى القرآن الكريم :

تبليغ وحى الله ، عدم إكراه أحد على الدخول فى دين الله ، إعلان أنه لايطلب مالا ولا جاها ، وأنه بشر لا يعلم الغيب ، وليس عنده خزائن الله .

كذلك تشابهت أسباب المعارضة لكل رسول ، إذ بين القرآن الكريم أن أقوام الرسل عارضوهم ، فأبوا الدخول فى دين الله محتجين على ذلك :

- بأنهم بشر مثلهم فليسوا من الملائكة .
- وبأن الذين آمنوا بدعوتهم ، هم أراذل القوم والضعفاء فى المجتمع ، فلم يؤمن برسالتهم الأشراف والوجهاء .
- وبأنه ليس لهم ما يميزهم عن قومهم ، فليسوا أصحاب جاه ، ولا من أشراف القوم ، ولا يملكون من القوة ما يستحقون به اختصاصهم بهذا الذى يدعون غيرهم إلى الإيمان به .

وضحت هذه المعالم فى قصة نوح باعتبارها أقدم قصص الأنبياء فى القرآن الكريم ، فقد ذكر أن قومه كذبوه لأمور ثلاثة :

أولا : أنه بشر وليس ملكا حتى يكون ذلك أمارة على أنه مرسل من عند الله إليهم ، إذ كونه بشرا يبعد صلته بالله .

ثانيا : أن الذين آمنوا برسالته هم من العامة ، هم من الأراذل الذين من شأنهم ألا يكون لهم رأى ، ولذا ليس لهم وزن يذكر ، إن هم قدروا رسالته ، أو آمنوا بها . وإيمانهم بها ليس دليلا اذن على رجحانها وسلامتها للمجتمع ، فهم ليسوا أصحاب مصلحة فيه ، ولا أصحاب رأى يؤخذ به فى شئونه .

ثالثا : أن نوحا نفسه من آحاد الناس فى المجتمع ، ولذا لايفضلهم بزعامة أو بثراء ، أو بقوة مادية ، إذا قام وتصدى لنقد الوضع فى مجتمعهم ، وطالب بتغييره من الأساس الذى قام عليه ، وهو أساس الشرك .

ثم توضح قصة نوح أسس نجاح رسالة أى رسول ، وهى :

- المثابرة فى تبليغ الدعوة ، فلا تهاون ولا كسل ، بل جد واجتهاد ، وسلوك كل الطرق ليصل صوته إلى كل أذن فى المجتمع .

- الصبر والتحمل فى سبيل الدعوة ، مهما كانت صور العقبات فى طريقها ، ومهما كانت السخرية من المعارضين لها ، ومهما ألبوا أو تآمروا عليه .

والصبر ليس استكانة ، ولا انتظارا سلبيا لما يأتى به الغد القريب أو البعيد ، وإنما هو الوقوف فى ثبات فى جانب الرسالة ، والتحرك فى تؤدة لدفعها إلى الأمام ، وعدم الخضوع ليأس أو إرهاب وتخويف من عدو .

- الكفاح فى سبيل الدعوة ، إذ هو لايقل شأنا عن حقيقة الدعوة نفسها ، فالحق لايقوم وحده ، بل لابد من أن يبذل أصحابه مالا وجهدا لإقراره فى الأرض ، وللدفاع عن وجوده .

وأخيرا وعد القرآن الكريم - فى ثنايا قصة نوح - من يدعون إلى الله ، ويتقونه - فيقاومون الأوضاع النفسية التى توحى بها أية حرب نفسية من أى لون يثيرها أعداء الدعوة - بأن يكون لهم الأمر وحدهم .

كانت رواية القرآن الكريم لقصة نوح عليه السلام إنباء محمد بالغيب الذى كان يضرب بجذوره فى أعماق الماضى السحيق ، ليثبت لأهل مكة أنه رسول الله ، أرسله الله ليبلغ وحيه للناس ، ولذلك جاء التركيز على رواية العناصر الأساسية فى شخصية الرسول ومهمته ، والمعوقات الت حالت دون إيمان قومه بدعوته ، ضاربا الصفح عن كل الأحداث التى لا أهمية لها فى هذا المجال ، فلم يذكر مدى ارتفاع الماء كما ذكرت التوراة ، ولم يتحدث عن المدة التى مكث فيها منسوب الماء

الرى

عاليا ، إلى أن ابتلعته الأرض ، فهبط مستوى سطحه ، كما تحدثت التوراة عن ذلك ، ولم يتعرض لبيان أن الطوفان عم جميع الكرة الارضية ، أم اقتصر على المنطقة التى كان يعيش فيهـا قوم نوح ، لأن كل هذه وأمثـالها أحداث لا تدخل فى معرض الحـديث عن المعالم التى تشترك فيها كل الرسالات ، فَسرْدها لا أهمية له فى اقناع الناس ، وحملهم على ترك ما هم عليه من ضلال ، حتى لا يتسبب فسادهم فى انهيار مجتمعهم .

هـود عليه السـلام :

اعتاد الانسان عند التصدى للبحث فى تاريخ شخصية ما ، أن يتتبع شجرة نسبه أولا ، ثم يلقى الضوء على تاريخ أسرته ، فإذا كان العصر الذى عاشت فيه تلك الشخصية مغرقا فى القدم ، فلا تخرج مصادر تاريخه عن :

- الحفـريات .
- أو الكتب المقدسـة .
- أو ما تتنـاقله الاجيال شفـاهـة ، ويدخـل فى ذلـك الأسـاطير والملاحم الشعبية . ويعتمد المؤرخ على هذه المصادر مجتمعة ، لكن الحديث عن هود عليه السلام لايجد من الحفريات ما ينبىء عن تاريخه ، ولا عن موطنه ، غير أن البـاحثـين ذكـروا أن مسـاكن عاد، وهم قوم هود كانت فى أرض الأحقاف ، وهى تقع فى شمال حضرموت ، وفى شمالها الربع الخالى ، وفى شرقها عمان ، وموضع بلادهم اليوم رمال ، ليس بها أنيس ، إذ خربت بعد أن كانت مكسوة بالجنات الفيحاء ، وبالمراعى التى ترعى فيها الأغنام ، ومزينة بالمصانع التى ظن أصحابها أنها ستبقى أبد الدهر .

ولم تحرك هذه الإشارة إلى مساكنهم أحدا من الباحثين والمنقبين إلى الكشف عن بلادهم ، والتنقيب فى أرضهم ، فلا أحد يدرى ما تخبئه تلك الرمال ، لعل تحتها ثروة علمية ، لو كشف عنها لكانت عظيمة القيمة فى عالم الآثار ، ولألقت الضوء

على مساكن هؤلاء القوم ، خاصة وأن هناك ما يدل على إمكانية وجود آثار فى تلك المنطقة ، فقد أخبر أحد سكان حضرموت المجاورة لتلك المنطقة: أنه قام فى جماعة إلى إحدى المدن البائدة فى شمال حضرموت ، ونقب عنها ، فعثر على بعض الآنية من المرمر، عليهاكتابة بالخط المسمارى ، ثم ترك التنقيب لمضايقة البدو له وإثقال كاهله بالمطالب المالية .

إذاً فالحفريات ليست مصدرا من مصادر تاريخ هود وقومه ، كذلك لم يذكر شىء عن هود ولا عن قومه عاد فى الكتب المقدسة سوى القرآن الكريم ، وليس بيد أحد من الناس وثائق يعول عليها فى استقصاء أخبارهم ، فلم يبق سوى القرآن الكريم .

غير أن المؤرخين أضافوا أشياء إلى ما جاء فيه عن قبيلة عاد ، فقالوا إن عادا اسم لقبيلة ، قيل : إنه اسم عربى ، وقيل : إنه أعجمى ، كما ذكروا نسب هود فقال بعضهم : إنه ابن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام ، وذكر آخرون شجرة نسب غير هذه، كما أدخلوا فى قصته أشياء لم يتحدث عنها القرآن الكريم ، وكانت مصادرهم فى ذلك المرويات المنقولة عن طريق السماع ، فهى لاترقى إلى مصاف الأخبار الموثقة علميا .

ولما كانت هذه أمور لاتدخل فيما يهدف إليه القرآن الكريم من قص ما حدث بين الأنبياء السابقين وبين أقوامهم ، فلم يذكر شيئا عن نسب هود ، إلا أنه من قوم عاد ، وذلك فى قوله تعالى :

« **وإلى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره** » [الأعراف : ٦٥] .

كذلك لم يبين مكان مساكنهم إلا فى موضع واحد بطريقة مختصرة عند قوله تعالى :

« **واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف** » [الاحقاف : ٢١] .

فدل ذلك على أنهم كانوا يسكنون المكان الذى عرف بهذا الاسم ، وهو فى جنوب الجزيرة العربية .

أما الحديث عن أحوالهم التى تتصل اتصالا مباشرا بالدعوة ، فقد ذكرها القرآن الكريم ، بيانا لما كانوا عليه من نعم ، أنعم الله بها عليهم ، ومع ذلك كفروا بأنعمه ، وجحدوا آياته ، واستكبروا على تلبية الدعوة التى دعاهم هود إليها ، إذ جاء فى القرآن الكريم : ذكر مساكنهم ، وأحوالهم ، وضخامة أجسامهم وقوتها ، وما كانوا يتمتعون به من خصب ورغد فى العيش . كما أخبر عن عنادهم فى البقاء على الكفر وعبادة الأوثان ، وبيّن فسادهم فى الأرض ، وتماديهم فى التشبث بعبادتهم الباطلة ، على الرغم مما بذله هود فى سبيل هدايتهم ، وإنقاذهم مما هم فيه من ضلال الاعتقاد ، وفساد السلوك ، وما قابلوه به من العناد والسخرية والاستهزاء ، إلى أن أذن الله بهلاكهم فهلكوا .

جاء ذكر اسم هود فى القرآن الكريم سبع مرات (فى سورة الاعراف فى الآية ٦٥ ، وفى سورة هود فى الآيات : ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٨٩ ، وفى سورة الشعراء فى الآية ١٢٤) . كما ذكر اسم قوم عاد ٢٤ مرة (جاء اسمهم فى ١٤ موضعا فى معرض سرد أسماء الأقوام السابقين الذين كذبوا رسلهم ، وفى عشرة مواضع تحدث عنهم بإسهاب) ، أما اسم المكان الذى سكنوا فيه ، فلم يذكر إلا مرة واحدة فى الآية ٢١ من سورة الأحقاف . كذلك لم يحدد القرآن الكريم الزمن الذى عاش فيه هود وقومه ، غير أنه أشار إلى أنه كان بعد نوح ، وذلك فى قوله تعالى :

« **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح** » [الأعراف : ٦٩] .

ولم يطل الحديث عن أخبار هود إلا فيما يتعلق بالدعوة ، وذلك للعظة والاعتبار .

* * *

لم تخرج رسالة هود فى خطوطها الرئيسية عن رسالة أى رسول ، بعث إلى الناس

ليبلغهم وحى الله ، إذ أنـه يدعو إلى عبادة الله وحده ، وترك عبادة الأصنام ، ويدلـل لهم على أحقية عبـادة الله ، بأنـه أنعم عليهم نعمـه ظاهـرة وباطنة ، وفى أنفسهم ، وفيما يتمتعون به من أشياء مادية ، كما يحذرهم من عواقب طغيانهم واستكبارهم ، وينذرهم بعذاب أليم ، ان هم تمادوا فى غيهم ، فعبدوا غير الله ، واستمروا فى طغيانهم ، فظلموا المستضعفين واستغلوا العامة ، فسلبوهم حق الحياة الحرة الكريمة .

جاءت أخبار هود متناثرة فى كثير من سور القرآن الكريم وآياته ، غير أن هناك سورة عرفت باسمه ، فسميت : « سورة هود » ، وليس معنى تسميتها باسمه أن كل ما جاء فيها عنه ، بل ذكر فيها أيضا أخبار أنبياء آخرين مثل : نوح ، وصالح وإبـراهيم ، ولوط ، وشعيب . وقد جاء ذكر هؤلاء الرسل فى هذه السورة عقب عرض ما سوف يئول إليه حال المكيين المعارضين لمحمد صلى الله عليه وسلم ، إذ سوف يعـاقبهم الله على شركهم ، وإنكـارهم وحدة الألوهية . كأنه يريد أن يذكرهم بالمصـير الذى صارت إليه بعض المجتمعات ، بعد ما عارضوا رسالة الرسل الذين أرسلوا اليهم .

فماذا جاء فى سورة هود عما دار بينه وبين قومـه ؟

يقول تعالـــــى :

« وإلى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون * ياقوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتـولوا مجرمين * قالوا ياهود ماجئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ومانحن لك بمؤمنين * إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لاتنظرون * إنى توكلت على الله ربى وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم * فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربى قوما غيركم

ولا تضرونه شيئا إن ربى على كل شىء حفيظ * ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ » [هود : ٥٠ - ٥٨] .

كذلك جاء الحديث عنه فى سورة الأعراف، فذكر دعوته ، ورميهم إياه بالسفاهة ، ورده المؤدب عليهم بأنه ليس به سفاهة ، ولكنه رسول من رب العالمين، ليبلغهم رسالة ربهم ، وما كان الله ليرسل إلى عباده بسفيه ، إذ يكون الضرر برسالته أكبر وأعظم من النفع ، فيقول تعالى :

« وإلى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره أفلا تتقون * قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين * قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين * أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين » [الاعراف : ٦٥ - ٦٨] .

كما ذكَّرهم فى سورة الشعراء بالنعم التى ينعمون بها ، سواء كانت مبانى ، أو مصانع، أومراعى وجنات وعيون ، وأبدى لهم خوفه عليهم بأن يأتيهم عذاب عظيم يقضى عليهم وعلى ما شيدوه من حضارة ، يقول تعالى :

« كذبت عاد المرسلين * إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله واطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين * أتبنون بكل ريع آية تعبثون * وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون * وإذا بطشتم بطشتم جبارين * فاتقوا الله وأطيعون * واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون * أمدكم بأنعام وبنين * وجنات وعيون * إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم * فكذبوه فأهلكناهم إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين »
[الشعراء : ١٢٣ - ١٢٩] .

ويبين فى سورة فصلت مدى اعتدادهم بقوتهم ، موضحا أن هذه القوة لم تحل بينهم وبين ما أصابهم بريح عاتية : سلطها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فأهلكهم الله وأبادهم ، فصارت أجسامهم كأنها أعجاز نخل منقعر ، يقول تعالى :

« فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ، أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون * فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون » [فصلت : ١٥ - ١٦] .

ويقول فى سورة الحاقة :

« وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية * سخرها عليهم سبع ليال ، وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية * فهل ترى لهم من باقية » [الحاقة : ٦ - ٨] .

فملخص قصة هود مع قومه فى القرآن الكريم : أن عادا كانت تقيم بالأحقاف فى رغد من الحياة بين المزارع والبساتين والقصور ، لكنهم عثوا فى الأرض ، فأذل القوى منهم الضعيف ، وبطش الكبير بالصغير ، وعبدوا الأوثان والأصنام ، فأرسل الله اليهم هودا ليهديهم الى الطريق المستقيم ، فأعرضوا عنه ، ورموه بالسفاهة وحماقة الرأى ، واستهزءوا بما يخبرهم به بسوء المصير عقابا لهم على هذا الفساد الذى هم فيه ، فاستمروا فى إصرارهم على عبادة الأوثان وظلم الضعفاء ، فأرسل الله عليهم ريحا أهلكتهم وتركتهم صرعى ، أما هود ومن آمن معه فاحتموا بمكان يمنع وصول الريح اليهم ، وظلوا فيه حتى هدأت الريح وصفا الجو فخرج من مخبئه ، وقضى البقية الباقية ، من عمره مع من آمن برسالته .

وجاء ذكر القصة فى القرآن الكريم، ليعتبر بها أولئك الذين يعيثون فى الأرض فسادا ينهبون أموال الناس ، ويستغلون الضعفاء، ولا يرحمون المسالمين ، لعلهم يتعظون بها ، فيرجعوا عن غيهم وفسادهم .

صالح عليه السلام :

ينبئنا تاريخ الأديان أن الأمم لم تحافظ على تراثها الدينى، كما تركه لهم أنبياؤهم ، بل غيروا فيه وبدلوا ، ولم يقتصر التغيير على الفروع والمبادىء الثانوية ،

بل وصل إلى أصل الرسالة نفسها ، ألا وهو التوحيد ، فنلاحظ مما قصه علينا القرآن الكريم من أنباء الرسل السابقين : أنهم بعد أن يبذلوا جهدا كبيرا فى إقناع قومهم بصدق رسالتهم ، دون أن يؤمن بها إلا القليل ، يرسل الله عذابا يأخذ من أنكر الرسالة فظل على كفره وعناده ، فلا يبقى مع الرسول إلا من آمن معه ، يكونون نواة المجتمع الصالح ، الذى يقوم على أساس توحيد الألوهية ، وطاعة الله فى السلوك الاجتماعى ، ومراعاة ما أنزل الله على الرسول فى تنظيم العلاقة بين الناس فى المجتمع .

لكن بعد أن يرحل الرسول عن الحياة الدنيا ، وتطوى عجلة التاريخ مسافة طويلة من الزمن ، تتعاقب فيها الأجيال ، وتتغير أحوال المعيشة ، وتتبذل نفوس الناس ، يتسرب الضعف الى العقيدة ، والوهن إلى الحبال التى تربط النفوس بما خلفه لهم آباؤهم وأجدادهم من مبادىء دينية ، وتعاليم روحانية ، فتفقد قداستها ، وتنزل من عليائها ، فلا يهتم بها أحد ، ولا يحافظ على بقائها إنسان ، فتضيع معالمها فى طيات الزمن ، وتفقد أهميتها بين ما طفا على سطح الحياة من مبادىء احتلت مكانتها ، وتبوأت مقعدها ، فأصبح الناس لا يعرفون عن المبادىء التى تعلمها أجدادهم من الأنبياء شيئا ، لأن الجديد حل محلها ، فأزاحها إلى وادى النسيان ، وطمسها فى أعماق الجحود والنكران ، وأهال عليها من التراب ما يحتاج إلى إعادة الكرة مرة أخرى ، لتذكير الناس بما كان عليه الأجداد مع أنبيائهم . واقتضى هذا أن يرسل الله رسولا ليصحح ما غيرته الأجيال ، وليوضح ما طمسته رياح التغيير والتبديل ، وما مسخته العقول الضعيفة ، والتصورات المريضة .

وأصدق مثل على هذا ما حدثنا به القرآن الكريم عن عاد وثمود ، إذ بعد ما أهلك الله عادا بذنوبها ، وأورث ثمودا أرضهم وديارهم ، فخلفوها فيها ، وعمروها بالزراعة ، وغرس الحدائق والبساتين ، وبنيت البيوت فى الجبال ، نسوا رسالة هود ، فضلوا طريق الله واتبعوا طريق الضلالة ، إذ عبدوا الأوثان من دون الله ، وأشركوا به ، وأعرضوا عن آياته ، فبعث الله صالحا إليهم ، إذ يقول فى كتابه

الكريم :

« وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلـٰه غيره » [الاعراف : ٧٣] .

فعبر بالأخوة ليشير إلى وشائح النسب ، وصلة القربى بينه وبينهم ، فهم أهله وأبناء عمومته ، ولا يمكن أن يأتى لهم إلا بما فيه نفعهم ، ولا يدعوهم إلا إلى ما فيه خيرهم ، إذ ليس من المعقول أن يضمر لهم سوءا ، وهم من لحمه ، أو يريد بهم شرا ، وهم أبناء عمومته .

كما ذكرهم بأن الله جعلهم خلفاء من بعد قوم عاد ، فلا ينبغى أن يحيدوا عن رسالة الله التى بلغها هود إلى أجدادهم قوم عاد . وأسبغ عليهم نعمه ، فيجب أن يشكروه ولا يفسدوا فى الأرض ، يقول تعالى :

« واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا ، وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » [الأعراف : ٧٤] .

فكذبوه ، فذكرهم بعاقبة الإفساد فى الأرض ، فرموه بالسحر ، يقول تعالى :

« كذبت ثمود المرسلين * إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين * أتتركون فيما هاهنا آمنين * فى جنات وعيون * وزروع ونخل طلعها هضيم * وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين * فاتقوا الله وأطيعون * ولا تطيعوا أمر المسرفين * الذين يفسدون فى الارض ولا يصلحون * قالوا إنما أنت من المسحرين * ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين » [الشعراء : ١٤١ - ١٥٤] .

كما احتجوا على عدم اتباعهم له فيما يدعوهم إليه بأنه بشر ، فيقول تعالى :

« كذبت ثمود بالنذر . فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذاً لفى ضلال وسعر . أألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر . سيعلمون غداً من الكذاب

الأشر » [القمر : ٢٣ - ٢٦] .

وعليه فلم يرسل الله رسولا إلا بعد أن ضاعت معالم رسالة الرسول السابق ، فقد جاء صالح ، بعد أن نسىَ أهله رسالة هود، فعثوا فى الأرض فسادا ، وكفروا بما أنعم الله عليهم من مال ومتاع ، فذكرهم بنعم الله التى تستوجب عليهم شكره وعبادته ، فعارضوه ، ورموه بالسحر ، واحتجوا عليه بأنه بشر ، فالله - حسب رأيهم - لايبعث بشرا رسولا ، وطالبوه بدليل على صدق دعواه .

دعا صالح قومه إلى عبادة الله ، وحضهم على توحيده ، مذكرا إياهم بأنه هو الذى مكنهم من عمارة الأرض ، فهو أحق بالطاعة . كما طلب منهم أن يتوجهوا إلى الله بالمغفرة على مامضى فى اعتقادهم فى آلهتهم المزعومة . . أو فى سلوكهم العابث ، وأن يعودوا إليه ، مطيعين إياه وحده ، وحثهم على إقرار العدالة فى الأرض، فلا ينبغى أن يستأثر أقوياؤهم بالمراعى ،دون الضعفاء ،إذ تقضى العدالة أن تكون ثروات الأرض وخيراتها للجميع ، فلا يحتكرها فريق: وهم الأقوياء ، ويحرم منها آخر : وهم الضعفاء .

كان صالح حريصا على هداية قومه ، فسلك طرقا مختلفة لإقناعهم بدعوته ، إذ بَيَّن لهم أنه منهم ، ولا يمكن له إلا أن يريد ما ينفعهم ، وذكرهم بآلاء الله ونعمه وبعذابه وغضبه على من يعصاه ، ومع ذلك لم يؤمن به إلا بعض المستضعفين من قومه ، أما المستكبرون فأصروا على عنادهم ، وتمادوا فى طغيانهم ، واستمسكوا بعبادة الأوثان . فوقع جدال بين الفريقين ، صوره القرآن الكريم فى قوله تعالى :

« ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فإذا فريقان يختصمون * قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون » [النمل : ٤٥ - ٤٦] .

وقوله :

« قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون

أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون * قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون » [الأعراف : ٧٥ - ٧٦] .

كما ذكر القرآن الكريم أنهم طلبوا منه آية ، فأتى لهم بناقة ، وبين لهم أن لها يوما فى ورود الماء ولهم يوم ، فقال تعالى :

« ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين * قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم * ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم » [الشعراء : ١٥٤ - ١٥٦] .

وتصف سورة هود الناقة ، بأنها ناقة الله ، وأن صالحا طلب منهم أن يتركوها ترعى ، علاوة على اليوم الذى لها فى ورود الماء ، فيقول تعالى حكاية عما قاله صالح لهم :

« ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب » [هود : ٦٤] .

ولما كانت لفظ « آية » فى القرآن الكريم تفيد معنى « معجزة » ، فقد أثار وصف الناقة بأنها آية جدلا كبيرا بين علماء المسلمين ، فذكر بعضهم أربعة أقوال فى كونها آية :

الأول : أنها كانت آية بسبب خروجها من الصخرة .

الثانى : أنها كانت آية بسبب أنه كان لها شرب يوم ، واستيفاء ناقة شرب أمة عجيب .

الثالث : أنهم كانوا يحلبون منها القدر الذى يقوم لهم مقام الماء فى يوم شربهم .

الرابع : أن جميع الحيوانات كانت يوم مجيئها للماء تمتنع من الورود على الماء ، وكان يوم امتناعها تأتى (أى جميع الحيوانات) الماء .

لكن الإمام الرازى (وهو من قدامى المفسرين) يرى : أن القرآن الكريم ذكر أنها آية ، ولكن لم يبين وجه كونها آية ، ولذا فإن ما يقوله العلماء هو أقوال ظنية

لاتفيد اليقين ، فلا يمكن أن نحمل القرآن الكريم ما لم يفصح عنه ، غير أن أقرب تفسير لكونها آية ما قاله الدكتور محمد البهى (وهو من كبار المفكرين المسلمين فى القرن العشرين) ، ونص ما قاله : « وضعهم صالح مع الاختبار العملى فى طاعة الله . فأتى إليهم بناقة ، وطلب إليهم أن يتركوها تأخذ حصتها فى المراعى والمياه . كما يأخذون هم لإبلهم حصصها ، فإن تركوها تصنع ذلك كان تركهم إياها دليلا على طاعة الله فى تطبيق العدل بين كبرائهم وضعفائهم فى المشاركة فيما هو مباح للجميع ، وهو المراعى والمياه . وإن هم ظلوا واقفين عند استبدادهم بالمراعى والمياه لإبلهم وحدها ، كان ذلك آية على استمرارهم على الظلم والعصيان لرسالة الله ، وحذرهم من استمرارهم على الظلم . وجاء التحذير فى ختام الآية فى قوله تعالى :

« ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب » .

ومعنى كون الناقة آية لثمود : أنها اختبار وفتنة لهم . كما صرح فى قوله تعالى فى سورة القمر :

« إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر * ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر » [القمر : ٢٧ - ٢٨] .

والناقة اذن لم تكن من نوع خاص ، ولا يخرج وضعها عن أن تكون محل الاختبار فى موقفهم العملى من رعاية حقوق الضعفاء الآخرين . [تفسير سورة هود : ص ٦٠] .

لم ينجحوا فى الاختبار الذى وضعهم فيه صالح ، فعقروا الناقة ، وقتلوها على الرغم من تحذيرهم بالعذاب ، وتوعدهم بالهلاك ، إن مسوها بسوء :

« ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب » .

لكنهم لم يأخذوا هذا التحذير مأخذ الجد ، فلما قتلوها أنزل الله عليهم عقابا ، وذلك بتدمير ديارهم بالصاعقة ، يقول الله تعالى :

« وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب

الهون بما كانوا يكسبون * ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون » [فصلت : ١٧-١٨] .

وقد عبر الله عنها تارة بالرجفة فيقول :

« فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين » [الأعراف : ٧٨] .

وتارة بالصيحة فيقـــول :

« فأخذتهم الصيحة مصبحين » [الحجر : ٨٣] .

وكـلٌّ صحيح ، لأن الصـاعقـة تكون مصحوبة بصوت عظيم ، وقد تكون مصحوبة برجفة أشبه بالزلزال ، وقد تكون فى مكان ويطغى تأثيرها حتى يصل إلى مكان آخـر .

فلو أردنا نسج عقد للأحداث التى دارت بين صالح وثمود ، لبدا لنا على هذا النحو : ضلال قوم ثمود وطغيانهم استدعى إرسال الله صالحا إليهم ، فبلغهم رسالة ربه ، وذكرهم بقرابته لهم ، وبنعم الله عليهم ، فلم يؤمن به إلا بعض المستضعفين ، أما المستكبرون فرموه بالسفه ، وطلبوا منه آية ، فأتى لهم بالناقة ، فعقـروهـا ، فأرسل الله عليهم صاعقة أهلكتهم ، ونجى الله صالحا ومن آمن معه ، يقول تعالى :

« فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا » [هـود : ٦٦] .

ويقـــول :

« وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون » [النمل : ٥٣] .

ولا زالت آثار ديارهم باقية ، يقول تعـالى :

« فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون » [النمل : ٥٢] .

ولما رأى صالح ما حل بهم ، إذ أصبحت جثثهم هامدة ، وديارهم خاوية تولى عنهم ، وقلبه ينقطع أسى وحسرة عليهم ، وقال :

« يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين » [الأعراف : ٧٩] .

وهـذا تذكـير وإنـذار لكل من لا يسمع لدعوات المصلحين ، كى يراجعوا

مواقفهم لعلهم يهتدون ، فينقذوا أنفسهم من مثل هذا المصير .

إبراهيم عليه السلام :

لقب إبراهيم عليه السلام فى مجال تاريخ الأديان بأنه : « أبو الانبياء » ، لأن كل الأنبياء الذين جاءوا من بعده كانوا من نسله ، كما ذكرت له التوراة سلسلة نسب حتى نوح عليه السلام ، وفصلت كتب التاريخ فى الحديث عنه ، بحيث أخذ منها مساحة أكبر مما أخذه أى نبى آخر ، فتحدثت عن نسبه ، ونسب أبيه ، ورحلته إلى « أورالكلدانيين » ، وحران ، ومصر ، بل إنها حددت أزمان تلك الرحلات بولاية الملوك التى كانت فى ذلك الوقت .

ولكن القرآن الكريم لم يتحدث عن إبراهيم إلا فى حدود دعوته إلى التوحيد، وجداله مع المشركين حول قضايا العقيدة ، وما يتصل بالدعوة الى الله اتصالا مباشرا ، بحيث يكون فى ذكره فائدة فى مجال المحاورات والمناقشات مع المعاندين لدعوة الله ، أو يستحق أن يضرب عند تذكير الناس بما حدث مع الأنبياء السابقين .

وتتلخص الصورة التى يمكن أن يستخلصها المرء مما ذكر عن إبراهيم فى القرآن الكريم فى أنه شب بين قوم يعبدون الأصنام ، فأنكر عليهم إبراهيم ذلك ، وبيّن لأبيه وقومه فى معرض مناقشتهم حول عدم أحقية هذه الاصنام للعبادة ، ومدى الضلال فى أن يعبد الإنسان هذه التماثيل التى لاتنفع ولا تضر ، فقال تعالى :

« ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكُنَّا به عالمين * إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون * قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين * قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين * قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين * قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين » [الأنبياء : ٥١ - ٥٦] .

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى أن القرآن الكريم لم يذكر نسبا لأى نبى ، وما ذكر

هنا من التصريح بأن إبراهيم خاطب أباه ، لايتعدى هذا اللقب ، فلم يذكر اسم أبيه ، ولا نسبه . وما قيل من أن كلمة : « آزر » هى اسم أبيه ، فلا يوجد دليل قاطع على هذا الرأى ، لأن من العلماء من قال : إن هذا الاسم علم على صنم من الأصنام التى كانوا يعبدونها ، وليس اسما لأبى ابراهيم ، وفسر الآية على هذا النحو : وإذ قال ابراهيم لأبيه : أتعبد آزر ؟ فكأن هنا فعلا محذوفا ، وحذف الفعل وبقاء المفعول قاعدة نحوية صحيحة فى اللغة العربية ، وعليه فلم يخرج القرآن الكريم عن منهجه بالنسبة لذكر نسب الأنبياء السابقين ، فلم يذكر شيئا عن نسب أحد منهم ، لأن النسب لاصلة له بالدعوة ، ولا يفيد فى التذكير بما حدث للأنبياء السابقين .

ويستمر إبراهيم عليه السلام فى مناقشة قومه فى عدم أحقية هذه الأصنام فى العبادة ، فيقول موجها الخطاب لأبيه :

« يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا * يا أبت إنى قد جاءنى من العلم مالم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا * ياأبت لاتعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا * ياأبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا * قال أراغب أنت عن آلهتى باإبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا * قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان به حفيا * وأعتزلكم وما تدعون من دون الله ، وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا » [مريم : ٤٢ - ٤٨] .

ويحكى القرآن الكريم لنا أنه سلك طريقا أخرى فى الاحتجاج لدينه ، وتزييف دين قومه ، وذلك أنه اتبع أسلوب التدرج فى محاجاتهم ، فقد رأى أن قومه ينحتون الأصنام ، ويطلقون عليها أسماء الكواكب كالشمس والقمر ونحوهما ، فأراد أن يبين لهم أن الكواكب والشمس والقمر لا تصلح لأن تكون آلهة ، وإنما الإلٰه هو الذى خلقهن وخلق السموات والأرض ، وبيده ملكوت كل ما فيها ، يقول تعالى حكاية عما دار بينه وبين قومه فى هذا الصدد :

« وإذ قال إبـراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين * وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين * فلما جن عليه الليل رآى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين * فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين * فلما رآى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركـون * إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وماأنا من المشركين * وحاجه قومه قال أتحاجونى فى الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شىء علما أفلا تتذكرون * وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون * الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون * وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم » [الأنعام : ٧٤ - ٨٣] .

وحـين ظهر له أن هذا الأسلوب فى النقاش لم يأت بنتيجة ، فكر فى طريقة عملية يفهم بها قومه مركز هذه الآلهة التى يعبدونها ، ويقيم لهم الحجة عمليا على أنها لا يمكن أن تلحق بهم أذى ، إذا تركـوا عبـادتهـا ، أو تكسبهم خيرا إذا عبدوها ، لأن البرهان العملى أوقع فى النفس وأرجى أن يحرز القبول ، ففكر فى تكسير الأصنام ونفذ فكرته ، يقول تعالى حكاية عما دار فى نفسه :

« وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين » [الأنبياء : ٥٧] .

ثم بين تنفيذه للفكرة ، فيقول :

« فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون » [الأنبياء : ٥٨] .

ويحكى رد الفعل عند قومه فيقول :

« قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين * قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون * قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم » [الأنبياء : ٥٩ - ٦٢] .

وهنا سنحت الفرصة ليبين لهم أن هذه الآلهة أحجار صماء ، فرد عليهم باستهزاء :

« **بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون** » [الأنبياء : ٦٣] .

فأحدثت هذه الحجة أثرا فى نفوسهم ، عبر عنه القرآن الكريم فى قوله تعالى :

« **فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون** » [الأنبياء : ٦٤] .

غير أنه سرعان ما وسوست لهم نفوسهم الضعيفة ، فدفعتهم إلى تصرف عكسى :

« **ثم نكسوا على رؤسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون** » [الأنبياء : ٦٥] .

وفى هذه اللحظة وجد إبراهيم الفرصة ملائمة ليقيم عليهم الحجة ، فقال :

« **أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولايضركم * أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون** » [الأنبياء : ٦٦ - ٦٧] .

غير أن أهل الكفر والضلال يلجأون إلى القوة، عندما يهزمون فى مجال المحاورات الفكرية ، لأنهم يندفعون إلى تغطية عجزهم الفكرى باستعراض العضلات ، حتى يسكتوا الصوت الذى هزمهم فى ساحة المناقشات والمحاورات ، فقال :

« **حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين** » [الأنبياء : ٦٨] .

ولكن الله حفظه ، فنجاه من هذا الكيد الذى كادوه له ، يقول تعالى مبينا ذلك للناس ، حتى يعلموا أنه ينصر المؤمنين ويحفظهم من السوء ، ما داموا مخلصين فى دعوته :

« **قلنا يانار كونى بردا وسلاما على إبراهيم * وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين** » [الأنبياء : ٦٩ - ٧٠] .

يتضح من حديث القرآن الكريم عن إبراهيم عليه السلام : أنه كانت له مواقف متعددة مع قومه ، إذ أنه سلك طرقا مختلفة فى النقاش معهم حول العقيدة ، ليبين لهم ماهم عليه من ضلال ، حين يتوجهون بالعبادة إلى أصنام لاتضر ولا تنفع ، بل هى لا تستطيع الدفاع عن نفسها ، فيذكر القرآن الكريم

جانبا من نقاشه مع والده ، ومع قومه ، كما يوضح أنه ناقش أحد الملوك أيضا ، فيقول :

« ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لايهدى القوم الظالمين » [البقرة : ٢٥٨] .

لكنه لم يبين أى ملك هذا ؟ وأين كان ؟ وكيف وصل إبراهيم إليه ؟

غير أن المفسرين وغيرهم من علماء النسب والأخبار قالوا : إن هذا الملك كان ملك بابل ، وأن إبراهيم حين تبرأ من أبيه ، ولم يطب له المقام بين أهله وقومه ذهب إلى « أور الكلدانيين » ، وهى مدينة كانت قرب الشاطىء الغربى للفرات ، وهناك دعا إبراهيم إلى عبادة الله وحده لاشريك له ، وحدث أن الملك كان عنده طعام ، وكان الناس يفدون إليه لينالوا شيئا من هذا الطعام ، فوفد إبراهيم فى جملة من وفد ، فوقعت بين الملك وبينه هذه المناظرة التى تحدث عنها القرآن الكريم .

وما يقوله علماء التفسير والتاريخ إنما هو تعبير عن رأيهم هم ، وهو رأى يحتمل الخطأ والصواب ، فليس هناك دليل يؤكد أن هذه القصة صحيحة ، أو أن هذا هو الملك المقصود فى الآية ، ولم يذكره القرآن الكريم ، لأنه لافائدة من ذكره فى مجال الحوار حول مسائل العقيدة .

وهناك صور أخرى متعددة عن حوار إبراهيم مع من دعاهم إلى الإيمان بالله وحده ، ففى سورة الصافات يحكى القرآن الكريم مشهدا من هذه المشاهد فيقول :

« وإن من شيعته لإبراهيم * إذ جاء ربه بقلب سليم * إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون * أئفكا آلهة دون الله تريدون * فما ظنكم برب العالمين * فنظر نظرة فى النجوم * فقال إنى سقيم * فتولوا عنه مدبرين * فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون * ما لكم لا تنطقون * فراغ عليهم ضربا باليمين * فأقبلوا إليه يزفون *

قال أتعبدون ما تنحتون * والله خلقكم وما تعملون * قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم فأرادوا به كيـدا فجعلناهم الأسفلين * وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين » [الصافات : ٨٣ - ٩٩] .

فهذه الآيات تدل على أنهم كانوا يقدمون لآلهتهم طعاما ، فسخر منهم بأن هذه الآلهة لا تأكل ، ويحمل هذا ضمنا أن الطعام يذهب إلى أناس آخرين ، لأنه مادامت الآلهة ليس من طبيعتها الأكل ، فما لاشك فيه أن الكهنة هم الذين يأخذونه ، ويوهمون الناس بأن الطعام للآلهة ، ولم يكن إلا لهم ، لذا ينبغى على من يقدم الطعام أن يتذكر أن الآلهة لا تأكل ، ويفكر فى المصب الذى يذهب إليه هذا الطعام المقدم لها .

ويحكى القرآن الكريم فى سورة الشعراء مشهدا آخر من حوار إبراهيم مع قومه فيقول :

« واتل عليهم نبأ إبراهيم * إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون * قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين * قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون * قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون * قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنهم عدو لى إلا رب العالمين * الذى خلقنى فهو يهدين * والذى هو يطعمنى ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذى يميتنى ثم يحيين * والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين * رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين * واجعل لى لسان صدق فى الآخرين * واجعلنى من ورثة جنة النعيم * واغفر لأبى إنه كان من الضالين * ولا تخزنى يوم يبعثون * يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » [الشعراء : ٦٩ - ٨٩] .

ويبدو من هذه الآيات : أن إبراهيم عليه السلام كان ماهرا فى إدارة الحوار مع قومه ، إذ تدل كلماته على أنه كان قوى الحجة ، فصيح اللسان فيما يريد التعبير عنه ، واضح البيان فى شرح قضايا التوحيد ، وكذلك فى توضيح جانب الضلال فى عبادة الأوثان والأصنام ، عنيفا فى هجومه على آلهة القوم ، لاذعا فى التعريض

بها ، مؤلما فى الاستهزاء بسخافة عقولهم التى ارتضت عبادة مالا يضر ولا ينفع ، ومع ذلك كان حليما ، رقيق القلب ، عطوفا ، رءوفا ، بارا بوالده مع قسوته عليه ، إذ أنه كلما ابتعد والده عنه فى معركة الجدل حول عبادة الله وتوحيده ، تلطف هو بالقرب إليه ، وترفق فى دعوته وهدايته وتحذيره . .

ولكن ذلك لم يأت بنتيجة ، إذ ظل أبوه على كفره ، فلم يهتد إلى ما يدعو إليه ابنه ، ولم يخرج ذلك إبراهيم عن حلمه ، فاستغفر له ، يقول تعالى :

« وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم » [التوبة : ١١٤] .

وتلك هى سنة الدعوات الإلهية ، توصى بمعاملة الوالدين بالحسنى ، حفاظا على صلة الرحم ، حتى ولو كانا يحاربان دين الله ، يقول تعالى :

« ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلىّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » [العنكبوت : ٨] .

ويقـــول :

« ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى لوالديك إلى المصير * وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا » [لقمان : ١٤ - ١٥] .

* * *

ذكرت التوراة أن إبراهيم رحل إلى مصر ومعه زوجته سارة ، وذلك فى عهد ملوك الرعاة ، وهم العماليق ، ويسميهم الرومان : « الهكسوس ». وتنسب التوارة إلى إبراهيم أنه خاف على زوجته من الملك فقال عنها : إنها أخته ، فأراد الملك أخذها زوجة له ، فأرى فى نومه أنها ذات بعل ، فعاتب إبراهيم على ذلك ، وأعطاه أموالا وماشية وجوارى .

ويبدو من بنية هذه القصة أنها تحمل طابع العصور القديمة ، إذ لاتخلو الآداب

الشعبية والأساطير من أمثالها أو ما يشبهها فى المضمون والهدف ، وهو أن الغريب يخشى دائما على من معه من النساء والفتيات ، فيتحايل بشتى الطرق لحفظهن ممن يريد اغتصابهن ، وغالبا ما يكون المغتصب ملكا ، أو أميرا ، أو سلطانا . وتصوّر الأساطير من يخاف على حريمه ، تارة بأنه ضعيف، ليس له سند من أهل أو عشرة ، أو غريب حل بالبلد للإقامة ، أو للتزود ليواصل ترحاله .

وقد تتكرر نفس القصة مع أشخاص آخرين فى آداب المجتمع الواحد ، بل إنها تكررت فى التوراة ، فكما حدث مع إبراهيم بادعائه: أن سارة أخته ، حدث كذلك مع إسحاق وزوجته ، فتحكى التوراة : أنه أقام فى جرار « فسأله أهل المكان عن امرأته ، فقال هى أختى لأنه خاف أن يقول امرأتى ، لعل أهل المكان يقتلوننى من أجل رفقة ، لأنها كانت حسنة المنظر ، وحدث إذ طالت له الأيام هناك أن أبيمالك ملك الفلسطينيين أشرف من الكوة ونظر ، واذا إسحاق يلاعب رفقة امرأته ، فدعا أبيمالك إسحاق ، وقال إنما هى امرأتك ، فكيف قلت هى أختى ، فقال له إسحاق : لأنى قلت لعلى أموت بسببها ، فقال أبيمالك : ما هذا الذى صنعت بنا ، لولا قليل لاضطجع أحد الشعب مع امرأتك فجلبت علينا ذنبا ، فأوصى أبيمالك جميع الشعب قائلا : الذى يمس هذا الرجل أو امرأته موتا يموت » [سفر التكوين صحاح ٢٦ : ٧ - ١١] .

فعناصر القصتين واحدة : خوف على النفس ، أو على الزوجة ، فادعاء بأنها أخته ، ثم كشف الملك الحقيقة بعد ذلك ، فمكافاتهما بالهبة ، أو بحمايتهما فى مملكته .

وتسير أمثال هاتين القصتين - فى غالب الأمر - فى نفس الاتجاه فى الآداب الشعبية والأساطير الدينية ، غير أن التوراة - وهى أصلا كتاب سماوى - ما كان ينبغى لكاتبها أن ينسب الكذب والجبن الى نبيين كريمين ، ولهذا ينبغى على كل مؤمن ألا يصدق ما جاء فى هاتين القصتين ، إذ توهم القصة الواردة فيها عن إبراهيم: أنه كان يستغل وضاءة وجه زوجته وجمالها استغلالا شائنا معيبا ، فهى

تذكر أنه اتفق معها أن تقول : إنه أخوها ويقول : هو إنها أخته ، لئلا يقتلوه ، ويكون له خير من ذلك .

هل يمكن أن يصدق إنسان عاقل صدور هذا الفعل من نبى جاء ليعلم الناس - من بين ما أوحى اليه لتبليغه للناس - أنهم لا يخشون إلا الله ، مهما كانت الظروف والملابسات ؟

لم يذكر القرآن الكريم شيئا عن رحلات إبراهيم عليه السلام ، سواء كانت إلى منطقة الكلدانيين ، أو إلى حران ، أو فلسطين ، أو إلى مصر ، لأنه - كما أكدنا ذلك مرارا - ليس كتاب تاريخ ، وإنما هو آية للناس ، وعلاج للأمراض الاجتماعية . ولما كانت طبيعة الإنسان واحدة ، مهما اختلفت العصور ، وتباينت المناطق الجغرافية ، فإن أسلوب حوار المجتمعات يكاد يسير على منهج واحد ، وإن اختلفت عاداتهم وتقاليدهم ، ولهذا ذكرت صور مجادلته للناس حول عقيدة التوحيد ، دون أن تبينَ هوية من يجادلهم ، أو مكان سكناهم ، لأن هذين العنصرين - وهما : نسب المجادلين ومحل إقامتهم - لايدخلان فى عملية الإقناع بوجوب التوجه إلى الله وحده ، وعبادته دون غيره .

وإذا كانت كتب التاريخ وقصص التوراة تربط اتصاله بهاجر بمجيئه إلى مصر ، لانه اتخذها جارية له وأنجب منها اسماعيل ، فليس فى القرآن الكريم ما ينفى ذلك أو يثبته ، لأنها أمور خارجة عن منهجه فى الدعوة إلى الله ، إلا أنه ذكر إسماعيل ونسبه إلى إبراهيم ، وما ذاك إلا لسرد أحداث تتعلق بإسماعيل مع أبيه ، وأعمال له هو وحده ، لها ارتباط بمنهج القرآن الكريم فى شرح قضايا التوحيد للناس ، وبيان الالتزام بأوامر الله ونواهيه فى مجال الحياة الإنسانية .

فلم يتحدث القرآن الكريم عن أحداث شخصية لإبراهيم عليه السلام إلا من زاوية تأثيرها على من يخاطبون بوحى الله ، لبيان قدرته جل شأنه ، حتى يكون ذلك دافعا لهم إلى التفكير جديا فى قضية توحيد من بيده الأمر فى هذا الكون ، لعلهم يهتدون ، ومن ذلك حديثه مع الرسل الثلاثه ، وبشارتهم له بإسحاق فى

موضعين : الأول فى سورة هود حيث يقول الله تعالى :

« ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ * فلما رأى أيديهم لاتصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لاتخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط * وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب * قالت ياويلتا أألدوأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشىء عجيب * قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد * فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط * إن إبراهيم لحليم أواه منيب * يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود » [هود : ٦٩ - ٧٦] .

والثانى فى سورة الذاريات :

« هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين * إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون * فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين * فقربه إليهم قال ألا تأكلون * فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم * فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم * قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم * قال فما خطبكم أيها المرسلون * قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين * لنرسل عليهم حجارة من طين مسومة عند ربك للمسرفين » [الذاريات : ٢٤ - ٣٤] .

اسماعيل عليه السلام :

حين تتحدث كتب تاريخ الأديان عن إسماعيل، تذكر أن إبراهيم عليه السلام ، حين كان فى مصر أهداه ملكها جارية تدعى « هاجر » ، فتسرى بها ، فولدت له اسماعيل . لكن عند ما رزقت سارة بابنها إسحاق قالت لإبراهيم : اطرد هذه الجارية وابنها ، لأن ابن هذه الجارية لايرث مع ابنى إسحاق ، فصدع للأمر ، وسار بها فى جوف الصحراء ، وأسكنها فى برية وحدهما . . . الخ .

لكن القرآن الكريم لم يتحدث عن شىء من هذا ، ولم يذكر حياة إسماعيل عليه

السلام بالتفصيل ، بل ذكر منها ما يفيد العظة والاعتبار ، وما يبين مقام إسماعيل عند ربه ، ويوضح طاعته لله ولوالده ، فأشار إشارات بسيطة إلى رحلته مع أمه ، حيث أسكنها فى مكان ما بالصحراء ، حيث يقول على لسان إبراهيم عليه السلام - بعد أن بنى البيت الحرام ، وهو الكعبة فى مكة المكرمة فى هذا المكان مع ابنه اسماعيل :-

« ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » [إبراهيم : ٣٧] .

ويقول تعالى :

« وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير » [البقرة : ١٢٦] .

ويبين القرآن الكريم مقام إسماعيل عليه السلام فيقول :

« واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبيا . وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا » [مريم : ٥٤ - ٥٥] .

كما يحكى عن حادثة ذبحه فيقول :

« وقال (أى إبراهيم) إنى ذاهب إلى ربى سيهدين * رب هب لى من الصالحين * فبشرناه بغلام عليم * فلما بلغ معه السعى قال يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال ياأبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين * فلما أسلما وتله للجبين * وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين * إن هذا لهو البلاء المبين * وفديناه بذبح عظيم * وتركنا عليه فى الآخرين * سلام على إبراهيم * كذلك نجزى المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين * وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين » [الصافات : ٩٩ - ١١٢] .

وماذاك إلا ليبين للناس ما ينبغى أن تكون عليه طاعة الناس لخالقهم ، إذ على الرغم من أنه كان ابنا وحيدا لشيخ كبير فى السن ، إلا أنه صدع بالأمر ، وهمَّ بذبحه تنفيذا لأوامر الله سبحانه وتعالى . كذلك هو تعليم للأبناء بما يجب أن تكون عليه طاعتهم لربهم وللوالدين ، فإذا كان على الولد أن يخضع لرغبة الوالد فى مسألة تتعلق بذبحه وإزهاق روحه ، فمن باب أولى ينبغى عليه أن ينفذ أوامر والده فى كل شىء ، لأن ماعدا إزهاق الروح - وهو ماضرب به المثل - هين ، لايجوز فيه العصيان ، مهما كانت الظروف والملابسات .

وجدير بالذكر هنا أن الآيات تؤكد أن الذبيح كان إسماعيل على خلاف ما ذكرته التوراة من أنه كان اسحاق ، ذلك أن الإتيان بالبشرى بإسحاق بعد ذكر القصة صريح فى أن إسحاق لم يكن هو الغلام الذى ابتلى الله إبراهيم بذبحه ، فعود الضمير إلى الغلام الذبيح ، وذكر اسم اسحاق معه صريحا ، يقتضى التغاير بين الذبيح وإسحاق .

وفى التوراة دليل واضح على أن الذبيح هو إسماعيل ، إذ أنه وصف فيها بأنه ابن إبراهيم الوحيد ، أى الذى ليس له سواه ، إذ سخاوة نفس إبراهيم بولده الوحيد ، بذبحه امتثالا لأمر ربه له فى منام ، أدل على نهاية الطاعة والامتثال لأمر الله ، وهذا هو الإسلام بعينه ، إذ الإسلام هو الطاعة والامتثال ، وهو دين الله فى الأولين والآخرين . واذا رجعنا إلى إسحاق لم نجده وحيدا لإبراهيم فى يوم من الأيام ، لأن إسحاق ولد ولإسماعيل أربع عشرة سنة - كما هو مصرح به فى التوراة - وبقى إسماعيل إلى أن مات إبراهيم ، وحضر إسماعيل وفاته ودفنه . فيتضح من هنا أن الذبيح كان إسماعيل ولم يكن إسحاق .

ترك إبراهيم ابنه مع أمه فى مكة ، ورجع إلى سارة ، غير أنه كان يزور ولده إسماعيل بين حين وآخر ، وفى إحدى هذه الزيارات أمره الله أن يبنى بيتا ، فصدع بالأمر ، وبنى البيت هو واسماعيل ، ولما تم بناؤه أمره الله أن يعلن فى الناس أنه بنى بيتا لعبادة الله ، وأن عليهم أن يقصدوه للنسك . وقد حكى القرآن الكريم

عن ذلك فى مواضع عدة :

ففى سورة آل عمران يقول الله تعالى :

« إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » [آل عمران : ٩٦ - ٩٧] .

وفى سورة البقــرة :

« وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ، وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود * وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير * وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم » [البقرة : ١٢٥ - ١٢٩] .

وفى سورة إبراهيم :

« وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الاصنام * رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فانه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم * ربنـا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى ذرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » [ابراهيم : ٣٥ - ٣٧] .

وفى سورة الحـج :

« وإذ بوأنـا لإبـراهيم مكـان البيت ألا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين

والقائمين والركع السجود * وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق * ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير * ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق * ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور * حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق * ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب * لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق [الحج : ٢٦ - ٣٣] .

لم يتحدث القرآن الكريم عن حياة إبراهيم بعد بناء البيت ، وما يعرفه الناس عنه : بأنه تزوج زوجة أخرى اسمها «قطورة» ، وأنها ولدت له ستة أولاد ، فمصدره التوراة . كذلك لم يجر لوفاته ذكر فى القرآن الكريم ، ولكن ورد ذلك فى التوراة ، وما ذاك إلا لأن هذه الأحداث لا تتعلق بالدعوة ، وليس من ذكرها فائدة فى مجال المناقشات فى قضايا التوحيد ، لذا أعرض القرآن الكريم عن ذكرها .

اسحاق عليه السلام :

عندما هم إبراهيم عليه السلام بتنفيذ أمر الله سبحانه وتعالى بذبح ابنه إسماعيل ناداه الله بأن يكف عن تنفيذ هذا الأمر ، يقول تعالى :

« ونادیناه أن يا إبراهيم ، قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين » [الصافات : ١٠٤ - ١٠٥] .

ثم أراد أن يكافئه على طاعته ، وامتثاله لأمره بالهَمّ بذبح ولده الوحيد ، فبشره بولد آخر ، هو إسحاق عليه السلام ، يقول تعالى . .

« وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين * وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين » [الصافات : ١١٢ - ١١٣] .

ويحكى القرآن الكريم فى سورة هود مشهد إخبار رسل الله إبراهيم بأنه سيولد

له ولد ، واستنكار امرأته ذلك ، لأنها تعديا السن الذى يكون فيه الإخصاب البشرى إيجابيا ، فهو شيخ كبير وهى عجوز عقيم ، فيقول تعالى :

« ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ * فلما رأى أيديهم لاتصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لاتخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط * وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب * قالت ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشىء عجيب * قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد » [هود : ٦٩ - ٧٢] .

وقد ورد ذكر إسحاق فى القرآن الكريم أربع عشرة مرة ، لم تخرج كلها عن الأخبار بأن الله بشرّ إبراهيم به ، وبيان أن الله أنزل عليه وحيا ، كما أنزل على إبراهيم ، وإسماعيل ، ويعقوب ، يقول تعالى :

« قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل الى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » [البقرة : ١٣٦] .

ويقـــول :

« قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » [آل عمران : ٧٤] .

ويقـــول :

« إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا » . [النساء : ١٦٣] .

فلم يذكر شيئا من تاريخ حياته الخاصة التى انفردت بها التوراة ، حيث ورد فيها أن إبراهيم عليه السلام لم يوافق على أن يزوج ابنه إسحاق من بنات الكنعانين

الموجودين فى فلسطين ، بل أصر على تزويجه من عشيرته وبنى أبيه ، ولذلك أمر عبده بالذهاب إلى آرام ، حيث أسرة ناحور أخى إبراهيم ، ليختار منها زوجة لابنه إسحاق . . . وتمضى القصة فى التوراة ، فتصف رحلة العبد بما معه من أنعام وحُلِىّ ، ولقاءه بالبنت واختياره لها ، ثم رجوعه إلى حيث مساكن إبراهيم ، وإسحاق . وكل هذه الأحداث أمور شخصية لاتتعلق بمسألة التوحيد ، ولهذا أعرض عنها القرآن الكريم ، كما أنها توحى بالعصبية القبلية التى يستنكرها الوحى الذى نزل من السماء ، إذ من المسلم به أن دين الله لايفرق بين قبيلة وأخرى على أساس العرق والدم ، أو بين فرد وآخر على أساس المال ، أو الجاه والسلطان ، يقول تعالى :

« **إن أكرمكم عند الله اتقاكم** » [الحجرات : ١٣] .

ويبين أن العمل الصالح ، ينبغى أن يكون أساس التفاضل بين الناس فى الدنيا ، فلا تفاضل على أساس الحسب والنسب ، لأن العمل الصالح هو الفيصل فى تقييم الناس فى الآخرة ، يقول تعالى :

« **فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون * فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون * تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون** » [المؤمنون : ١٠١ - ١٠٤]

فرفض إبراهيم زواج ابنه من بنات الكنعانيين نعرة جاهلية تتنافى مع وحى الله ، الذى سوى بين الناس جميعا ، ولم يفرق بينهم على أساس النسب ، بل على أساس التقوى . ولما كان إبراهيم نبيا ورسولا جاء يعلم الناس تعاليم ربه ، فإننا نستبعد ظهور هذا التصرف منه ، ونرى أن نسبتها إليه غير صحيحة ، فهى تحمل طابع الشعب اليهودى الذى يعرف بتعصبه الشديد للعرق والجنس . وليس هناك علاقة بينها وبين ما يجب أن يكون عليه نبى الله إبراهيم عليه السلام من معاملة الناس على قدم المساواة ، لافرق عنده بين أبيض وأحمر وأسود إلا بالتقوى ، كما ينطق بذلك وحى الله ، وكما هو معروف عن سلوك وأخلاق أنبياء الله عليهم

السلام .

ولما كانت هذه الأمور التى تحدثت عنها التوراة لاتتعلق بمسائل التوحيد ، وأوامر الوحى ونواهيه ، لم يذكرها القرآن الكريم عند الحديث عن إسحاق عليه السلام .

ولكن أليست بشارة إبراهيم بإسحاق من الأمور الخاصة ؟

إذا كان الأمر كذلك ، فلم ذكرها القرآن الكريم ، وليس من منهجه الحديث عن الأمور الخاصة ؟

نعم هى من الأمور الخاصة ، ولكنها تتعلق بناحية هامة ، لها أثرها فى مجال الحوار فى مسألة قدرة الله سبحانه وتعالى ، ذلك أن ولادة إسحاق من أب طاعن فى السن ، وأم عجوز عقيم ، دليل على أن الله قادر على خرق سنن الحياة الطبيعية ، وفى ذلك برهان على أحقيته بالعبادة ، دون غيره الذى لايضر ولا ينفع ، بل لا يستطيع دفع الأذى عن نفسه ، فهو إلزام بالحجة للمعاندين لرسالات الله ، والمكابرة لرسله ، وفى ذلك آيات لأولى الألباب .

لوط عليه السلام :

ذكر القرآن الكريم قصة لوط مع قومه فى عدة سور ، وهى وإن كان فى بعضها تكرار، إلا أن فى كل واحدة جانبا ليس فى الأخرى ، فهى تكمل بعضها بعضا . وتتلخص قصته فى : أن قومه كانوا أشرارا ، يأتون من الفواحش ماتعف عنه طبيعة الإنسان ، وأنهم كانوا يقطعون السبيل ، ويأتون فى ناديهم المنكر ، وأقبح الفواحش ، فقد كانوا يأتون الذكران من العالمين شهوة من دون النساء ، ويفعلون ذلك علنا وفى وضح النهار .

وأن لوطاً وعظهم فنصحهم ، ونهاهم وخوَّفهم بأس الله ، فلم يتعظوا ولم يقلعوا عما هم فيه ، بل استمروا فى غيهم وضلالهم ، ولما ألح لوط عليهم فى النصيحة: بأن يقلعوا عن هذه العادة السيئة ، وهى إتيان الذكران « وهو الشذوذ الجنسى » ،

هددوه تارة بالرجم ، وأخرى بطرده من المدينة ، إلى أن أرسل الله رسلا إلى لوط ، فاجتمع القوم حول بيته ، يريدون الفاحشة بهؤلاء الرجال الثلاثة ، الذين كانت عليهم مسحة من الوجاهة ووضاءة الوجه ، فجاهدهم لوط ، مذكراً إياهم : أن لهم فى النساء مندوحة عن ذلك ، إذ ينبغى عليهم أن يتزوجوا النساء ، فيما رسوا معهن هذه الغريزة بالصورة الطبيعية ، بدلا من أن يفعلوا هذا مع رجال مثلهم ، وهو أمر شاذ ، فأبوا ، ولما هموا بالهجوم على هؤلاء الرسل ـ وهو ضيف لوط ـ أنزل الله عليهم عذابا فأهلكهم .

فهلم نقرأ هذه القصة فى القرآن الكريم فى سورة الأعراف :

« ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين * إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون * وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون * فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين * وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين » [الأعراف : ٨٠ ـ ٨٤] .

وفى سورة هود :

« ولما جاءت رسلنا لوطا سىء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب * وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال ياقوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزونى فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد * قالوا لقد علمت مالنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد * قال لو أن لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد * قالوا يالوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب * فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود * مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد » [هود : ٧٧ ـ ٨٣] .

وفى سورة الحجر :

« فلما جاء آل لوط المرسلون * قال إنكم قوم منكرون * قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون * وأتيناك بالحق وإنا لصادقون * فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون * وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين * وجاء أهل المدينة يستبشرون * قال إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون * واتقوا الله ولا تخزون * قالوا أو لم ننهك عن العالمين * قال هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين * لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون * فأخذتهم الصيحة مشرقين * فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل * إن فى ذلك لآية للمتوسمين » [الحجر : ٦١ - ٧٥] .

وفى سورة الشعراء :

« كذبت قوم لوط المرسلين * إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين * أتأتون الذكران من العالمين * وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون * قال لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين * قال إنى لعملكم من القالين * رب نجنى وأهلى مما يعملون * فنجيناه وأهله أجمعين * إلا عجوزا فى الغابرين * ثم دمرنا الآخرين * وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين * إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم » [الشعراء : ١٦٠ - ١٧٥] .

وفى سورة النمل :

« ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون * أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون * فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون * فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين * وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين » [النمل : ٥٤ - ٥٨] .

وفى سورة التحريم :

« ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين » [التحريم : ١٠] .

فتدور القصة فى جميع السور حول أمور عدة :

الأمر الأول :

إنذار لوط لقومه بالتخلى عن الشذوذ الجنسى .

الأمر الثانى :

إنزال الله العذاب عليهم .

الأمر الثالث :

نجاته وأهله من هذا العذاب .

الأمر الرابع :

هلاك امرأته إذ لم يشفع لخيانتها لرسالة الله أنها امرأته ، فعقاب المذنب لايدفعه حسب ولا نسب .

لكن يتساءل بعض الناس عن كيفية إمطار السماء حجارة ، ويرون أن ذلك غير ممكن ، والجواب عن ذلك : أننا إذا نظرنا إلى الحديث من جانب أن الله هو الذى فعله ، وهو قادر على كل شىء ، حتى ولو كان مخالفا لنواميس الطبيعة ، فإن العقل لا يستبعد ذلك ، غير أنه من الممكن تفسير ذلك بظواهر ممكنة ، ذلك أن ما وقع على قوم لوط من العذاب ، كان زلزالا جعل عالى منازلهم سافلها ، فتناثرت أحجارها فى الهواء ، وسقطت ثانية فيما يشبه مطر الأحجار التى تدمر كل شىء تقع عليه . فأحجار البناء كانت تتساقط من أعلى إلى أسفل بفعل الزلزال . وكان ذلك أشبه بالمطر فى عنفه وشدته .

وأراد الله بذكر هذا فى القرآن الكريم أن يذكر المعارضين لرسالته : بأن من

الممكن ، أن يتكـرر هذا كعقـاب لبعض المجتمعات التى تسىء إلى نفسها ، فتعـرض عن ذكـر الله ، وتجـرى وراء هواها فتنفذ أمر الشيطان ، حيث تشيع الفاحشة ويعم الفساد ، وصدق الله إذ يقول :

« إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » [ق : ٣٧] .

تعقيب على قصص ابراهيم واسماعيل ولوط :

تقوم الرسالات السماوية على ثلاثة عناصر أساسية هى : دعوة الناس إلى توحيد الله ، وإلزامهم بتأدية عبادة معينة ، وأمرهم بالتخلص من الأمراض الاجتماعية ، حتى تستقيم الحياة فى المجتمع ، فيشتد عوده ، ويقوى صلبه ، فيكون قادرا على مجابهـة الأزمـات وتخـطى الصعـاب . وهـذه العناصر الثلاثة هى دعائم الحياة السليمة ، إذ لايستقيم بدونها أمر فى أى تجمع بشرى ، ولا يطمئن أحد على حياته فى مجتمع تَنكَّر لها . ولا تستقر الحياة بين أناس لا يُسلِّمون بها ، فيتخذونها منارات تهديهم إلى حياة مثلى ينشدونها ، ليتمتعوا فى ظلها بالهدوء النفسى ، والاستقرار الاجتماعى ، فيعيشون سعداء ، لايكدر صفو حياتهم زلازل اجتماعية مدمرة ، ولا ينغص عليهم أمنهم وطمأنينتهم منازعات عقدية ، أو اختلافات سلوكية ، وصراعـات فكـرية حول ما يجب أن يكـون عليه المجتمـع ، سواء كان متعلقا بالأفراد ، أو بالنظم التى تنظم علاقة الناس بعضها ببعض .

فإذا غاب التوحيد من المجتمع تعددت الآلهة وتنوعت ، وفى تعددها اختلاف فى الأوامر والنواهى ، فتتصارع الاتجاهات ، وتتشابك الأهداف تشابك الأضداد والمتنافرات ، ويتناحر الأتباع فى جميع مجالات حياتهم ، فلا يعرفون أمنا ولا أمانا ، ولا تجد نفوسهم هدوءا ولا استقرارا ، فيعيشون فى صراع دائم ونزاع مستمر ، لأن ولاءهم ليس لمصدر واحد ، وطاعتهم متعددة طبقا لتعدد الالتزامات وتنافرها ، وصدق الله إذ يقول :

« لو كان فيهـما آلهـة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون »
[الأنبياء : ٢٢] .

وإذا كان مصدر التوحيد غير الله ، اضطربت الحياة لاضطراب مزاج من نصَّب نفسه مشرعا ، وتقلُّب أحوال من ادعى لنفسه مالا يملك ، ذلك أن من عدا الله من المخلوقات لايخرج عن طبيعتين : لأنه أما أن يكون جمادا لا يضر ولا ينفع ، وعبادة هذا النوع من المخلوقات بيِّن البطلان ، فالعاقل لايمكن أن يتصور أن آلهة مصنوعة من الجماد قادرة على وضع نظام كامل يصلح للحياة ، بحيث يكون فيه سعادة الفرد ، واستقرار الجماعة .

أو يكون إنسانا ، وتقديس الإنسان خروج به عن دائرة طبيعته ، إذ هو مخلوق محدود القـدرة ، متقلب المـزاج . ومن كان هذا شأنه لايرقى أبدا إلى أن يكون مصدرا لكل ماهو خير للمجتمع ، أو يقوى على معرفة مايضر الناس وما ينفعهم ، على اختلاف العصور والأزمان ، وتفاوت الأقطار والبلدان .

وعليه فلا يُصْلح هذا إلا الله ، لأنه هو خالق الكون وما فيه ، فهو أعلم بما يصلحه ، وأقدر على وضع ما ينظم الحياة تنظيما حسنا ، بحيث يستقيم فيه سلامة الفرد وسعادته ، ويحفظ به كيان المجتمع واستمراريته ، يقول تعالى :

« إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا » [الطلاق : ٣] .

ويقـــــول :

« وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير * وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير » [الأنعام : ١٧ - ١٨] .

فمن كان هذا شأنه ، فهو أحق بالعبادة ، لأنه واحد ، فلا تعدد ولا اختلاف فى الأمر ، وهو قادر، يستطيع أن يفعل ما يصلح الناس ، وهو عالم بما يضرهم وما ينفعهم ، وبـالاضافة إلى ذلك فهو حليم بهم ، لاينزل من العقاب إلا ما يصلحهم ، ويحول دون استمرارية الفساد فى الأرض .

ويعالج العنصر الثانى - وهو العبادات : صلاة وصوم وحج وزكاة - الأمراض النفسية والاجتماعية ، فيزكى الروح ويخلصها من شوائب المادية ، وينقيها مما قد يعلق بها من غرور وتكبر واستعلاء على الناس ، ويطهرها من الدنس الذى قد يلحقها فيحملها على الظلم والطغيان والاستبداد ، وأخذ أموال الناس وحقوقهم

بالباطل ، يقول الله تعالى :

« **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر** » [العنكبوت : ٤٥] .

ويقول :

« **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها** » [التوبة : ١٠٣] .

ويقـــول :

« **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون** » [البقرة : ١٨٣] .

فأداء العبـادات منهج ربانى لعلاج الناس وتربيتهم على نحو يجعلهم أناسا صالحين لأنفسهم ولأخوانهم فى المجتمع ، ولاشك أن ذلك سوف يؤدى إلى منع انتشار الأمراض الاجتماعية التى قد يكون فيها هلاك المجتمع ، فإذا آمن الفرد فى المجتمع بإله واحد، وأدى مافرضه الله عليه من عبادات كان فى ذلك الخير كله لنفسه ، ولأسرته ، ولمجتمعه ، بل وللبشرية جمعاء .

لم تخرج تعاليم الرسالات السماوية عن هذه العناصر الثلاثة ، ولهذا حين قص القرآن الكريم خبر الأنبياء السابقين ركز على ما بينها للناس ، فعلى سبيل المثال يقول هود لقومه :

« **يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره** » [هود : ٥] .

فهـذه الآية تضمنت العنصرين الأولـين وهمـا : توحيد الله ، وعبادته . أما العنصر الثالث ، فجاء فى استنكاره ظلم الأقوياء للضعفاء ، حين يقول لهم :

« **وإذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون** » [الشعراء : ١٣٠ - ١٣١] .

وكذلك فعل صالح وغيره .

فلو نظرنـا فيما قصـه علينـا القـرآن الكريم من خبر الأنبياء الثلاثة : إبراهيم، وإسـماعيل، ولوط عليهم السلام ، نجد أنه ذكر عنصرا واحدا فى حديثه عن كل نبى من هؤلاء ، فركز فى الحديث عن إبراهيم على قضايا التوحيد ، وأخبر عن إسماعيل بأنه كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة فقال :

« واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا * وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا » [مريم : ٥١ - ٥٢] .

وهذا هو العنصر الثانى ، أما لوط فجاء الحديث عنه فى مجادلته مع قومه حول الشذوذ الجنسى ، وهو من الأمراض الاجتماعية التى تمثل العنصر الثالث فى الرسالات السماوية .

فلماذا ذكر القرآن الكريم جانبا واحدا من جوانب الرسالة فى حديثه عن هؤلاء الأنبياء ، مع أن الجوانب الثلاثة ظاهرة فى حديثه عن الأنبياء الآخرين ؟

لأن القرآن الكريم ، حين كان يستشهد بتاريخ الأنبياء السابقين لأهل مكة ، كى يقنعهم برسالة الإسلام ، كان يأتى لهم بمثال من كل عصر ، فبدأ بآدم ، ثم بنوح ، وصالح ، وهود . . . و . . . الخ . ولما كان هؤلاء الأنبياء - إبراهيم وإسماعيل ولوط - ظهروا فى عصر واحد ، لم يكن من المستساغ أن يكرر العناصر الثلاثة فى حديثه عن كل واحد منهم ، فخصّ كل واحد بما كان غالبا على حواره مع قومه ، فكان الحوار حول التوحيد مع إبراهيم هو الغالب ، وكان الشذوذ الجنسى فى قوم لوط هو المشكلة الرئيسية ، أما إسماعيل فكان تعليم من سكن بجواره من قبائل العرب عبادة الله هو العمل الرئيسى له . ولهذا لم يركز القرآن الكريم فى حديثه عن إسحاق - وهو معاصر لهم - على أى مشكلة من هذه المشاكل ، لأنه فرغ من ضرب المثل بها فى حديثه مع الأنبياء الثلاثة ، فلو جاء فى الحديث عنه ذكر لأى عنصر من العناصر ، لكان ذلك تكرارا لأحداث العصر الواحد . ومن هنا جاء الحديث عنه من جانب بيان قدرة الله فى أنه ولد لأب شيخ طاعن فى السن ، وأم عجوز ، ثم أخبر عنه بأنه نبى ، أنزل الله عليه وحيا ، مثل غيره من الأنبياء .

مقارنة بين القرآن والتوراة :

يجتهد الإنسان - عندما تحتم عليه الظروف تكليف أحد بالقيام بعمل نيابة عنه - فى أن يختار أحسن من حوله ، وأكفأهم ، لتأدية هذه الرسالة ، فيستعمل كل

أساليب البحث عن اكتشاف إمكانات من يختار منهم ، حتى لايكلف من لايستطيع القيام بهذا العمل على أحسن وجه ، لأن عمل الوكيل منسوب بطريق غير مباشر إلى من وكله ، إذ عندما يفشل أو يأتى من الأعمال ما يسىء ، فإن اللوم يوجه إلى من اختاره ، فيوصف بأنه قصير النظر ، لأنه لم يعرف هذا الجانب الضعيف فيمن وكله ، وقد يتهم بأنه متواطىء معه ، فهو شريك معه فيما ارتكبه من أعمال سيئة .

وحاشا لله أن يختار ضعيفا أو كاذبا ، أو فاسقا ، أو من يرتكب من الأعمال ما يتنافى مع ما أمر بتبليغه ، فالرسل والأنبياء اصطفاهم الله من خيرة خلقه ، فأدبهم على خير ما يكون الإنسان فى سلوكه ، وأخلاقه ، وتعامله مع الناس ، والتزامه بما أمره به ، يقول الله تعالى مخاطبا نبيه :

« **وإنك لعلى خلق عظيم** » [القلم : ٤] .

ويحكى عن إسماعيل فيقول :

« **انه كان صادق الوعد** » [مريم : ٥٤] .

ويقول عن ابراهيم :

« **إن إبراهيم لأواه حليم** » [التوبة : ١١٤] .

وعليه فلا يصح أن يرتكب نبى من الاعمال ما يسىء إلى علم الله وقدرته ، فهو عالم بما يبطن الانسان من الأمور ، وما يظهر ، يقول تعالى :

« **ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة . .** » [المجادلة : ٧] .

فإذ كانت هذه هى قدرته ، فينبغى أن يكون اختياره للأنبياء على أساس سليم ، فلا يصطفى من يكذب ، ولا يختار من يقع فى الإثم فيرتكب الزنا ، ويقترف الفواحش .

فلو تحدث كتاب مقدس عن شىء من هذا عن الأنبياء فلا يصدق على

الاطلاق . وعليه فما جاء فى سفر التكوين عن كذب إبراهيم على « أبيما لك »، عندما قال له أن « سارة » أخته ، فهو خبر غير صادق ، لأنه لاينبغى أن يصدر هذا من نبى اؤتمن على وحى الله ، كذلك لايجوز تصديق ما جاء فيها أيضا عن أن إسحاق ارتكب نفس الإثم مع « أبيما لك » أيضا ، عندما أخبره أن « رفقة » هى أخته ، والحقيقة أنها كانت زوجتـــه .

ومما يؤكد بُعد هذه القصة عن الصواب: أنه ليس من الممكن أن يكون « أبو مالك » قد ملك فى عهد إبراهيم وعهد إسحاق معا ، كما تدل على ذلك عبارة سفر التكوين ، لأن إبراهيم كان رجلا كبيرا طاعنا فى السن قبل أن تحمل سارة باسحاق ، وحدثت القصة مع اسحاق، عندما كان إسحاق قد جاوز الأربعين ، فيكف يتصور بقاء « أبيما لك » حتى ذلك الزمان ؟

ومما يزيد الشك فى صحة ما جاء فى التوراة: أنها نسبت إلى لوط أعمالا لايمكن أن يرتكبها رجل عادى، فضلا عن نبى اصطفاه الله ليبلغ وحيه للناس ، وليدعوهم إلى التزام التقوى والصلاح ، والبعد عن الفاحشة والمنكر ، إذ تذكر أن لوطاً سكن فى الجبل وابنتاه معه « لأنه خاف أن يسكن فى صوغر ، فسكن فى المغارة هو وابنتاه ، وقالت البكر للصغيرة : أبونا قد شاخ وليس فى الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض . هلم نسقى أبانا خمرا ونضطجع معه فنحيى من أبينا نسلا ، فسقتا أباهما خمرا فى تلك الليلة . ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها . وحدث فى الغد أن البكر قالت للصغيرة : إنى قد اضطجعت البارحة مع أبى . نسقيه خمرا الليلة أيضا فادخلى اضطجعى معه فنحيى من أبينا نسلا . فسقتا أباهما خمرا فى تلك الليلة أيضا . وقامت الصغيرة واضطجعت معه . ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها فحبلت ابنتا لوط من أبيهما ، فولدت البكر ابنا ودعت اسمه موآب ، وهو ابو الموآبيين إلى اليوم . والصغيرة أيضا ولدت ابنا ودعت اسمه بن عمى ، وهو أبو بنى عمون إلى اليوم » [سفر التكون ١٩ : ٣٠ - ٣٨] .

فإذا قارنـــا بين ما جاء فى التـوراة ومـا جاء فى القـرآن الكـريم عن الأنبياء السابقين ، لوجدنا فرقا شاسعا ؛ فالقرآن لايتحدث عن أحداث شخصية ، أو أشياء لاصلة لها بالدعوة ، لأن الهدف من الحديث هو التذكير بها حدث مع الأنبياء السابقين فى مجال التوحيد ، ومسائل العبادات ، وقضايا الظواهر الاجتماعية ، لأن هذه هى الدعامات التى تقوم عليها المجتمعات ، أما السيرة الذاتية فلا دخل لها هنا فى معرض الحوار والمناقشة مع المجادلين .

كذلك جاء حديث القرآن الكريم عن الأنبياء موضحا أنهم كانوا خير خلق الله خلقا وسلوكا ، فلم يرتكبوا كبيرة ، ولم يصدر منهم ما ينسب العجز إلى الله فى أنه لم يحسن الاختيار ، ولم يباشروا عملا من شأنه أن يقيم الحجة عليهم بأنهم يقولون مالا يفعلون ، وهـو من الأمور المقوتة عند الله ، فلا ينبغى لأحد اختاره الله أن يرتكب هذا المقـوت ، أمـا التـوراة فقد نسبت إلى الأنبياء مايفيد بأنهم خانوا الأمـانة ، إذ ارتكبوا من الأعمال ما أتوا هم لتحذير الناس من ارتكابها ، وتصرفوا تصرفا يوحى بأن الله اختار من لايقوى على التزام ما أمر بتعليم الناس الالتزام به ، فنسبة الزنا إلى لوط افتراء على نبى الله ، ووصف لله بأنه عجز عن اختيار من لا يقع فى الفاحشة ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

فمنهـج القرآن الكريم واضح فى أنه ركز على ذكر ما يفيد الفردوالمجتمع ، وتنزه عن نسبة الكبائر إلى الأنبياء ، ففى ذلك تنزيه لله سبحانه وتعالى .

يعقوب عليـه الســلام :

ذكرنا فى قصة إبراهيم عليه السلام : أن الله بشر امرأته باسحاق ، ومن ورائه يعقوب ، يقول الله تعالى :

« **فبشرناها باسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب** » [هـود : ٧١] .

ويدل قوله تعالى : « ومن وراء » أن يعقوب ليس ابن إبراهيم ، بل حفيده ، أى أنه ابن إسحاق ، وعليه فيمكن القول بأن يعقوب هو ابن إسحاق بن إبراهيم

عليهم السلام . وهذا النسب هو من الحالات النادرة التى يمكن استخلاصها من القرآن الكريم حسب ترتيب الأحداث ، وتركيب الآيات التى تحدثت عن هذه السلسلة من النسب .

لكن لم يرد فى القرآن الكريم ما يفيد أنه كان له أخ يكبره ويسمى : « عيسو » كما ذكرت ذلك التوراة ، إذ ورد فيها أن عيسو كان يكبر يعقوب ، وأنه كان محبوبا لدى أبيه أكثر من يعقوب ، إلا أن أمهما كانت تفضل يعقوب على عيسو ، فاحتالت على إسحاق لتنتزع منه الوصية ليعقوب ، وذلك أن إسحاق ـ لما كبر وذهب بصره ـ أراد أن يدعو لولده عيسو ويبارك له ، فطلب منه أن يصيد صيدا ويهيئه للأكل ، حتى إذا أكل منه خصه بدعواته ، فعلمت رفقة ـ زوجته وأم عيسو ويعقوب ـ بذلك ، فأرادت أن تنتزع البركة من إسحاق ليعقوب بدلا من عيسو ، فأمرت يعقوب بأن يسرع بصنع طعام لأبيه ، فصنعه من جدى ذبحه ، وقربه إلى أبيه موهما له أنه عيسو ، وساعدته أمه فى هذا الأمر ، فأكل إسحاق ودعا له . فحقد عيسو عليه ، فهرب يعقوب إلى خاله « لابان » ، فأقام عنده يخدمه فى نظير أن يزوجه بابنته « راحيل »، ولكن خاله خدعه، فأدخله على ابنته « ليئة » التى لايريدها يعقوب ، فلما كلم خاله فى ذلك، طلب منه أن يخدمه عشر سنين أخرى ليزوجه راحيل ، فوافق على ذلك وخدمه عشر سنين وتزوج راحيل ، كما تسرى أيضا بجاريتيها : « زلفا » و « بلها » ، وأنجب منهن أولاده الذين بلغوا اثنى عشر . وسوف نتحدث عنهم عند الكلام على يوسف عليه السلام .

هذا هو ملخص الحديث عن يعقوب عليه السلام فى التوراة ، ومنه يتبين أن التوراة نسبت إلى الأنبياء أشياء لاينبغى نسبتها إليهم . فقد نسبت إلى يعقوب ـ وهى نبى ـ اشتراكه مع أمه فى خداع أبيه ، ليحصل منه على البركة ، كما أوضحت أنه وقع فى خداع خاله ، عندما أدخله على بنت غير الذى اتفق معه على الزواج بها ، وهكذا تمتلىء قصته بالخداع ، سواء كان هو المخدوع ، أو هو الذى اشترك فى خداع آخر ، وهذا لايتفق أيضا مع مقام الأنبياء .

كذلك ذكرت التوراة قصة خيالية ، تفيد أن الله « ظهر ليعقوب حين جاء من « فَدَّان أرام » وباركه ، وقال له : اسمك يعقوب ، لايدعى اسمك فيما بعد يعقوب ، بل يكون اسمك إسرائيل » [تكوين : ٣٥ : ٩ - ١٠] .

لم يذكر القرآن الكريم شيئا من ذلك كله ، لأنها تتنافى مع منهجه ، كما أنها لاتتفق وجلال الله ، ولا تناسب مقام النبوة ، فالله لم - ولن - يظهر لأحد ، كما أن الأنبياء منزهون عن ارتكاب ما تنسبه التوراة إلى يعقوب ، فلم يخدعوا أحدا ، ولم يشاركوا فى حيلة لانتزاع شىء من أحد ظلما، كما فعل يعقوب عليه السلام مع أبيه ، وإنما جاء ذكر يعقوب فى القرآن الكريم ست عشرة مرة ، تدور كلها حول بشارة الله إبراهيم به ، واصطفائه نبيا وإنزال الوحى عليه، مثل قوله تعالى :

« وأوحينا الى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط » [النساء : ١٦٣] .

وقوله :

« قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل ، وإسحاق ويعقوب والأسباط » [آل عمران : ٨٤] .

وقوله :

« فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب » [مريم : ٤٩] .

وقوله حكاية عما أمر به أولاده وتنفيذهم أمره :

« ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغنى عنهم من الله من شىء إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لايعلمون » [يوسف : ٦٨] .

الى آخر الآيات التى تحدثت عن يعقوب ، وليس فيها خبر واحد عما ذكرته التوراة عنه بشأن اشتراكه مع أمه فى خداع أبيه ، أو وقوعه فى شراك خداع خاله ، أو ظهور الله له، لأنها كلها أمور لا تفيد فى مجال حوار القوم فى قضايا التوحيد ،

ومسائل الدعوة إلى الله ، فضلا عن أنها لاتتفق مع نظرة القرآن الكريم إلى الأنبياء ، تلك النظرة التى تضفى عليهم ثوب الصدق والعفة والأمانة ، ومع ذلك لاترفعهم عن بشريتهم ، ولا تنزل الله من عليائه .

أما اسم إسرائيل ، فقد ورد فى القرآن الكريم مرتين ، الأولى فى قوله تعالى :

« كل الطعام كان حلا لبنى اسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة » [آل عمران : ٩٣] .

والثانية فى قوله :

« . . . أولئك الذين أنعم عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا » [مريم : ٥٨] .

ولم يرد نص واحد يفيد على سبيل التأكيد أن يعقوب هو اسرائيل ، إلا أن علماء التفسير رأوا أن يعقوب هو إسرائيل ، وإن كانوا لم يبينوا وجه ازدواج التسمية .

وورد « بنو اسرائيل » فى القرآن الكريم أكثر من أربعين مرة، حيث أطلق على اليهود ، لكن لم يتضح أيضا من هذه النصوص أن المقصود به أنهم أبناء يعقوب ، ولهذا لانستطيع الجزم إن كان يعقوب هو إسرائيل أم لا ، إلا أننا نميل الى عدم الارتباط بين الاسمين ، لأن الآيات التى وردت أسماء الانبياءفيها ، ورد فيها اسم يعقوب ، ولم يذكر اسرائيل فيها . والحديث عن الذرية بأنهم بنو اسرائيل لايدل دلالة قاطعة على أن المقصود باسرائيل هو يعقوب عليه السلام ، فقد يكون شخصا آخر غيره .

يوسف عليه السلام :

لم ترد فى القرآن الكريم قصة من قصص الأنبياء مكتملة العناصر، ومسلسلة الأحداث مثل قصة يوسف عليه السلام ، فقد رويت قصته بأكملها فى سورة سميت باسمه ، ولم يذكر اسمه فى سورة غيرها إلا فى موضعين وبصورة عابرة .

الأولى : فى سورة الأنعام ، حيث يقول الله تعالى :

« وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ، ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ، ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين » [الأنعام : ٨٣ ـ ٨٤] .

فذكر اسمه فى هذه الآية جاء فى معرض بيان ما أنعم الله على إبراهيم عليه السلام من الرسالة ، ومن الذرية ، التى منها يوسف ، إذ أن نسبه يرجع إليه ، فهو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام .

أما الموضع الثانى الذى ذكر فيه اسمه خارج السورة التى سميت باسمه ، فهو فى سورة غافر حيث يقول تعالى :

« ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فمازلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ، كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب » [غافر : ٣٤] .

فالمخاطب فى هذه الآية هو فرعون وقومه ، وكان ذلك فى معرض الجدل والحوار الذى وقع بين موسى وبينهم حول عبادة الله وحده .

فهذان هما الموضعان اللذان ذكر فيهما يوسف عليه السلام ، وما عدا ذلك من أخباره ، فقد جاء فى سورة واحدة سميت باسم : « سورة يوسف » . وعلى الرغم من اكتمال عناصر القصة فيما روى عنه فى هذه السورة ، إلا أنها لم تأخذ شكل القصة المتعارف عليه فى المجتمعات البشرية ، أى أنها لم تبن بناء دراميا، كما هو معروف فى الآداب الإنسانية ، بل اقتصر فيها فقط على ما يدعو إلى العظة والاعتبار، وإلى ما تستدعى ظروف الحوار مع المشركين ذكره ، فلم تذكر التفريعات التى لافائدة منها ، كما لم ينص فيها على الحالات والأوصاف التى لاتؤدى إلى فائدة فى مقام التذكير بنتائج الأعمال التى يقوم بها الإنسان فى حياته ،

فيعاقب على ما ارتكب من إثم وفاحشة ، ويجازى على ما قدمه لذويه من طيبات فى سلوكه وتعامله معهم .

الرؤيـــــا :

بدأت السورة بإخبار محمد صلى الله عليه وسلم بأنه سيقص عليه أحسن القصص مما لم يعرفه ، ولم يكن له به علم من قبل ، فيقول تعالى :

« نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين » [يوسف : ٣] .

ثم يبدأ سرد القصة بما رآه يوسف فى منامه من أن أحد عشر كوكبا والشمس والقمر سجدوا له ، فيقول :

« إذ قال يوسف لأبيه ياأبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين * قال يابنى لاتقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين * وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم » [يوسف : ٤ - ٦] .

ما المراد بأحد عشر كوكبا ؟

يقول المفسرون : إن المراد بها هم إخوته ، إذ كان له أحد عشر أخا وهم : « رأوبين » ، « وشمعون »، « ولاوى » ، « ويهوذا » ، « ويساكر » ، « وزبولون » ، وهؤلاء من زوجته : ليئة . ويوسف، « وبنيامين » ، وهما من زوجته : راحيل . « ودان » « ونفتالى » ، وهما من جارية أهدتها له زوجته : راحيل ، وكانت تسمى : « بلها » . « وجاد » ، « وأشير» ، وهما من جارية أهدتها له زوجته : « ليئة » ، وكان تسمى : « زلفا » .

ومما لاشك فيه أن المفسرين اعتمدوا فى تحديد أسماء إخوته وأمهاتهم على التوراة ، حيث ذكر خبرهم هناك بالتفصيل ، أما القرآن الكريم فلم يذكر ذلك ،

لأنه لافائدة من ذكر هذه الأسماء فى معرض تذكير كفار قريش ، بما وقع للأنبياء السابقين مع أقوامهم .

كذلك ذكرت التوراة فروعا أخرى فى هذا المقام ، وأغفلها القرآن الكريم لنفس السبب الذى ذكرناه ، منها :

ـ أن عمر يوسف يوم أن رآى هذا المنام كان سبع عشر سنة .

ـ وأنه أخبر أباه بالمنام أمام إخوته ، وأن أباه انتهره على هذاالقول ، فقال له متهكما : « وما هذا الحلم الذى حلمت ، هل نأتى أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض » .

فإذا كان التعبير بأحد عشر كوكبا كناية عن أخوته ، فان الشمس والقمر كناية عن أبيه وأمه ، وليس سجودهم له عبادة ، وإنما هو تعبير عن انضوائهم تحت لوائه ، ودخولهم فى زمرة أتباعه ، وهذا هو ما حدث بعد ذلك مما سنبينه .

كيد الأخوة :

كان يوسف عليه السلام أثيرا عند أبيه ؛ أحبه أكثر من إخوته، لِمَا رأى فيه من صلاح وتقوى ، ولما أحس فى نفسه بأنه سيكون له شأن ، وتأكد ذلك لديه عندما أخبره بما رآى فى منامه من سجود الكواكب الأحد عشر والشمس والقمر له ، أحس إخوته بهذا الإيثار ، فغاظهم ذلك وحقدوا على يوسف ، كما أحس يعقوب بالخوف على يوسف من حسد إخوته ، فحذره من إخبارهم بهذه الرؤيا حتى لايكيدوا له :

« يابنى لاتقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين » [يوسف : ٥] .

سيطر الحقد والحسد على إخوة يوسف، فدبروا مكيدة ليتخلصوا بها منه ، فذهبوا إلى أبيهم يرجونه أن يرسل يوسف معهم فى المرعى ليلعب . لكن يعقوب شك فى الأمر ، فأبى خوفا من أن يلحقوا به ضررا ، لأن إحساسه أوحى إليه بأنهم سيفعلون به شرا . ولكن تحت الإلحاح الشديد والوعد المؤكد بأنهم سيحافظون

عليه ويرعونه ، سمح لهم بأن يأخذوه معهم محذرا إياهم بألا يتركوه وحده حتى لايناله سوء أو ينزل به ضرر . ويصور القرآن الكريم هذا المشهد فى قوله تعالى .

« لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين * إذ قالوا ليوسف وأخوه (بنيامين : وهو الأخ الوحيد الشقيق له) أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفى ضلال مبين * اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين * قال قائل منهم لاتقتلوا يوسف وألقوه فى غيابت الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين » [يوسف : ٧ - ١٠] .

هذا هو مادار بينهم قبل أن يذهبوا إلى أبيهم ، ليطلبوا منه أن يرسل معهم يوسف ، ثم ذهبوا إليه ، فقالوا له :

« . . . يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون * أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون » [يوسف : ١١ - ١٢] .

لكن يعقوب أحس بما يدبرون ، إلا أنه لم يفصح عن ذلك لهم ، لئلا تتسع الهوة بين يوسف وإخوته ، فذكر لهم سببا آخر لخوفه عليه :

« قال إنى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون » [يوسف : ١٣] .

فردوا عليه قائلين :

« . . . لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا اذاً لخاسرون » [يوسف : ١٤] .

ثم يحكى القرآن الكريم ماتلا ذلك من أحداث ، فيقول تعالى :

« فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون * وجاءوا أباهم عشاء يبكون * قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين * وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون » [يوسف : ١٥ - ١٨] .

ويختلف القرآن الكريم عما قصته التوراة فى بعض النقاط ، فهو يذكر ـ كما ظهر من الآيات السابقة ـ أنهم هم الذين سألوا أباهم إرسال يوسف معهم ، أما التوراة فتقـول : إن يعقـوب هو الذى أرسل يوسف إلى إخوته من تلقاء نفسه ، ليذهب إليهم فى المـرعى ثم يعود ويطالعه بأحوالهم ، فلما جاء إليهم قالوا : قد جاء صاحب الأحلام ، ثم تشاوروا فيما يجب عمله للتخلص منه فرأوا قتله ، لكن « رأوبين » عارض ذلك وأشار عليهم بطرحه فى البئر ، فوافقوا على ذلك ، وألقوه فيها بعد أن نزعوا قميصه ووضعوا عليه دماً ، ليوهموا أباهم أن الذئب قد أكله .

لكن مجريات الأحـداث تشـير إلى أن ما جاء فى القـرآن الكـريم أقرب إلى القبول ، لأن يوسف كان محبوبا من أبيه ، فكان يؤثره على غيره من إخوته ، وكان يعلم أنهم حاقدون عليه لهذه الأثرة ، فليس من المعقول أن يرسله إليهم من نفسه وهو يعلم ذلك ، خوفا عليه من أن يصيبوه بسوء ولو بالضرب والإهانة . أضف إلى ذلك أن العقل يستبعد أن يرسل أب ابنه الأثير لديه وحده فى الصحراء ، دون أن يخشى عليه من السباع الضارية ، أو يخاف عليه من أن تأخذه إحدى القوافل التى تجوب الصحراء أسيرا ، فتبيعه ليصبح عبدا مملوكا .

وفى هذا الفصل من القصة يبين الله سبحانه وتعالى ما يفعل الحقد والحسد ، إذ يدفعهم إلى ارتكاب الجرائم ، حتى ولو كان فى الأخ الذى له حقوق الرحم ، كذلك يبين الله للناس أنه إذا أراد شيئا فلا يمكن لمخلوق كائنا من كان أن يقف ضد هذه الارادة ، فلا تستـطيع قوة فى الأرض أن تمنـع حدوث ما أراده الله ؛ فهـو قد وعد يوسف بشىء . . فلم يستطع إخوته أن يحولوا دون ذلك بقتله ، فالله قد دفع أحد إخوته ليمنع ذلك حتى تتحقق مشيئته . .

ويقول بعض العلماء : إن ما فعله إخوة يوسف كان مقدمة لتحقيق وعد الله له ، لأنه لو لم يلق فى الجب ما وصل إلى عزيز مصر ، ولما تقلد منصب الوزارة فيها ، الأمر الذى كان سببا فى تحقيق حلمه .

وصوله إلى مصـــــر :

لم يكن منهج القرآن الكريم فى الحديث عن يوسف عليه السلام أن يذكر كل ما حدث بفروعه ، وجزئياته ، أو أن يذكر أسماء الذين كانوا أطرافا فى الأحداث التى وقعت له ، وإنما ذكر من الأحداث ما يؤدى إلى العظة والاعتبار ، وما يبين أن الله أراد وقوعها، لتؤدى إلى تحقيق ما كشف الحجاب عنه ليوسف عليه السلام فى منامه ، وهو التمكين له فى الأرض .

ولهذا نراه يذكر أنه بعد أن ألقاه إخوته فى الجب جاءت قافلة ، فأرسلوا واردهم ليأتى لهم بماء من هذه البئر ، فأدلى دلوه فيها ، فتعلق به يوسف ، فلما نزع الدلو وهو يحسبها أنها قد امتلأت بالماء، فاذا هو أمام غلام وسيم قد تعلق بها ، فاستبشر الرجل وصاح فى قومه : يابشرى هذا غلام ، فأخذوه وباعوه فى مصر . وألقى الله محبته فى قلب من اشتراه، فأوصى به امرأته خيرا ، راجيا أن ينفعه ، أو يتبناه .

إقرأ معى قول الله تعالى معبرا عن هذه الأحداث :

« وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يابشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون * وشروه (أى باعوه) بثمن بخس دراهم معدودة ، وكانوا فيه من الزاهدين * وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون » [يوسف : ١٩ - ٢١] .

فليس فى نص القرآن الكريم اسم القافلة التى انتشلته من الجب ، ولا وصف لها يساعد على معرفة هوية رجالها ، لأن معرفتهم ليست من العناصر التى يترتب عليها بيان الغرض من سرد القصة ، وكذلك معرفة من اشتراه . أما مصر فقد ذكرت كى يتضح أن إمارته ستكون فيها، وأن إخوته فيما بعد سيقصدونها لتلمس أسباب العيش والبحث عن الطعام فى الوقت الذى عم فيه الجدب المنطقة كلها . فكان فى ذكرها فائدة .

كذلك لم يذكر اسم من اشتراه ، وإن كان سياق الحديث فيما بعد يظهر أنه كان عزيزا فى مصر ، أى أنـه كان فى مركـز مرمـوق فى الدولة، دون تحديد هذا المركز بالضبط ، فتحديد منصبه لايتعلق به كبير عرض . وهكذا خلت القصة من الحشو غير المفيد فيما ترمى إليه من أهداف ، ومن هنا كان تعبير القرآن الكريم موجزا إيجازا يعجز الإنسان عن الإتيان بمثله .

فالتوراة حين تعرضت لهذا الفصل من القصة ذكرت : أن إخوة يوسف بعد أن ألقـوه فى الجب جلسوا للطعام ، ورأوا قافلة من الإسماعيليين تقصد مصر، فأشار يهوذا على إخوته أن من الأفضل أن يبيعوا يوسف للإسماعيليين ، وقبل أن ينفذوا هذه الخطة ، أخذه من الجب رجال من المديانيين وباعوه للإسماعيليين بعشرين فضة ، ولهذا لم يجده « رأوبين » فى البئر ، حين ذهب إليه ليحضره ويبيعه للإسماعيليين .

وتمضى القصة فى التوراة فتبين أن الإسماعيليين باعوه لرئيس الشرطه فى مصر ، ولم تبين البلد الذى كان عاصمة مصر آنذاك ، غير أنها ركزت على وضع يوسف الجـديد ، فروت أن « سيده رأى أن الرب معه ، وأن كل ما يصنع كان الرب ينجحه بيده ، فوجد يوسف نعمة فى عينيه وخدمه ، فوكله على بيته ودفع إلى يده كل ما كان له . وكان من حين وكله على بيته وعلى كل ما كان له أن الرب بارك بيت المصرى بسبب يوسف ، وكـان بركـة الرب على كل ما كان فى البيت وفى الحقل . فترك كل ما كان له فى يد يوسف ، ولم يكن معه يعرف شيئا إلا الخبز الذى يأكل » [تكوين : ٢٩ : ٣-٦] .

وهنا يظهر الفرق جليا بين أسلوب القرآن الكريم وبين ما جاء فى التوراة ، فالتوراة أسهبت فى أشياء لافائدة من الإسهاب فيها ، فهى تذكر اسم القافلة ، وأكل إخوانه بعد إلقائه فى الجب ، وتشاورهم فى بيعه ، والتقاط قافلة أخرى له وبيعه للأولى ، وذهاب أخيه « رأوبين » إلى الجب وعدم وجوده فيه ، وتمزيق ثيابه حزنا على ذلك .

يترك القرآن الكريم كل هذا الحشو ، ولا يذكر سوى الخطوط الرئيسية للأحداث، وهى التى ستؤدى إلى ما تلاها من فصول القصة ، ويعبر عنها بأسلوب يعيه القارىء دون ملل : التقاط قافلة له من الجب ، وبيعه لأحد المصريين .

أما حب سيده له ، وإكرامه إياه ، وجعله رئيس الخدم ، فقد صاغه القرآن الكريم بأسلوب يرفع من مكانة يوسف ، فلم يذكر أنه كان رئيسا للخدم ، لأن ذلك وإن كان تكريما له مع هذه الطائفة ، إلا أنه يوحى بهبوط مكانته الاجتماعية . ولهذا عبر عنه القرآن الكريم بما يفيد ، أنه كان ذا نفوذ فى محيطه بقوله :

« **وكذلك مكنا ليوسف** » .

دون أن يبين نوعية هذا المحيط وفى ذلك تكريم له . أضف إلى ذلك أن القرآن الكريم أشار إلى ناحية غفلت عنها التوراة ، وهو تذكيرنا بأن هذه كانت خطوة على طريق تحقيق حلمه ، وأنه علمه بذلك كيف تؤول الرؤى والأحلام، حيث يقول :

« **ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره** » .

أى أن أمره سينفذ ، وإن جاءت الأيام بما يدل ظاهريا على عدم تحقيق ما قدره ، فإلقاء إخوته فى الجب ، لم يحل دون أن يكون له شأن ، بل إن ذلك كان من الأسباب التى قدرها الله لتوصله إلى تحقيق ماوعده الله به فى المنام .

المـــــراودة :

استمرت حياة يوسف عليه السلام فى بيت سيده المصرى فترة من الزمن تسير سيرا طبيعيا ، إلى أن وقعت حادثة له شدت انتباه المحيطين به إليه ، ذلك أن امرأة سيده أرادت أن تتخذه عشيقا لها ، لما كان يتمتع به من صفات تميل إليها قلوب النساء ، فاستدرجته إلى مخدعها وراودته عن نفسه ، فأبى خوفا من عقاب الله ، ووفاء لسيده الذى أكرمه ، ففضله على سائر خدمه .

كان اهتمام القرآن الكريم بذكر هذه الحادثة ، دون غيرها من الأحداث التى وقعت ليوسف فى بيت سيده لعدة أسباب ، منها :

ـ بيان أن الله عصم الأنبياء من ارتكاب الكبائر ، لأنهم قدوة للناس، فينبغى أن يكونوا منزهين عن الوقوع فى مثل هذه المعاصى .

ـ وتعليم الناس أن الايمان بالله لايتم إلا إذا كان قولا وعملا ، فالقول هو الاعتقاد بوحدانية الله ، والعمل : الامتثال لأوامره واجتناب نواهيه ، فامتناع يوسف عليه السلام عن ارتكاب الفاحشة مع امرأة سيده، على الرغم من أنه كان بعيدا عن أعين القوم ، هو ترجمة عملية ، لما وقر فى قلبه من إيمان بالله ، واعتراف بربوبيته الذى عبر عنه ، بقوله :

« **إنه ربى أحسن مثواى إنه لايفلح الظالمون** » [يوسف : ٢٣] .

كذلك تدل هذه الحادثة على وفاء يوسف لسيده ، إذ أن امتناعه عن ارتكاب الفاحشة مع امرأته تعبير عن أمانته له ، وإخلاصه لمن كرمه ، ورفع منزلته بين عبيده، وتلك خصلة من أهم الخصال التى حرص الأنبياء على تعليم قومهم إياها ، لأنها من العناصر الرئيسية التى تقوم عليها بناء المجتمعات الإنسانية ، كما أنها تلعب دورا هاما فى تماسك بنيان المجتمعات ، وقوة مقاومتها لعوامل الضعف والانهيار .

وجاء التعبير القرآنى عن هذا المشهد الغرامى آية فى تعليم الناس كيفية التعبير عن مثل هذه المواقف ، بعيدا عن الإثارة ، أسلوب ليس فيه إسفاف ، ولا يحتوى على كلمات تخدش الحياء ، أو ألفاظ خارجة عن حد الأدب ، يقول تعالى :

« **وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ، قال معاذ الله إنى ربى أحسن مثواى إنه لايفلح الظالمون * ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين** » [يوسف : ٢٣ - ٢٤] .

لكنها أصرت على أن يفعل ما طلبت منه ، ففر من أمامها ، طالبا الخروج من الباب فلحقت به وجذبته من قميصه فقطعته . وفى هذه اللحظة قابلها زوجها عند الباب، فأسرعت تشكو إليه : أن يوسف طلب منها الفحشاء، فكانت كما قال المثل :

« ضربني وبكى ، وسبقني فاشتكى » .أرادت أن تثير حفيظة زوجها على يوسف نكاية فيه ، فادعت أنها هى الضحية ، أى أن يوسف هو الذى أراد الاعتداء عليها ، ولكن الله ساق ليوسف رجلا حكيما أنقذه من هذا الذى أرادت أن تضعه فيه ، ففصل فى هذه الدعوى بأسلوب يبين الحق من الباطل ، ذلك أنه رأى أنه لو كان القميص مقطوعا من الأمام فهى صادقة فى دعواها ، لأن هذا الوضع ينبىء عن أنه هو الذى كان يريد أن يفعل الفاحشة بها، ولما قاومته انقطع قميصه ، أما إذا كان قطع القميص من الخلف فهى كاذبة وهو صادق ، لأنه يدل على أنه كان يريد الهروب منها ، فلما أمسكت به كان موضع الإمساك من الخلف ، اسمع قول الله تعالى فى تصوير هذا المشهد :

« واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب اليم * قال هى راودتنى عن نفسى وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين * وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين * فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم * يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين » [يوسف : ٢٥ - ٢٩] .

دخولـه السـجن :

برىء يوسف عليه السلام من التهمة التى أرادت امرأة العزيز إلصاقها به ، فكان من الطبيعى أن تعود حياته فى بيت سيده إلى طبيعتها ، لولا شيوع الخبر فى المدينة ، فقد لاكته الألسن ، وروجته أحاديث مجالس النساء ، إذ اتخذ مادة لسامرتهن وفكاهتهن ، ولومهن عليها ، فدوى صدى هذه الأحاديث فى آذان امرأة العزيز ، فعقدت العزم على إسكاتهن وإخراسهن ، لابتكذيب الخبر رسميا ، ولا بالتلويح بالتهديد لمن يعمل على ترويج الخبر ، بل بوضعهن فى موضع يجعلهن يتعاطفن معها ، ويلتمسن لها العذر فى إقدامها على مراودة هذا الفتى ، فأرسلت إلى مجموعة ممن يروجن هذا الحديث ، وأعدت لهن جلسة مريحة ،

وقـدمت لهن طعاما يحتاج إلى القطع بالسكين ، قدمت لهن الأكل وأعطت كل واحدة سكينا ، وحين بدأن الأكل ، وشرعن فى استعمال السكين أمرت يوسف عليه السلام أن يخرج عليهن فبهرهن جماله ، لدرجة جعلهن لايعين ما يفعلن بما فى أيديهن من سكاكين ، فلم يحسن قطع الفاكهة التى فى أيديهن ، فصرن يقطعن أيديهن بدلا من قطع الفاكهة ، لأن الانبهار بجماله ألهاهن عن الانتباه إلى مافى أيديهن ، وجعل إحساسهن كله مركزا فى مطالعة جمال هذا الفتى ، وتعجبن من ذلك قائلين :

« **ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم** » [يوسف : ٣١] .

يصور القرآن الكريم هذا المشهد فى أجمل تعبير فيقول تعالى :

« **وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها فى ضلال مبين * فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئا وآتت كل واحدة منهن سكينا وقال اخرج عليهن ، فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن ، وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا الا ملك كريم** » [يوسف : ٣٠-٣١] .

وهنا وجدت امرأة العزيز الفرصة سانحه لتبرر موقفها ، وتبين لهن أن عشقها له خارج عن إرادتها ، فهو شخص لا تستطيع أى امرأة - مهما كانت عفيفة - مقاومة الهيام به ، والميل إليه ، فقالت :

« **فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين** » [يوسف : ٣٢] .

فلم تكتف بظهور كذبها فى اتهامه فى المرة الأولى ، بل أعلنت فى صراحة أمام هذه المجموعة من النساء أنها تريده . ولما شاع ذلك فى المدينة رأى العزيز - بناء على مشورة من حوله - أن ينقذ الموقف ليبعد العار عن أهله ، ويخرس ألسنة الناس عنه وعن زوجته ، فرأى أن يدخل يوسف السجن بتهمة كاذبة ، وهو أنه أراد الاعتداء على شرفه . واتخذت كل التدابير والإجراءات التى تقنع الناس أن يوسف

زج به فى السجن ، لأنه آثم كاذب فى ادعاء البراءة ، وأن زوجة العزيز بريئة مما قذفت به . ويعبر القرآن الكريم عن هذا ، فيقـول :

« **ثم بدالهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين** » . [يوسف : ٣٥] .

وفى الآية اشـــارتان :

الأولى : قولـه : « من بعد ما رأوا الآيات »، وهو بيان أنهم اقتنعوا بصدق يوسف وكذب امرأة العزيز ، فقد كان هذا واضحا للعزيز ولمن حوله من المقربين ، الأمر الـذى كان يقتضى أن يوقع العقاب على امرأة العزيز لفجورها واتهامها يوسف كذبا ، والاحسان إلى يوسف لأمانته وشرفه ، لأنه صان أمانة سيده ، وحافظ على شرفه ، ولكن العكس هو الذى حدث ، فقد تركت امرأة العزيز دون عقاب ، وعـوقب يوسف ، وكـان هذا مثـلا لما يجرى فى المجتمع الإنسانى عندما تغيب الفضيلة عنـه ، ويضيع الحق بين أهله ، وتـطمس معـالم العـدالة فى مؤسساته الرسمية ، بل وعلى أيدى الذين يجب عليهم أن يحموها ، ويحافظوا عليها ، فهم رمزها فى المجتمع ، فاذا ضاعت على أيديهم ، فإن ذلك ينذر بانهيار المجتمع .

والثانية : أنهم أدخلوه فى السجن ليمكث فيه فترة ، حتى ينسى الناس هذه الفضيحـة يشـير إلى ذلك قوله تعالى : « حتى حين » ، لكنهم نسوه فى السجن، فمكث مدة طويلة كان لها أثر كبير فى تحويل حياته ، وفى بلوغه المنصب الكبير الذى تولاه بعد خروجه من السجن .

إن من يفكر فى قصة يوسف مع امرأة العزيز ، ودخوله السجن يتبادر إلى ذهنه عدة تسـاؤلات :

أى أحداث تلك التى تسببت فى انتزاعه من بين أحضان أهله ، وإحضاره إلى مصر فى بيت العزيز بالذات ، ثم محاولة امرأة العزيز معه ، تلك المحاولة التى أدت الى إدخاله السـجن ؟

أهى مصـــادفة ؟

أم تدبير الحكيم العليم ليتحقق حلمه الذى رأى فيه أحد عشر كوكبا والشمس والقمر ساجدين لــه ؟

وكيف تكون هذه الأحداث مقدمة تؤدى إلى النتيجة التى أرادها الله ، وهى تحقيق الحلــم ؟

ذلك ما ســـــوف نبينـــه .

تفســـيره الرؤى فى السـجن :

ذكرنا فيما سبق أن يوسف دخل السجن ظلما ، وأن ذلك أمر يدعو إلى الحيرة ، إذ كيف يكون مبشرا بالنبوة ، ثم يتركه الله سبحانه وتعالى يدخل السجن على هذا النحو ، لكن عندما نعرف سير الأحداث التى تلت ذلك ، يتبين لنا أن دخوله السجن كان حلقة من الحلقات التى ستوصله إلى تحقيق الحلم الذى رآه فى منامه ، وهو سجود أحد عشر كوكبا والشمس والقمر له ، فقد ارتفع شأنه بين المسجونين بنصائحه ووعظه لهم ، وجهاده فى تعليمهم ما ينفعهم فى دينهم ، ويحفظ عليهم آدميتهم . وبـذلك اشتهر بين نزلاء السجن بالورع والتقوى والصلاح ، فصار مرجعا لهم ، يسألونه عما يعن لهم فى مجال الدين ، وفيما يصادفون من أسرار فى عالم الروحانيـــات .

كان معـه فى السجن فتيان ، رأى كل واحـد منهما رؤيا فى منامه ، فلم يجدا سوى يوسف يسألانه تعبير هذه الرؤيا ، لأنه كان معروفا بينهم بأنه على علم بمعرفة مثل هذه المسائل . فقال أحدهما له : إنه رأى أنه يعصر خمرا فى كأس الملك ، أى أنه يتنـاول العنقـود من العنب ويعصره فى كأس الملك ، فقال له يوسف : إن ذلك إشارة إلى أنك سوف تخرج من السجن وستقوم بسقاية الملك .

واستفسر منه الآخر عما رآه فى منامه من أنه يحمل فوق رأسه خبزا ، والطير تأكل منه ، فأخبره يوسف بأنه سيصلب وتأكل الطير من رأسه .

عبر القرآن الكريم عن هذا أبلغ تعبير فى جمل قصيره موجزة فقال تعالى :

« ودخل معه السجن فتيان ، قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمرا وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين * قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمنى ربى إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون * واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون * يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار * ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يا صاحبى السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمرا وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضى الأمر الذى فيه تستفتيان » [يوسف : ٣٦ - ٤١] .

رأى يوسف فى المسجون الذى سوف يخرج ويقدم الشراب للملك أملا يخلصه من السجن ، فرجاه أن يذكره عند سيده ، وكانت هذه هفوة - لأنه نسى أن يسأل ربه فقط لا أحد سواه - عاقبه الله عليها بأن أنسى الفتى هذه الوصية ، فلبث يوسف بضع سنين ، وعن ذلك يقول الله تعالى :

« وقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين » [يوسف : ٤٢] .

لبث فى السجن إلى أن حدث للملك حادث كان السبب فى خروج يوسف من السجن ، ذلك أن الملك رأى فى منامه سبع بقرات سمان تأكلهن سبع عجاف ، ثم رأى بعد ذلك رؤيا أخرى تمثلت له فى سبع سنابل خضر تلفحها سبع يابسات خلفها فتحرقها .

انزعج فرعون من هذين المنامين ، فجمع كل من له علم بهذا الجانب فى دولته ، وطلب منهم تأويل هذه الرؤيا ، فلم يجد جوابا عندهم سوى تأكيدهم بأنها أضغاث أحلام ، وهم ليسوا على دراية بتأويل الأحلام . وعندئذ تذكر ساقى

الملك يوسف ، وتراءت أمام عينيه الحقيقة المؤكدة ، وهى أن يوسف هو القادر على تأويل الأحلام ، فقد صدق ما قاله له فى السجن ، عندما ما أوَّل له منامه ، فتقدم إلى الملك ، وروى له قصته مع منامه ومع يوسف ، فأرسله الملك إلى السجن ليسأل يوسف عن تأويل ما رأى فى المنام ، فلما قص الخادم على يوسف ما رآه الملك ، قال يوسف :

إن مصر يأتى عليها سبع سنين مخصبات ، تجود الأرض فيها بالغلات الوافرة ، تليها سبع سنين مجدبة ، تأتى على المخزون من السنين السبع التى تقدمتها، ثم بعد ذلك تأتى أعوام الخصب والرغد . ولذلك يجب عليهم أن يقتصدوا فى سنى الخصب السبع ، فيخزنوا ما فضل عن القوت فى سنبله، حتى إذا حل الجدب وجدوا فى مخازنهم ما يسدون به رمقهم .

وجاء تعبير القرآن الكريم عن هذا فى قوله تعالى :

« وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يأيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون * قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين * وقال الذى نجا منها وادّكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون * يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون * قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون * ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلهن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون * ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون »

[يوسف : ٤٣ - ٤٩] .

فلما سمع الملك هذا التأويل أدرك أنه هو المناسب ، إذ يتفق مع ما ترمز إليه الرؤيا ، فطلب أن يأتوه بيوسف ، لكن يوسف أبى أن يخرج من السجن، إلا بعد أن يوضح للناس وللملك أنه برىء من التهمة التى اتهم بها ، حتى لايتعلق أثرها به طول حياته ، فطلب من الرسول أن يعود إلى الملك ويسأله عن النسوة اللاتى

قطعن أيديهن ، فطلبهن الملك واستفسر منهن عن الحقيقة ، فشهدن بأنهن لايعلمن عن يوسف سوءا ، وحينئذ اعترفت زوجة العزيز بما حدث ، فأقرت بالسوء والكيد له ، يقول تعالى :

« وقال الملك ائتونى به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن ربى بكيدهن عليم * قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قال امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين * ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين * وما أبرى نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم » [يوسف : ٥٠ - ٥٣] .

توليه أمر خزانة الدولة :

لم تذكر التوراة أن يوسف طلب - حين استدعاه فرعون من السجن - أن يُبرَّأ مما لصقته به امرأة العزيز ، بل اقتصرت على أن رئيس السقاة أخبر فرعون بأن يوسف قادر على تعبير الرؤيا ، لأنه عبر رؤيا له ولزميله أثناء وجودهما معه فى السجن ، وجاءت الأحداث وفق ما قاله تعبيرا للرؤيتين .

ثم تستمر التوراة فى بيان ما حدث بين فرعون ويوسف بعد تعبيره الرؤيا له فتقول : « إن فرعون قال لجنوده : هل نجد مثل هذا رجلا فيه روح الله ؟ ثم التفت إلى يوسف وقال له : بعد ما أعلمك الله كل هذا ليس بصير وحكيم مثلك ، أنت تكون على بيتى ، وعلى فمك يقبل شعبى ، إلا أن الكرسى أكون فيه أعظم منك ، وقال له أيضا : قد جعلتك على كل أرض مصر . وخلع خاتمه من يده وجعله فى يد يوسف وألبسه ثياب بوص ، ووضع طوق ذهب فى عنقه ، ونادوا على الناس أمامه بالركوع له ، وجعله على كل أرض مصر ؟ وصاحب الأمر والنهى والأمر المطاع والكلمة النافذة » .

أما القرآن الكريم فيعبر تعبيرا موجزا جامعا لكل ما يرفع قدر يوسف عند فرعون ، موضحا الحكمة فى توليته هذا المنصب ، فيقول تعالى :

« وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى » .

أى أن الملك أراد أن يخلص نفسه من وزر إدخال يوسف السجن . وبتعبير أوضح : أراد فرعون أن يعتذر ليوسف عما لحقه من ضرر ، نتيجة إلقائه فى السجن ، بسبب اتهام كاذب ، وجاء التعبير عن هذا الاعتذار فى صورة منحه مكانة سامية بين من حوله من المستشارين ورجال الدولة ، إذ جعله من المقربين إليه ، يقول تعالى مخبرا عن هذا :

« فلما كلمه (أى فلما مثل يوسف أمام فرعون وكلمه) قال : (أى فرعون) إنك اليوم لدينا مكين أمين » .

وهنا وجد يوسف الفرصة سانحة، ليثبت جدارته وقدرته على إنقاذ الشعب مما ينتظره من شدة القحط وهول المجاعة ، وعن طريق هذا العمل يبلغ رسالة الهدى إلى الناس ، كى يتبعوا طريق الله ، فيبنوا المجتمع على أساس من التقوى والطهارة ، فقال للملك :

« اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم » .

تولى يوسف أمر الخزائن، فمكن الله له بذلك فى الأرض ، وذلك بيان لقدرة الله ، وتحقيق وعده ،.حتى يتعظ الإنسان ، ويؤمن بأن أمر الله نافذ ، مهما تراءت ظواهر الأحداث بصورة تجعل من المستحيل - عقلا - وقوعه ، ذلك أننا لو طبقنا مقاييس الحياة على الأحداث التى مرت بيوسف ، لأبت المقاييس المنطقية أن يصل من يمر بها إلى مرتبة الوزارة فى دولة قائمة على أساس السلم الطبقى . لكن إرادة الله لاتقف أمامها أمثال تلك الظروف والملابسات ، إذ جعلها الله وسيلة لتحقيق حلم يوسف الذى قصه على أبيه ، لأنه سبحانه يعطى ما شاء لمن يشاء ، دون أن يتوقف ذلك على مقاييس منطقية ، أو يكون ذلك خاضعا لنواميس عادية ، فقد أخرج يوسف من السجن بعد أن برىء من التهمة التى دخل فيه بسببها ، ورفعه فجأة إلى مرتبة الوزارة فى بلد لايرقى فيه إلى هذا المنصب ، إلا من قطع سلما طبقيا طويلا ، يقول تعالى :

« وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من شاء ولا نضيع أجر المحسنين * ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون » [يوسف : ٥٦ - ٥٧] .

أدار يوسف أمر الخزائن إدارة حكيمة ، فوجد الناس عنده طعامهم فى وقت أجدبت فيه الأرض ، إذ كانوا يفدون إليه ليشتروا ما يحتاجون إليه لطعامهم ، وكان من بين من وفد إليه إخوته ، فلما دخلوا عليه عرفهم - وهم لم يعرفوه - فأكرمهم ، ثم طلب منهم أن يأتوا إليه بأخ لهم من أبيهم - وهو أخوه الشقيق - وإلا فلن يعطيهم شيئا ، فرجعوا إلى أبيهم وأحضروا أخاهم . ويعبر القرآن الكريم عن هذا فيقول تعالى :

« وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون * ولما جهزهم بجهازهم قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أنى أوف الكيل وأنا خير المنزلين * فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون * قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون * وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون * فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون * قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين * ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغى هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير * قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتننى به إلا أن يحاط بكم فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل » [يوسف : ٥٨ - ٦٦] .

لقاؤه مع أبيه وإخوته :

أخذ إخوة يوسف أخاهم من أبيهم ونزلوا مصر ، فلما رآهم يوسف ومعهم أخوه الشقيق أنزلهم منزلا حسنا ، وأكرم ضيافتهم - وهم لايزالون لا يعرفونه - ثم أمر

رجاله بأن يجهزوا لهم الطعام الذى يريدونه ، ويضعوا صواع الملك فى رحل أخيه الشقيق ، فلما بدءوا طريق العودة ، فاجأهم وكيل يوسف مناديا عليهم وموبخا إياهم على ما صنعوا ؛ فقد قابلوا الإحسان بالكفر ، إذ سرقوا صواع الملك ، فأظهروا البراءة من هذا العمل ، وقالوا : من وجدت سقاية الملك فى رحله يؤخذ عبدا للملك ، ففتش رحالهم - مبتدئا بالكبير منتهيا بالصغير - فوجد السقاية فى عدل أخيه الشقيق ، فرجعوا إلى المدينة ودخلوا على يوسف مستعطفين مسترحمين ، فلامهم يوسف على ما فعلوا ، فاقترحوا عليه أن يأخذ أحدهم عبدا مكان أخيهم فأبى ، وقال : إن الذى وجد صواع الملك فى رحله يستعبد لى ، وأما أنتم فاذهبوا إلى بلادكم ، فاشتد غيظهم على أخيهم ، فقالوا : إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل، ويقصدون بذلك يوسف، فكتمها يوسف فى نفسه، ولم يبد شيئا لهم، لئلا يعرفونه ، بل قال : أنتم شر مكانا من هذا السارق ، والله يعلم إنكم كاذبون فى اتهامكم هذا .

لم يبين القرآن الكريم أصل اتهام يوسف بالسرقة ، لكن الرواة يذكرون أنه عندما ماتت أمه وهو صغير كفلته عمته ، وتعلقت نفسها به ، فلما اشتد قليلا ، أراد أبوه أن يأخذه منها ، فضنت به وألبسته منطقة لابراهيم كانت عندها وجعلتها تحت ثيابه ، ثم أظهرت أنها سرقت منها، وبحثت عنها حتى أخرجتها من تحت ثياب يوسف ، وطلبت بقاءه عندها يخدمها مدة جزاء له على ماصنع ، وبهذه الحيلة استبقته عندها وكف أبوه عن مطالبتها به . وليس للمؤرخين على ذلك دليل ، إذ يحتمل أنهم تفوهوا بهذا الاتهام من شدة الغيظ على أخيهم ، يقول تعالى موضحا ماحدث :

« فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه ، ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون * قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون * قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنابه زعيم * قالوا تالله لقد علمتم ماجئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين * قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين * قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو

جزاؤه كذلك نجزى الظالمين * فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء آخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم * قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون * قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين * قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذاً لظالمون * فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرطتم فى يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين * ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين * واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها وإنا لصادقون » [يوسف : ٧٠ - ٨٢] .

لم يصدق يعقوب أولاده ، وحزن حزنا شديدا على ابنيه ، حتى لاموه على استمرار ذكره ليوسف ، يقول تعالى :

« قال بل سولت أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم وتولى عنهم وقال يا أسفا على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله مالا تعلمون * يابنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لاييأس من روح الله الا القوم الكافرون » [يوسف : ٨٣ - ٨٧] .

عندما أمر يعقوب أولاده بأن يرجعوا ويتحسسوا من يوسف وأخيه ، رجعوا إلى مصر ثانية ، وقالوا ليوسف :

« يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين » [يوسف : ٨٨] .

فقال لهم :

« هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون قالوا أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فان الله لايضيع أجر المحسنين قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين * قال لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين * اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا وأتونى بأهلكم أجمعين » [يوسف : ٨٩ - ٩٣] .

رجعوا إلى أبيهم بقميص يوسف ، وأتوا به إلى مصر فكان لقاء حارا تذكر فيه الجميع قدرة الله سبحانه وتعالى ، إذ تحققت مشيئته ، يقول تعالى حكاية عما قاله يوسف فى هذا المقام :

« يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم * رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين » [يوسف : ١٠٠ - ١٠١] .

ثم بين الله سبحانه وتعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : أن هذه أنباء لم يكن يعرفها ، فلم يقرأها فى كتاب ، ولم يكن معهم حين دبروا ليوسف ، ولا حين التقوا به فيقول :

« ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون » [يوسف : ١٠٢] .

ما ورد فى السورة من فضائل :

أنبأ الله سبحانه وتعالى رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ببعض ما حدث للأنبياء السابقين ، ليطمئن قلبه ، ويشتد عوده فى مواجهة المعارضين لدعوته ، فهو وإن كان لم يشك لحظة فى تأييد الله له فى هذه المعركة ، ولم يتسرب الارتياب إلى نفسه فى أن الله سينصر دعوته ، إلا أن النفس الإنسانية فى حاجة دائما إلى ما

يؤكد ما وقر فيها من إيمان ، وما غرس فيها من عقيدة ، ولهذا كان الإخبار عن الأنبياء السابقين عاملا من عوامل التأكيد على وعد الله له .

كذلك فى ضرب الإخبار بيان مجسم لما تدعو إليه الرسالات السماوية من إيمان بالله ، والالتجاء إليه فى الشدائد ، والصبر على ما ينزل بالإنسان من أحداث لاترتاح نفسه إليها ، كما تعلم الناس فضيلة العفو عمن أساء ، إذا جاء تائبا ، معربا عن استعداده الصادق فى عدم العودة إلى ارتكاب السيئات ، أو الاقتراب مما يسىء إلى الناس ، ويغضب الله . .

تضمنت سورة يوسف عليه السلام كثيرا من الفضائل التى ينبغى على الإنسان أن يتحلى بها ، فهى تعلم من يقرؤها أن الإيمان بالمبدأ فوق كل شىء ، وقبل كل شىء ، فلا ينبغى أن يحيد الإنسان عنه بسبب مغريات مادية زائلة ، أو لحظات استمتاع ، سرعان ما تنقضى مخلفة وراءها كل ندم وحسرة ، فهذا يوسف عليه السلام لم يقع فريسة إغراء الحياة التى كان يعيش فيها عند سيده ، فلم تستطع سيدة البيت أن تفتنه لتوقعه فى بحار اللذات ، فظل صامدا أمام هذه المغريات ، لأن أسلوبه فى الحياة كان يدور حول المحافظة على عفته وطهارته ، والاستمساك بمبدأ الأمانة التى ائتمنه عليها سيده ، فلم تطاوعه نفسه على ارتكاب الخيانة فى حق من آواه وأكرمه ، فاذا تعلم الإنسان ذلك ، واستقر هذا المعنى فى نفسه ، لايبالى فى سبيله ملاقاة الصعاب ، ومواجهة العواصف والاخطار فى سبيل المحافظة عليه ، والالتزام بما يقتضيه .

كما تعلمنا السورة أن الإنسان إذا أصابه مكروه فى سبيل تحقيق ما يؤمن به ، فليس له إلا الالتجاء إلى الله ، فقد لجأ إليه يوسف عندما تآمر عليه النساء ، فراودته عن نفسه واستغاث به قائلا :

« رب السجن أحب إلىّ مما يدعوننى إليه وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين » [يوسف : ٣٣] .

ففرج الله عنه ما نزل به ، وصرف عنه كيدهن ، وذلك بأن أبعده عنهن

بالسجن ، وهو أهون الشرين على يوسف .

كذلك لم تزعزعه الحياة القاسية فى السجن عن التمسك بدينه ، والدعوة اليه ، فكان لايترك فرصة أثناء تلك الفترة، دون أن يدعو إلى عبادة ربه ، فعلم زملاءه فى السجن كثيرا من مبادىء الإيمان ، وفقههم فى الدين ، فصار مرجعا لهم ، يلجأون اليه عندما تقابلهم مشكلة تتعلق بالجانب الروحى . وهذا ما حدث لزميليه اللذين رأيا المنام ، فقد سألاه تفسير منامهما ، وذلك لما وقر فى نفسيهما أنه رجل صالح ، يدعو إلى ما يدعو إليه الأنبياء والمصلحون . وهذا توجيه للإنسان بألا ينسى مبادئه فى لحظات الضيق ، لأنه مادام يعتقد فى صحة مبدئه ، فلابد من الفرج طالما ظل متمسكا به .

كذلك تعلمنا السورة أن صاحب المبدأ لايهمه الخروج من المأزق ، بقدر اهتمامه ببراءته من التهمة التى أودت به إلى توقيع العقوبه عليه ظلما ، فالمعروف أن المسجون عندما يخبر بأمر الإفراج، يسرع إلى الخروج، غير عابىء بما يتعلق بالتهمة التى جاءت به إلى السجن ، ولكن يوسف كان عنده خلق الإباء والشمم ، فشرف النفس وطهارتها كانت عنده أولى من الخروج من السجن ، إذ لم يقبل على نفسه أن تلصق التهمة به ، ويقال إن الملك عفا عنه ، وأخرجه من السجن ، فطلب أن يبرأ من هذه التهمة قبل أن يخرج ، فلما أجرى الملك التحقيق النزيه ، وظهرت براءته رضى بالخروج من السجن ، وهو مرفوع الرأس يقول بعض العلماء : إن الإنسان لايحب أصدقاءه وخلانه ، إلا لأنه يجد فيهم لذة نفسه ، يرتاح إليهم ويجد سلوته بالقرب منهم . فمحبة الأحياء أثر من آثار محبة المرء لنفسه . واذا كانت نفس إنسان عنده بهذه المنزلة من المحبة والإكبار والاعظام . لاجرم أن غرامه بنفسه يدعوه إذا كان من أهل الكرامة إلى أن يطهرها من الأدناس ، ويحرص الحرص كله على أن تكون صفحة حياتها متلألئة لامعة، لايشوبها شىء من النقائص والخسائس .

هكذا كان يوسف عليه السلام ، وهذا هو الذى حمله على الإباء من مزايلة

السجن ، إلى أن تنجلى عن ساحة شرفه تلك الغمامة التى كانت مخيمة على صفحة كبيرة من صفحات حياته ، فلما انجلت خرج من السجن خروج السيف جلاء صقله . ومن الصفات التى تستفاد من السورة صفة الصبر ، فقد ضرب يوسف للناس المثل الأعلى فى كثير من أنواع الصبر فقد :

- صبر على إيذاء إخوته له وتجريدهم إياه من ثوبه ، ولطمه ولكزه وإلقائه فى الجب بقصد إهلاكه .
- وصبر على أعظم من هذا ، حيث اعتبروه شريرا جانيا ، إذ باعه ملتقطوه بأبخس الأثمان .
- وصبر على شهوة الفرج ، فقد طالبته سيدته وربة نعمته ، مع ماهى عليه من جمال ، وهو شاب فى عنفوان فتوته ، فلم يخرج من ذلك إلا إلى العفة والطهـارة .
- وصبر على إلقائه فى السجن ظلما ، فكان ذلك سببا فى توليه أعلى منصب فى الدولة بعد فرعون .
- وصبر على إساءة إخوته له ، عندما قالوا :

« ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل » .

يقصدون بذلك يوسف ، فلم يعاقبهم وكان قادرا على ذلك ، بل صبر وغفر ، فكان ممن قال الله فيهم :

« إنه من يتق ويصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين » .

وأخيرا توجهنا السورة إلى أن الانسان لاينبغى أن ينسى شكر الله على ما أولاه من نعم وحباه من فضل . فهذا يوسف يتحدث بنعم الله تعالى :

« رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض أنت ولـيى فى الـدنـيا والآخـرة توفـنـى مسلما وألحـقـنى بالصالحين » . . [يوسف : ١٠٢] .

هذه بعض ما جاء فى السورة من فضائل ، أراد الله سبحانه وتعالى تعليمها للناس ، كى يستقيم سلوكهم ، وينصلح حالهم ، فيكونوا لبنة صالحة فى بناء مجتمع قوى ، وذلك من الأهداف الرئيسية لرسالات السماء . .

شعيب عليه السلام :

يحتل المال مركزا رئيسيا فى الحياة البشرية ، سواء كان ذلك على مستوى الفرد أم فى حياة المجتمع ؛ إذ يتوقف عليه النشاط الانسانى فى جميع مجالات الحياة ، وبه تدور عجلة تاريخ الأمم ، فمن لاثروة له ، فلا تاريخ له ، إذ به تقام الحضارات التى يسجلها تاريخ الأمم والشعوب ، وعليه تشيد المدنيات التى يفخر أصحابها بتدوينها فى صفحات تاريخهم ، وفى الوقت نفسه فهو مصدر لمعظم المآسى التى تصيب الانسان ، ومصدر كثير من الشقاء الذى يعانى منه الأفراد والجماعات ، سواء كان ذلك فى مشقة الحصول عليه ، أو فى كثرته كثرة تدفع إلى الفساد والطغيان .

فمن يحرم منه ، ويعانى فى سبيل الحصول على قسط منه يقيم أوده ، ويحفظ عليه حياته ، فهو معذب فى حياته . ومن يحصل على قسط وافر عن طريق غير مشروع فقد ظلم نفسه ، وذلك بأماتة الروح الإنسانية فى داخله ، إذ هو قد سلب الآخرين حقوقهم عن طريق الغش والخداع ، وبأسلوب يتنافى مع ما تقتضيه العدالة ، وتحتمه الفضيلة على الانسان ، كذلك من ينفقه فى وجوه غير مشروعة ، فهو يدمر نفسه ، ويعمل على انهيار مجتمعه .

ولهذا ركزت الأديان فى كثير من تعاليمها على تنظيم التعامل مع المال ، سواء فى الحصول عليه ، أم فى إنفاقه ، فجاءت الوصية فى الإسلام بأن يلتزم الإنسان بالأمانة فى التعامل فى مجال المال مع الآخرين ، فلا يخدع أحدا ، ولا يظلمه ، سواء كان بائعا له ، أم مشتريا منه ، فإن لم يفعل ، فسينتظره عقاب أليم فى الآخرة ، يقول تعالى :

« ويل للمطففين * الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون * وإذا كالوهم أو

وزنوهم يخسرون * ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون * ليوم عظيم » [المطففين : ١ ـ ٥] .

ويقـــــول :

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم » [النساء : ٢٩] .

كما توعد من يسيء استخدام المال استخداما سيئا بالعذاب الأليم ، يقول تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدون عن سبيل الله ، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم * يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم ، وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » [التوبة : ٣٤ ـ ٣٥] .

بل إنه سرد من أخبار الأولين ما يدعو الناس إلى عدم الاستغلال فى مجال المال ، ويبعدهم عن ظلم المستضعفين وابتزازهم ، فذكر قصة شعيب عليه السلام مع قومه ، حيث وضح فيها سلوك من انحرف فى مجال التعامل بالمال ، وجدالهم مع شعيب حول هذه القضية ، وعقاب الله لهم على ابتزازهم أموال الناس بطرق غير مشروعة ، وبأساليب مستنكرة عند من لديه فضل من فضيلة ، وذرة من إيمان .

استهل القرآن الكريم ذكر أنباء شعيب عليه السلام بأن الله أرسله إلى قومه ، دون أن يبين زمانهم ، أو يوضح المنطقة التى كانوا يسكنونها ، لكن هناك إشارات فى موطن آخر تفيد : أن زمن إرسال شعيب كان قبل زمن موسى عليه السلام ، ذلك أن الله ذكر أخبارا عن نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ، ثم قال بعد ذكر هذه الأنباء كلها :

« ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه » [الأعراف : ١٠٣] .

كذلك حين ذكرهم فى سورة يونس ، عقب على ذلك بقوله :

« **ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه** » [يونس : ٧٥] .

واتبع هذا المنهج أيضا فى سورة هود ، وفى سورة الحج ، وفى سورة العنكبوت ، إذ بعد أن ذكر أنباءً عن أمم الأنبياء وأحوالهم قال :

« . . . **وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات** » [العنكبوت : ٣٩] .

فدل ذلك كله على أن شعيبا كان قبل موسى عليهما السلام ، وليس هناك ما يوضح تحديد الزمن أكثر من هذا ، لأن ذكر أنباء الأنبياء فى القرآن الكريم كان للعظة والاعتبار ، وليس للتاريخ ..

ولم يحدد القـرآن الكريم أيضا المنطقة التى ظهر فيها شعيب عليه السلام ، ولكن بعض العلماء حدد مكانها من قوله تعالى :

« **وإلى مدين أخاهم شـعيبا** » [هود : ٨٤] .

فذكر أن مدين كان اسم المدينة التى ظهر فيها شعيب عليه السلام ، وكانت قريبة من أرض « معان » بأطراف الشام مما يلى الحجـاز .

وبعضهم يقول :

إن مدين كان اسم القبيلة التى انتسب إليها شعيب ، نسبة إلى مديان بـن ابراهيم عليه السلام .

وكلا التفسيرين اجتهاد لايرقى إلى درجة اليقين ، لأن القرآن الكريم لم يبين المقصـود من كلمة : « مدين »، أهى القبيلة ؟ أم هى المدينة ؟، لأنه اقتصر على قولـه : « وإلى مدين أخـاهم شعيبـا » ، وهـذا التعبـير يجوز أن يحمل على أن المقصـود : إلى مكان مدين ، فتكون مدينة ، كما يجوز أن يحمل على أن المقصود : إلى المجموعة البشرية المسماة بمدين ، فيكون المعنى : إلى من عرفوا بهذا الاسم أرسل الله شعيبا ليبلغهم رسالة ربه .

فالى أى شـــىء دعاهم ؟

من المعروف عقلا وواقعا أن مهمة كل رسول هى إصلاح مافسد فى مجتمعه ، ولهذا نرى نصيحة كل نبى تختلف من واحد لآخر ، نظرا لاختلاف الأمراض الاجتماعية بين الأمم ، إلا أن أساس الاصلاح واحد عند الجميع ، ألا وهو الدعوة الى عبادة الله وحده ، فكلهم دعوا أقوامهم إلى عبادة الله ، لأنها مفتاح الإصلاح ، ومركز رسالات الأنبياء جميعا ، ومن هنا نرى أنها كانت أول نصائح شعيب لقومه ، يقول تعالى :

« وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » [هود : ٨٤] .

ثم ركز على إصلاح ما فسد فى المجتمع ، وكان الفساد يدور فى هذا المجتمع حول الظلم الذى كان يمارسه الأفراد فى تجارتهم ـ فقد كانوا أهل تجارة ـ إذ كانوا يستغلون الناس فى البيع والشراء ، وذلك بتطفيف الكيل والميزان ، ومحاولتهم الشراء بثمن بخس ، والبيع بأسعار عالية ، فأمرهم شعيب بالعدل فى معاملاتهم التجارية ، وحذرهم عاقبة ما يرتكبونه فى حق الناس بهذه الطريقة الاستغلالية ، إذ ذكرهم بأس الله وعقابه ، فأنكروا ما كان يأمرهم به ، واستهزءوا به ، وسخروا منه ، وتهكموا به ؛ فقالوا :

« ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ، أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد » [هود ۰ ٨٧] .

أى كيف تنهانا أن نعامل الناس كما نحب ونشتهى فندع ما درجنا عليه ، ونشأنا فيه ، وكثرت أموالنا من طريقه ! كيف تنهانا عن دين ألفناه ، وشرع ورثناه ، وأنت الراجح عقلا ، السديد رأيا ، الواسع حلما !!!

لكن شعيبا لم يعبأ بهذه السخرية ، وظل يدعو الناس إلى دين الله ، وينهاهم عن ارتكاب المظالم ، واقتراف السيئات ، ويناشدهم أن يؤمنوا بالله ، ويحسنوا معاملة الناس ، فساء ذلك كبراءهم ، فاجتمعوا وهددوه هو والذين آمنوا معه باخراجهم من القرية ، إذا لم يدخلوا فى دين قومهم ، فتصدى المؤمنون لهذا

التهديد ، وردوا عليهم قائلين :

« قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها » [الأعراف : ٨٩] .

أى ليس فى الإمكان أن يعودوا إلى ما كانوا عليه من ضلال ، بعد إذ نجاهم الله بالهداية إلى الإيمان به ، والاستقامة فى الطريق الصحيح .

ولما كان منطق المعارضين ماديا ، فقدردوا على المؤمنين بأن اتباعهم شعيبا سيجلب عليهم الخسارة فى الأموال :

« وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً الخاسرون » [الأعراف : ٩٠] .

فكان جواب هذا الاعتراض أن الله عاقبهم بزلزال دمركل قريتهم ، بعد أن خرج منها شعيب والذين آمنوا معه .

ذكر القرآن الكريم قصة شعيب وحواره مع قومه فى ثلاث سور ، هى : الأعراف ، وهود ، والشعراء ، كما ذكر إشارة إلى ماوقع عليهم من العذاب فى كل من سورتى الحجر ، والعنكبوت ، وسوف نكتفى هنا بذكر ما جاء فى سورة هود ، يقول تعالى :

« وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إلٰه غيره ، ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين * بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين * وما أنا عليكم بحفيظ * قالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد * قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا ، وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الاصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب * وياقوم لايجر منكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط

منكم ببعيد * واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود * قالوا ياشعيب مانفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ، ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز * قال يـا قوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا إنى ربى بما تعلمون محيط * وياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إنى معكم رقيب * ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين * كأن لم يغنوا فيها ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود » [هود : ٨٤ - ٩٥] .

وكـان ذكـر القـرآن الكـريم لما وقـع بين شعيب وقومه أسلوبا من الأساليب الـتربـوية ، التى انتهجها فى إقناع الناس برسالة الإسلام ، وحملهم على اتباع السلوك القويم فى حياتهم حتى يستقيم المجتمع ، ويشتد عوده فيقوى على مواجهة التقلبات المفاجئة ، وتخطى العقبات التى تظهر فى طريق حياتهم ، ذلك أن ضرب الأمثال بما حدث للسابقين الذين انحرفوا من أنجح الأساليب التربوية فى حياة الأفـراد والشعـوب ، ولهـذا ضرب الله الأمثال للناس فى القرآن الكريم لعلهم يتفكرون فى أحداث السابقين فيتعظوا بها ، يقول تعالى :

« وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » [الحشر : ٢١] .

ويقـــــول :

« لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » [يوسف : ١١١] .

ألا فليتذكر أصحاب العقول السليمة بما يصيب المفسدين والمستغلين ، وما ينال الظالمين من عقاب ، سواء كان ذلك عاجلا أم آجلا ، فقد يتسبب التذكر فى صحـوة الضمـير ، وإيقاظ الجانب الانسانى فيرجع المرء عن غيه ، فيعصى شيطانه ، ويتبع ما أمره الله به على لسان رسله ، لعله ينال اطمئنانا فى الدنيا ، وثوابا فى الآخرة ، يقول تعالى •

« إن فى ذلك ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » [ق : ٣٧] .

موسى عليه السلام

بنو اسرائيل فى مصر :

تحدثت التوراة عن أخبار بنى إسرائيل فى مصر ، فذكرت أن يعقوب وبنيه عندما نزلوا مصر فى عهد تولية يوسف أمر خزانة الدولة ، أقاموا فى مكان رعى اختاروه لما شيتهم ، كما ذكرت أن يعقوب مات بعد سبع عشرة سنة من قدومهم مصر ، فدفنوه فى الأرض التى دفن فيها أبوه وجده . ثم تمضى التوراة فى سرد أخبار بنى اسرائيل فى مصر ، سواء ما كان متعلقا بالشخصيات العامة فيهم ، أو مرتبطا بعلاقتهم بالمصريين ، إلى أن شاع بينهم أنه سيخرج واحد منهم يكون ذهاب ملك فرعون على يديه ، وعندما وصلت هذه النبوءة إلى سمع فرعون ، أمر بأن يُقتَل كل مولود ذكر من بنى اسرائيل .

ويذكر المؤرخون أن العبرانيين دخلوا مصر فى عهد الهكسوس ، وهو العهد الذى يمثل الأسرتين المصريتين : الخامسة عشرة والسادسة عشرة ، الذى بدأ حوالى سنة ١٨٠٠ قبل الميلاد ، وقد خرجوا من مصر فى أوائل حكم الأسرة الثامنة عشرة ، أى أنهم مكثوا فى مصر مائتين وخمس عشرة سنة .

لكن القرآن الكريم لم يذكر شيئا من أخبار بنى اسرائيل منذ قدومهم إلى مصر حتى قبيل مولد موسى عليه السلام ، لأنه لم يكن فيها خبر يتعلق بأنبياء ، أو يتصل بتبليغ وحى الله للناس ، بل كانت أخبارا لاتختلف فى محتواها ومضمونها عن أخبار أى طائفة من الناس . كذلك لم يبين مدة بقائهم فى مصر ، لأن هذا لايدخل بشكل مباشر فى صميم ما درج القرآن الكريم على الاخبار به ، ألا وهو ما يتعلق باقناع الناس برسالة الله ، وحملهم على اتباع ما أوحي به من عند الله إلى رسوله . ولهذا نجده يذكر ما يتعلق بذلك فى هذه الفترة ، ألا وهو ما قاله يعقوب لبنيه عندما حضرته الوفاة ، يقول تعالى :

« أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا

نعبـد إلهك وإلـه آبائك ابراهيم ، واسماعيل ، وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسـلمون » [البقرة : ١٣٣] .

غير أنه ذكر وصفا لظاهرة شاعت فى مصر قبل مولد موسى عليه السلام ، لأنها تتعلق بقـدرة الله ، ونفاذ أمره رغم أنف الطغاة الذين يملكون من الوسائل ما يظنون أنهم يستطيعون بها التحكم فى المستقبل ، وتغيير ما أرادت المشيئة الإلهية تنفيذه ، ذلك أن فرعون علا فى الأرض ، وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم ، فأراد الله أن ينصر هذه الـطائفـة ، فقدر أن يخرج من بينها طفل يرعاه ويربيه ، فيعده ليكون رسولا يكون على يديه هلاك هذا الطاغيــة .

وعندما شاعت هذه النبوءة فى مصر ، وبلغت مسامع فرعون ثارت ثائرته ، وأمر بأن يُقتَّل كل ذكر يولد لهذه الطائفة . وقد جاء إخبار القرآن الكريم عن هذا فى عدة سور ، فيقول تعالى فى سورة البقرة :

« وإذ نجينـاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم » [البقرة : ٤٩] .

وفى سورة الاعـــــراف :

« وإذا أنجينـاكم من آل فرعـون يسـومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم » [الأعراف : ١٤١] .

وفى سورة ابراهيـــم :

« وإذ قال موسى لقـومـه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم » [إبراهيم : ٦] .

وفى سورة القصص :

« نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون * إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم

إنه كان من المفسدين * ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم فى الارض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون » [القصص : ٣ - ٦] .

ويلاحظ من قراءة هذه الآيات أن القرآن الكريم لم يذكر صراحة اسم الطائفة التى كان يضطهدها فرعون ، واقتصر فقط على أنهم كانوا قوم موسى . ولما كان من الثابت تاريخيا ودينيا أن موسى من بنى إسرائيل فمما لاشك فيه أن الطائفة التى كان يضطهدها فرعون هم بنو إسرائيل ، وعليه فلا وزن لما قاله « فرويد » من أن موسى كان مصريا ، وليس عبرانيا ، إذ النصوص التاريخية والدينية تدحض دعواه وتبعدها عن الحقيقة ، بل لاتجعل بينها وبين الصدق أى صلة ، فالتاريخ يؤكد أن موسى من نسل ابراهيم ، ونصوص الكتاب المقدس نفسه تنص على ذلك .

نجاة الطفل من كيد فرعون :

ظن فرعون أنه سيحصن نفسه من حدوث النبوءة ، إذا تتبع هذه الطائفة المستضعفة ، وذلك بقتل ذكرانها ، وترك إناثها . ولكن الحذر لايمنع قدرا قدره الله سبحانه وتعالى ، بل ان الله سبحانه وتعالى أراد أن يقوم هو بتربية هذا الصبى الذى يخشاه فى بيته وبين أحضانه ، فرتب من الأحداث ما يعمى بصره، حتى ينفذ أمر الله ، فيكون ذلك دليلا لأولئك المعاندين المكابرين على أن الله إذا أراد شيئا ، فلابد أن يكون ، مهما حاول الجبابرة والطغاة بقوتهم وعنادهم أن يحولوا دون وقوعه .

تقص التوراة نبأ ولادة موسى ووصوله إلى بيت فرعون ليتربى فيه ، فتقول : « وذهب رجل من بيت لاوى وأخذ بنت لاوى فحبلت المرأة وولدت ابنا . ولما رأت أنه حسن خبأته ثلاثة أشهر ، ولما لم يمكنها أن تخبئه بعد ، أخذت له سفطا من البردى ، وطلته بالحمر ، والزفت ووضعت الولد فيه ، ووضعته بين الحلفاء على حافة النهر ، ووقفت أخته من بعيد لتعرف ماذا يفعل به .

فنـزلت ابنـة فرعون إلى النهر لتغتسل، وكان جواريها ماشيات على جانب النهر فرأت السفط بين الحلفاء ، فأرسلت أمتها وأخذته . ولما فتحته رأت الولد وإذا هو صبى يبكى ، فرقت له وقـالت : هذا من أولاد العبرانيين . فقالت أخته لابنة فرعون : هل أذهب وأدعو لك امرأة من العبرانيات لترضع لك الولد . فقالت لها ابنة فرعون : اذهبى . فذهبت الفتاة ودعت أم الولد ، فقالت لها ابنة فرعون : إذهبى بهذا الولد وأرضعيه لى ، وأنا أعطى أجرتك » [خروج ٢ : ١ - ١٠] .

أما القرآن الكريم فيقول فى سورة القصص :

« وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين * فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين * وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لاتقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون * وأصبح فؤاد أم موسى فارغـا إن كادت لتبـدى به لولا أن ربـطنا على قلبها لتكون من المؤمنين * وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون * وحرمنا عليـه المـراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون * فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون » [القصص : ٧ - ١٣] .

وفى سـورة طـه :

« ولقد مننا عليك مرة أخرى * إذ أوحينا إلى أمك مايوحى * أن اقذفيه فى التـابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى * إذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن . . . . » [طـه : ٣٧ - ٤٠] .

فإذا قارنا بين النصين وجدنا أن التوراة ذكرت ما يأتى :

- زواج أبيه بأمه ، كما نصت على بيت أمـه .

- أن أمه خبأته ثلاثة أشهـــر .
- أن أمه وضعته على الشاطىء ، وليس فى النهر .
- تكليف أخته بمراقبتـــه .
- نزول ابنة فرعون وجواريهـا .
- التقاطه وعرض أخته عليها باحضار مرضعة له .
- صنع الصندوق والمادة التى صنع منها .

وهـذه كلهـا أحـداث عادية ، ليس فيها ما ينبىء بأن الله تدخل بقدرته فيها ، فليس فيها ما يلفت النظر ، وهذا بخلاف ما جاء فى القرآن الكريم ، إذ كل خطوة فيها تنبىء بأنها ليست من الأحداث العادية ، بل رعتها قدرة فوق قدرة البشـر :

- فخوف أمه عليه من بطش فرعون ، وإلهام الله لها بأن تلقيه فى اليم فألقته ، دليل على قوة إيمانها بأن الله سيرعاه ، ولن يصيبه أذى مادام فى رعايتـه .

- ورفضه المراضع كلها إلا أمه ، بيان للناس بأن الله قادر على أن يلهم الطفل ما يريد ، لعلهم يتفكرون فى هذا ، فيهديهم تفكيرهم إلى الإيمان به .

ونص القرآن الكريم على أن امرأة فرعون هى التى اتخذته ولدا وليست ابنته هى التى فعلت ذلك - كما ذكرت التوراة - يتمشى مع المنطق والواقع ، إذ لايتجه إلى التبنى إلا من تقدموا فى السن ولم يرزقوا أولادا ، فهم ليأسهم من تحقيق أمنية إنجـاب الولد يميلون إلى التبنى ، أما الشباب فلا تخطر على بالهم هذه الفكرة ، لأنهم يرون أن الفرصة لازالت أمامهم لإنجاب ما يتمنونه من ذرية .

أما ماأهمله القرآن الكريم من زواج أبيه بأمه ، وصنع الصندوق والمادة التى صنع منها ، فهو دليل على أن قصص القرآن الكريم لايهتم بالتفاصيل التى تفهم من السياق ، إذ ولادته مترتبة على زواج أبيه بأمه ، كما لايعقل أن تلقى أم طفلها الرضيع فى اليم ، دون أن يكون ذلك فى صندوق يمنع تسرب الماء إليه . فهذا أمر بدهى لايحتاج إلى التنصيص عليه ، وخاصة فى كتاب نزل من العليم الخبير الذى قدر كل شىء فأحسن تقديره .

رد الله موسى إلى أمه لترضعه بأجر من امرأة فرعون على هذا العمل ، وتلك مكرمة كبرى وهبها الله إياها ثوابا منه على إيمانها به ، وتنفيذها أمره ثقة بوعده ؛ فقد أمرها بإلقائه فى اليم ولا تخف عليه ، فسوف يعيده إليها ، فلما امتثلت لأمره رده إليها مع حصولها على أجر أيضا ، لكى تقر عينها ، ولكى تعلم أن وعد الله حق . وفى ذلك إشارة لأولى الألباب الذين يفكرون فيما يعرض عليهم من وحى الله ، لعلهم يهتدون إلى الإيمان، فينالوا ثواب الله الذى وعد به المتقين ، كما نالت أم موسى ما وعدها الله به .

بينما تحكى التوراة عن فترة الرضاع وما تلاها باختصار، فتقول : « ولما كبر الولد جاءت به إلى ابنـة فرعون ، فصار لها ابنا ودعت اسمه موسى ، وقالت : إنى انتشلته من الماء » [خروج : ٢ - ١٠] .

لم يذكر القرآن الكريم شيئا عن الأحداث التى مر بها موسى فى زمن رضاعته ، ولا فى فترة شبابه ، بل قفز إلى نبأ اختياره رسولا من الله للناس ليبلغهم وحى الله ، فقال تعالى :

« ولمـا بلغ أشـده واستـوى آتينـاه حكـما وعلما وكـذلك نجزى المحسنين »
[القصص : ١٤] .

وكان إغفال القرآن الكريم لهذه الفترة طبيعيا ، لأنه لافائدة من سرد أحداثها فى معرض إقناع الناس برسالة محمد صلى الله عليه وسـلم .

غير أن المقام يدفع المرء إلى التساؤل عن كيفية وصول موسى عليه السلام إلى الوضع الذى هيأه الله فيه لتلقى الرسـالة !

ويجيب المؤرخون بأن موسى تربى فى البلاط الفرعونى ، كما كان يتربى أبناء الملوك فى ذلـك العهد ، أى أن الكهنة ورجال الدين علموه ولقنوه كل ما كانوا يلقنونه لأبناء الملوك والطبقة الاستقراطية فى الدولة . ولم يكن كهنة ذلك الزمان يعلمون الدين فقط ، بل كانوا ملمين بكل أطراف المعرفة فى ذلك العهد ، فكانوا

أطبـاء ومعلمى حساب وتاريخ وفلسفة ، وغير ذلك من العلوم ، فتعلم موسى الكثير منهم من هذه المعرفة ، لكن رسالة الله ليست تعليما يلقنه أحد من البشر ، وإنما هى وحى الله ينزل به الملك الموكل به على من اصطفاه الله ، فكيف حدث هذا مع موسى ؟

جاء الوحى لموسى مترتبا على أحداث سبقته ، ولذلك ذكرها القرآن الكريم ليبين للناس كيفية تدبير الله للأحداث التى تؤدى إلى تحقيق ما يريده من أمر . وملخص هذه الأحداث التى قادت إلى الزمن والمكان الذى تلقى فيه موسى وحى الله :

أنه ـ أى موسى ـ دخل المدينة ذات يوم ، فرأى رجلين يقتتلان ، أحدهما من شيعته ، والآخر من الفريق الذى يناصبهم العداء ـ ويصفه المؤرخون بأنه مصرى ـ فوكزه موسى فمات ، فندم على ما فعل وقال لنفسه : هذا الذى أتيت من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين . وتضرع إلى الله أن يتوب عليه ، وألا يجعله ظهيرا للمجرمين ، وناصرا لأهل الشر .

وفى اليوم التالى خرج خائفا من أن يفتضح أمر العمل الذى فعله بالأمس ، فإذا بالرجل الذى استغاث به بالأمس يطلب منه العون ضد رجل آخر من أعدائه ـ أى ضد مصرى آخر كما يقول المؤرخون ـ فأراد موسى أن يبطش به ، غير أنه التفت فجأة إلى المستغيث وقال له : إنك لغوى مبين . وعندئذ قال له المصرى : هل تريد ياموسى أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس ، فما أراك إلا ميالا لأن تكون جبارا فى الأرض ، مبتعدا عن طريق الصلاح .

شاع الخبر فى المدينة حتى وصل إلى الملك ، فأرسل جنوده للقبض على موسى ، وقبل أن يدركوه نصحه رجل بالهرب من المدينة ، فهرب منها .

تعتبر هذه الأحداث المرحلة الأولى من المراحل التى أدت إلى الوضع الذى

يكـون فيه موسى مهيأ لتلقى الـوحى من الله ، وجاء إخبار الله عنها فى القرآن الكريم فى قوله تعالى :

« ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثة الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين * قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر لى إنه هو الغفور الرحيم * قال رب بما أنعمت على فلن أكـون ظهـيرا للمجرمين * فأصبح فى المدينة خائفا يترقب فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوى مبين * فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين * وجاء رجل من أقصا المـدينـة يسعى قال يامـوسى إن الملأ بأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من النـاصحـين * فخـرج منهـا خائفـا يترقب قال رب نجنى من القـوم الظالمين »
[القصص : ١٥ - ٢١] .

وتختلف التوراة عن القرآن الكريم فى سرد هذه الأحداث فتقول :

« وحدث فى تلك الأيام لما كبر موسى أنه خرج إلى إخوته لينظر فى أثقالهم ، فرأى رجلا مصريا يضرب رجلا عبرانيا من إخوته .. فالتفت إلى هنا وهناك ورأى أن ليس أحـد فقتـل المصرى وطمره فى الرمل . ثم خرج فى اليوم الثانى وإذا رجلان عبرانيان يتخاصمان ، فقال للمذنب : لماذا تضرب صاحبك ؟ فقال : من جعلك رئيسا وقاضيا علينا ؟ أمفتكر أنت بقتلى كما قتلت المصرى ؟ فخاف موسى وقال : حقا ، قد عرف الأمر فسمع فرعون هذا الأمر فطلب أن يقتل موسى ، فهرب موسى من وجه فرعون ، وسكن فى أرض مديان وجلس عند البئر » [خروج ٢ : ١١ - ١٥] .

فإذا قارنـا بين النصين نجد أن التوراة تنص على أن المتخاصمين فى اليوم الأول كانا : مصريا ، وعبرانيا ، وأن موسى قتل المصرى . ومنه استنتج المؤرخون أن

موسى كان يعتبر نفسه عبرانيا نسبا ، وأن المصريين اعتبروه عبرانيا رضاعة ، لأنهم لمنتشلوه من الماء ولم يعرفوا له نسبا ، فجاروا هذا الاتجاه باعتبار الرضاعة نسبا .

أما القرآن الكريم فلم يذكر ذلك، بل وصف المتخاصمين بأن أحدهما كان من شيعته، والآخر كان من أعدائه ، وهذا التعبير لايفيد صراحة : أن واحدا كان مصريا والآخر عبرانيا ؛ فقد يكونان مصريين ، وقد يكونان عبرانيين ، ولكنهما من طائفتين متخاصمتين .

كذلك لم تذكر التوراة أن موسى ندم على قتل المصرى، وطلب من الله أن يغفر له كما جاء فى القرآن الكريم ، وذلك اتجاه تربوى خليق بكتاب مقدس أن يحرص على إبرازه ، وإلا فقد أحد الأهداف الأساسية لنزوله وحيا ليهدى الناس إلى الصراط المستقيم .

خروج موسى إلى مدين :

خرج موسى عليه السلام من المدينة حين علم أن فرعون قد أمر بالقبض عليه ، وبهذا الخروج بدأت أحداث المرحلة الثانية فى طريق الوصول إلى نقطة الالتقاء مع وحى الله سبحانه وتعالى : وتحكى كتب التاريخ عن أحداث هذه المرحلة فتقول :

إن موسى خرج من مصر على عَجَل ، فلم يتزود للطريق ، ولم يعد للسفر عدته ، معتمدا على الله فى هدايته إلى السبيل السوى ، فلم يكن فى قافلة أو رفقة فى ذلك السفر الشاق ، لأن من يطلب النجاة لايكون له من الوقت ما يتروى فيه ، مفكرا فيما يحتاج إليه فى السفر ، ولا يدعه الخوف لحظة لاعداد ما تتطلبه الرحلة ، بل إن همه النجاة فقط ، تاركا ماعدا ذلك لله وحده .

ولهذا لم يكن له - كما يروى عن سعيد بن جبير - طعام سوى ورق الشجر ، وأنه خرج حافيا ، فما وصل إلى مدين حتى وقع خف قدمه ، أى أن الجلدة الملاصقة للأرض من قدمه قد أضرَّبها السير الحثيث المتواصل حتى سقطت . وقال

ابن عباس : سار من مصر إلى مدين ، لم يأكل إلا البقل وورق الشجر ، وقد كان حافيا فسقطت نعلا قدميه من الحفاء ، وجلس إلى الظل ، وهو صفوة الله من خلقه ، وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع ، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه ، وإنه لمحتاج إلى شق تمرة .

وتنص كتب التاريخ أنه قطع المسافة بين مدينة منف ، التى هرب منها ، وبين مدين ، وهو المكان الذى استقر فيه فى ثمانى ليال ، فجلس تحت شجرة بجانب بئر يسقى منه الرعاة ماشيتهم ، فوجد جماعات كثيرة من الرعاة يسقون ماشيتهم ، ولحظ من بينهم امرأتين تذودان غنمهما عن الورود إلى الماء ، فتحجزانها بعيدا عن البئر ، فسألهما عن الأمر ، فأخبرتاه بأنهما لاتسقيان غنمهما إلا بعد أن يفرغ الناس من السقى ، لأنهما ضعيفتـان لاتقويان على المزاحمة على مورد الماء ، فسقى لهما غنمهما ، ثم آوى إلى الظل ودعا ربه أن يرزقه ما يقيم به أوده .

ولما وصلت الفتاتان إلى أبيهما، استفسر منهما عن السبب فى رجوعهما مبكرتين على خلاف العـادة ، فأخبرتاه بما حدث ، فبعث إحداهما إلى موسى لتحضره، كى يعطيه أجر ما فعله مع ابنتيه ، وهو سقى الغنم لهما . ولما وصل موسى إلى الأب رحب بهوأطعمه ،ثم سأله عن خطبه، فقص موسى عليه خبره ، فطمأنه الأب بأنه الآن أصبح فى مكان أمين . وهنا اقترحت عليه إحدى الفتاتين أن يؤجره ليرعى الغنم ، فهو قوى أمين . فعرض عليه الأب أن ينكحه إحدى ابنتيه على أن يخدمه ثمان سنوات ، فإن أتمها عشرا ، فهذه الزيادة فضل منه ، فقبل موسى هذا العرض وتزوج إحدى الفتاتين .

هذا ملخص ماذكـر فى كتب التـاريخ ، أما القرآن الكريم فلم يذكر تفصيلا، ولا تفـريعات، كما ذكرت تلك الكتب ، بل اقتصر على العناصر الأساسية فى الموضوع ، فلم يخبر عما أصابه من الجوع فى السفر ، لأن ذلك مما يسلم به العقل ، دون أن ينص عليه ، ولم يذكر مدة الرحلة؟ لأن ذكرها لايفيد شيئا فى مقام الاستشهاد بقصة موسى لكفار قريش فى مجال الاقناع بأن محمدا يوحى إليه من عند الله ، ولم

ينص على اسم الفتاة التى تزوجها واسم أبيها ، كما ذكرت ذلك التوراة . . . وغير ذلك من الأشياء التى تعتبر حشوا فى القصة ، قد تفسد الهدف الذى من أجله نزلت كوحى فى القرآن الكريم .

اقرأ قوله تعالى مخبرا عن هذه الأحـداث :

« ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل * ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهما امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لانسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير * فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير * فجاءته إحداهما تمشى على استحياء قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ، فلما جاءه وقص عليه القصص قال لاتخف نجوت من القوم الظالمين * قالت احداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين * قال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين * قال ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على والله على ما نقول وكيل » [القصص : ٢٢ - ٢٨] .

فإذا بحثنا فى التوراة عن النص الذى يخبر عن هذه الأحداث، لوجدناه فى سفر الخروج حيث جاء فيـه :

« وكان لكاهن مدين سبع بنات فأتين واستقين وملأن الأجران ليسقين غنم أبيهن ، فأتى الرعاة وطردوهن . فنهض موسى وأنجدهن وسقى غنمهن ، فلما أتـين إلى رعوئيل أبيهن قال ما بالكن ، أسرعتن فى المجىء اليوم ، فقلن رجل مصرى أنقذنا من أيدى الرعاة ، وأنه استقى لنا أيضا وسقى الغنم . فقال لبناته : وأين هو ؟ لماذا تركتن الرجل ؟ ادعونه ليأكل طعاما . فارتضى موسى أن يسكن مع الرجل فأعطى موسى « صفورة » ابنته ، فولدت ابنا ، فدعا اسمه : « جرشوم » ، لأنه قال : كنت نزيلا فى أرض غريبة » [الخروج ٢ : ١٦ - ٢٢] .

فلو قارنا بين هذا النص ، وبين نص القرآن الكريم ، لوجدنا أن التوراة نصت على أن البنات كن سبعا وليستا اثنتين كما فى القرآن الكريم ، وأن الرعاة طردوهن . وهذا ليس من أخلاق البدو . أما تعبير القرآن الكريم بأنهما وقفتا بعيدا ، فذلك سلوك سلبى يحدث غالبا فى مثل هذه المواقف ، وفى كل المجتمعات . كما ذكرت التوراة اسم أبيهن ، واسم من تزوج بها موسى ، بخلاف القرآن الكريم ، لأن الأسماء لايتعلق بها غرض ما فى هذا المجال .

زوجت التوراة موسى من ابنة هذا الشيخ دون أن تبين كيفية تقديمه مهرا ، وهو عاجز عن تدبير الطعام الذى يقيم به أوده ، والزواج بدون مهر لم يكن مقبولا فى ذلك الزمن ، أما القرآن الكريم فبين الكيفية ، ألا وهى عمله عند والد البنت مدة محدودة . أضف إلى ذلك أن وجود موسى عند البئر أثناء ورود الرعاة ليس واضحا فى التوراة كوضوحه فى القرآن الكريم .

المرحلة الأخيرة :

كانت فترة إقامة موسى بمدين مرحلة حاسمة من مراحل الإعداد للرسالة ، ذلك أن من سنة الله فى بعث الرسل عليهم السلام : أنه كان يهيىء لهم جوا يساعدهم على التفكير فيما حولهم ، فيتأملون ملكوت الله ، ويتدبرون نعمه وآلاءه ، فيزدادون بذلك بعدا عن الماديات ، وما يحيط بها ، ويرتفعون درجات عن أقرانهم ، وما يباشرون من أعمال اختلطت بها غوايات شيطانية ، وأهواء إنسانية ، وتداخلت فيها رغبات شهوانية ، وغرائز عدوانية .

كان رعيه لغنم صاحب مدين تدريبا له على تحمل المشاق ، فأسلوب تربيته فى بيت فرعون لم يكن صالحا لتهيئته وإعداده لتحمل المصاعب والمتاعب التى سوف يلاقيها فى طريق دعوته عندما يبلغ بالرسالة ، ذلك أن تربية القصور لاتفرز إلا أناسا مرفهين لايستطيعون الصمود أمام مصاعب طريق الرسالة . ومن هنا كان لابد أن يجرى الله على يديه ما ينزعه من هذا الجو الذى لايصلح لإعداد من

سيحمل الرسالة الكبيرة ، ويدفع به إلى جو صالح للإعداد والتربية جسمانيا ومناسبا للتفكير كى يهيأ نفسيا وفكريا .

أتم موسى الأجل الذى اتفق عليه مع صاحب مدين مهرا لابنته ، ثم رأى أن يرجع إلى أهله فى مصر ، فأخذ زوجته وبدأ رحلة العودة . وتحكى كتب التاريخ عن هذا الجانب من قصة موسى، فتقول : « إن صهره وهب له أغناما خالصة سائغة ، وبعد ذلك تحركت فى صدره نشوة الحنين إلى الوطن ، فجمع أشتات متاعه ، وهيأ رحله ، واستعد ليذهب مع زوجته إلى مصر ، فودعا الشيخ وداعا حسنا ، ودعا لهما بالتوفيق والسداد ، ثم سارا نحو الجنوب حتى طور سيناء ، وهناك ضل موسى الطريق فحار فى أمره ، والتوى عليه قصده . ولكن عناية الله لاحظته ، فرأى من الجهة التى تلى الطور نارا ، فحط رحله وأسرع وحده إلى النار ، وهناك بدأت مرحلة الدعوة والرسالة ، حيث سمع نداء الله الكريم ، فلم يتحمل وأسرع موليا ، فناداه الله مذكرا إياه بأنه لاينبغى للمرسل أن يخاف أمام الله ، وهنا هدأت نفس موسى ، فسمع من الله ما طمأنه ، وأقنعه بأنه رسول من الله ، أيده بمعجزات بينة لتكون حجة وبيانا على صدق دعواه .

ويحكى القرآن الكريم هذه الأحداث فى مجال حوار محمد صلى الله عليه وسلم مع المعارضين ، ليثبت لهم أن ما جاء به هو وحى من عند الله ، فهو يخبره بأشياء لم يكن على علم بها قبل البعثة ، يقول تعالى :

« وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم » .

ثم يسوق بعدها مباشرة مايدل على ذلك ، فيقول:

« إذ قال موسى لأهله إنى آنست نارا سآتيكم منها بخبر ، أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون * فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين * ياموسى إنه أنا الله العزيز الحكيم * وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ياموسى لاتخف إنى لايخاف لدى المرسلون * إلا

من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإنى غفور رحيم * وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فى تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين * فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين * وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين » [النمل : ٧ - ١٤] .

فورود القصـــة فى هذا المقام :

ـ لبيان أن الوحى من عند الله ، لأن محمدا لم يعرف هذه الأخبار من قبل .

ـ ولتسليته صلى الله عليه وسلم حتى لاتؤثر معارضة الجاحدين على نفسيته ، إذ بيَّن له جحود فرعون وقومه لدعوة موسى ، على الرغم من ظهور المعجزة التى تدل على صدق دعواه ، ولم يكن ذلك إلا ظلما وعلوا ، فقد كانوا مقتنعين بصدقه داخليـا .

ولهذا المعنى حدثه القرآن الكريم عن موسى فى سورة طه ؛ إذ بعد ما بين له أنه لاينبغى أن يحزن لمعارضة قومه ، بل عليه البلاغ فقط ، لأنه لم ينزل القرآن الكريم عليه ليشقى ، بل ليذكر الناس بدعوة الله ، أردف ذلك بقوله :

« وهل آتاك حديث موسى * إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى * فلما أتاها نودى ياموسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى * وأنا اخترك فاستمع لما يوحى إننى أنـا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى * إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى * فلا يصدنك عنها من لايؤمن بها واتبع هواه فتردى * وما تلك بيمينك ياموسى * قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى * قال ألقها ياموسى * فألقاها فإذا هى حية تسعى * قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى * واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى * لنريك من آياتنا الكبرى * إذهب إلى فرعون إنه طغى * قال رب اشرح لى صدرى ويسرى لى أمرى * واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى واجعل لى وزيرا من أهلى * هارون أخى * اشدد به أزرى * وأشركه

فى أمـرى * كى نسبحك كثيرا * ونذكرك كثيرا * إنك كنت بنا بصيرا * قال قد أوتيت سؤلك ياموسى » [طه : ٩ - ٣٦] .

فعـرض القصـة مرة أخرى فى هذه السورة ، كان لمواساة محمد صلى الله عليه وسلم حتى لايحزن لمعارضة قومه له .

أما ذكرها فى سورة القصص فكانت حلقة فى سرد قصة موسى كاملة حيث بدأت بقوله تعالى :

« نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون » [القصص : ٣] .

فاقتضى مقـام سرد القصة بأكملها أن يتحدث عن تركه لمدين ورجوعه إلى مصر ، فقال فى هذه الحلقة من القصة :

« فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثـوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون * فلما أتاها نودى من شاطىء الواد الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى إنى أنـا الله رب العالمين * وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ياموسى أقبل ولاتخف إنك من الآمنين * اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليـك جنـاحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوما فاسقين » [القصص : ٢٩ - ٣٢] .

فلم يذكـر فيها وداع شيخ مدين له ، ولا ما وهبه له من أغنام ، ولا حادثة ضلال الطريق وغير ذلك مما ذكر فى المصادر التاريخية ، لأن ذلك لايدخل فى مقام التذكير والوعظ ، وليس له صلة بما يهدف القرآن الكريم إليه ، ألا وهو محاجاة من عارض محمدا صلى الله عليه وسلم وأنكر رسالته .

مقارنـــــة :

ذكر القرآن الكريم ما حدث لموسى عليه السلام فى طور سيناء وكلام الله له فى أكثر من سورة ، ودارت كلها حول بيان أن موسى ذهب ليبحث عن أخبار الطريق عند النار ، فلم يجد أحدا ، وكلمه الله مخبرا إياه بأنه رسوله ، وبين له

بطريق عملي من المعجزات التي يمكن أن تظهر على يديه لاقناع القوم ما يدخل الطمأنينة في نفسه ، ثم سأل موسى ربه أن يؤازره بأخيه هارون لأنه أفصح منه لسانا فأجاب الله طلبه ، وأرسل هارون معـــه .

وتختلف التـوراة في سردهـا لهذه الأحداث عن القرآن الكريم ، إذ تذكر أن موسى كان يرعى غنم حميه كاهن مدين ، فساق الغنم إلى وراء البرية ، حتى جاء إلى جبل الله حوريب ، فظهر له ملاك الرب بلهب من نار من وسط عليقة ، فنظر إليهـا ، فإذا العليقة تتوقد بالنار وهي لاتحترق ، فاقترب منها ليستكشف سرها فناداه الله من وسطها ، فقال له : اخلع حذاءك من رجليك ، لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقـدسـة ، ثم أخـبره بأنـه إلٰه آبائه : إبراهيم وإسحاق ويعقـوب . وهنا دار حديث بينهما عن مذلة شعب الله في مصر، فأفهمه أنه ـ أي الـرب ـ نزل لينقذه من أيدي المصريين ، ولهذا سوف يرسله إلى فرعون ليخرج شعب بني إسرائيل من مصر .

وتمضي التوراة في سرد الأحداث فتذكر أن موسى سأل الله عن اسمه ، وأن الله بيَّن له كيفية اللقـاء بشيوخ بني إسرائيل ، ومـاذا يقول لهم ، كما وضح له صعوبة المهمة ، لأن فرعون لن يدعهم يخرجون من مصر بسهولة ، ثم وصاه بأن تطلب كل امرأة إسرائيلية من جارتها المصرية أمتعة : فضة وذهبا وثيابا على سبيل الإعارة ، ثم يأخذنها معهن عند الرحيل . وبعد ذلك بيَّن له أمثلة من المعجزات التي سوف تظهر على يديه كالعصا التي انقلبت حية ، ويده التي أخرجها من جيبه برصاء كالثلج ، وكماء النهر الذي سوف يصير دما حين يسكبه على اليابس . ومع هذا البيان اعترض موسى على إرساله ، لأنه ثقيل الفم واللسان مما أغضب الرب ثم أخـبره بأن هارون سيكون المتحدث باسمه . . . . الخ » [انظر الاصحاحين : الثالث والرابع من سفر الخروج] .

فمن يقارن بين ما ذكر في التوراة ، وبين ما نزل به الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم قرآنا كريما ، يرى أن حديث القرآن الكريم يبين أن كلام الله لموسى

فى الطور كان بعد رحيله من مدين واتجاهه إلى مصر ، بينما تذكر التوراة أنه كان أثناء إقامته فى مدين وقبل رحيله منها . ومما لاشك فيه أن حديث القرآن الكريم أقرب إلى الواقع مما جاءت به التوراة ، لأن رعى الغنم يكون نهارا مما يجعل النار لاتثير اهتماما ، فلا تجذب إليها ضالا فى الصحراء ، أما فى الليل فقد جرت عادة سكان الصحارى على اعتبار النار مكانا يأوى إليه الخائف ، ويقصده كل من له حاجة ، وقد كانت حاجة موسى إليها ليلا على طريق عودته إلى مصر . كما تنسب التوراة إلى الله مالا يليق به ، حيث جاء فيها أنه أمر نبى اسرائيل بسلب المصريين حليهم ومتاعهم ، إذ كيف يأمر الله باقتراف هذه المعصية ، وهو الذى وصَّى على لسان رسله جميعا بألا يأخذ المرء ماليس له .

ولم تتفق رواية القرآن الكريم مع ما جاء فى التوراة إلا فى ثلاث مسائل :

الأولى : العصا التى تحولت إلى حية .

الثانية : إخراج اليد من الجيب بيضاء ، إلا أن تعبير القرآن الكريم عن هذه المعجزة جاء بأسلوب لايوحى بنقيصة ، حيث يقول :

« **وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء** » .

فقيَّد البياض بما يفيد عدم التنفير منه ، بينما قالت التوراة :

« . . . **وإذا يده برصاء مثل الثلج** » .

ولاشك أن من بيده برص ، فإنه يثير مشاعر لاترضى عنها النفس عند من يراها .

الثالثة : ماذكره موسى من عدم قدرته على التعبير ، فقد عبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله تعالى :

« **وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءا يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون** » [القصص : ٣٤] .

بينما تصيغها التوراة بصيغة ، أخرى ، فتقول :

« **فقال موسى للرب : أستمع أيها السيد ، لست أنا صاحب كلام منذ أمس** ،

ولا أول من أمس ، ولا من حين كلمت عبدك ، بل أنا ثقيل الفم واللسان » .

فهذا تعبير ينسب العى ، وعدم القدرة على الافصاح عما فى النفس إلى من اختاره الله رسولا . أما القرآن الكريم فلا يفهم منه ذلك ، لجواز أن تكون أفضلية الفصاحة عند هارون راجعة إلى أمر آخر لايلحق بالمفضول عليه - وهو موسى - نقصا ولا مهانة .

وقد أثارت مسألة عدم الفصاحة عند موسى جدلا كبيرا عند العلماء ، حاول المفسرون امتصاصه، فأرجعوا السبب فى عدم فصاحته إلى أنه - أى موسى - أخذه فرعون على حجره وهو صغير ، فمد يده إلى لحيته ونتف خصلة منها ، فغضب فرعون وأراد قتله ، فشفعت فيه زوج فرعون، وقالت : إنه لايعقل ما يفعل ، وأشارت باختباره بتمرة وجمرة ، فوضعتا فى طست ، فأخذ الجمرة ووضعها فى فيه ، فأثرّت فى لسانه ، ولذا نشأ موسى غير فصيح ، بل عنده حبسة فى لسانه .

وخالفهم فى ذلك الشيخ عبد الوهاب النجار فى كتابه : « قصص الأنبياء » ؛ إذ بين أن هذه المسألة تحتمل وجهين :

أولهما : أن موسى ألقته أمه فى اليم ، والتقطه آل فرعون ، وحرم الله عليه المراضع لطفا بأمه الوالهة ، إلى أن جاءوا بها فأرضعته وكفلته ، والطفل - عادة - إذا تأخرت عنه الرضاعة مدة كهذه يورث ذلك حبسة فى لسان .

ثانيهما : أن موسى خرج من مصر من عهد بعيد ، واعتقادى أنه مكث فى مدين زمنا طويلا ، فنسى اللغة المصرية لطول العهد وعدم وجود من يناغيه بها أو يكلمه ، أما هارون فكان بين المصريين ، مقيما معهم ، فهو أفصح من موسى ، وحقيق بأن يشافههم .

فلو قيل : إذا كان موسى قد نسى لغة المصريين ، فكيف يحاور أخاه هارون الذى لم يخرج من مصر ؟ فالرد على ذلك أن هارون بحكم البيئة كان يجيد لغة المصريين ، وبحكم الانتماء كان يجيد اللغة العبرية ولغة أهل مدين - التى كان

يتكلم بها موسى - قريبة من لغة العبرانيين ، لأن المديانيين إخوة للعبرانيين ، فأبوهم واحد ، هو إبراهيم ، ومن هنا كان هارون يفهم من موسى مالا يفهمه المصريون .

وأنا أوافق النجار على هذا الرأى لما لمسته بنفسى ، إذ عندما عدت من ألمانيا بعد ست سنوات قضيتها هناك بدون انقطاع . كان يصادفنى فى بعض الأحوال معان ، أعرف كلماتها فى اللغة الألمانية ، بينما كنت فى حاجة إلى التفكير برهة للبحث عما يرادفها فى اللغة العربية ، مع أننى كنت أثناء إقامتى فى ألمانيا كنت بين الحين والآخر أقرأ بعض الكتب العربية ، فكيف الحال مع موسى ، وهو الذى انقطعت صلته كلية بلغته المصرية أكثر من عشر سنوات ؟

فى الطريق إلى فرعـون :

جاء فى القرآن الكريم أن الله خاطب هارون وموسى ، فقال لهما :
« **إذهبا إلى فرعون إنه طغى ، فقولا له قول لينا لعله يتذكر أو يخشى** » [طه : ٤٣ - ٤٤] .

فكيف التقى موسى بهارون ، بعـد أن كلمه الله فى طور سيناء ، وأمره بأن يذهب إلى فرعون ؟

يروى المفسرون أن موسى سار بأهله نحو مصر - بعد أن كلمه الله فى طور سينـاء - حتى أتاها ليلا ، فتضيَّف على أمه واخوته وهو لا يعرفهم ، فأتاهم فى ليلة كانوا يأكلون فيها الطفيشل : « المرق » ، فنزل فى جانب الدار فجاء هارون ، فلما أبصر ضيفه سأل عنه أمه فأخبرته أنه ضيف فدعاه ، فلما أن قعدا تحدثا فسأله هارون : من أنت ؟ فقال : أنا موسى : فقام كل منهما إلى صاحبه فاعتنقه ولا أدرى من أين جاء المفسرون بهذه القصة ؟

فالقرآن الكريم لم يذكر شيئا من هذا على الاطلاق ، لا تلميحا ولا تصريحا . كما ذكرت التوراة رواية مخالفة ، فقد جاء فيها :

« إن الرب قال لهارون : إذهب إلى البرية لاستقبال موسى ، فذهب والتقاه فى جبل الله وقبله ، فأخبر موسى هارون بجميع كلام الرب الذى أرسله ، وبكل الآيـات التى أوصـاه بها ، ثم مضى موسى وهـارون وجمعـا جميـع شيوخ بنى اسرائيـل ، فتكلم هارون بجميـع الكلام الذى كلم الرب موسى به ، وصنع الآيات أمام عيون الشعب » [خروج ٤ : ٢٧ - ٣٠] .

لم يتحـدث القـرآن الكريم عن كيفية اللقاء بين الأخوين ، لأنه من الأمور الثانوية التى ليس لها من الأهمية فى بناء القصة ما يجعلها تستحق أن تذكر ، فلا صلة لها بالأهداف التى من أجلها قص الله على محمد صلى الله عليه وسلم ماحدث لموسى ، وليست من الأركان التى يختل بناء القصة عند عدم ذكرها .

كذلك لم يبين القرآن الكريم كيفية مخاطبة الله لهارون وموسى بقوله : « . . . اذهبا . . فقولا . . » لأنه لاأهمية أبدا لبيان ذلك ، فسواء أكان الخطاب مباشرا لهما كما كلم موسى فى طور سينـاء ، أو عن طريق الـوحى لموسى ، أولهما ، أو بواسطة جبريل عليه السلام ، فإن المقصود إخبار محمد صلى الله عليه وسلم بأنه أمرهما بالذهاب إلى فرعون بصرف النظر عن بيان كيفية وصول الأمر لهمـا .

لكن ما يحتاج هنا إلى بيان هو السؤال عن طبيعة رسالتهما إلى فرعون ! هل كانت لتخليص بنى إسرائيل من فرعون ليعبدوا الله فى البرية ، دون أن تتضمن دعوة فرعون إلى عبادة الله ؟

يرى العلماء أن محور رسالة موسى ، والغرض الأول المقصود بها هو إطلاق بنى إسرائيل ، لأنهم يريدون أن يعبدوا إلٰههم فى البرية ، يعملون له عيدا . وهذا هو ما جاءت به التـوراة ، حيث حصرت رسـالة موسى إلى فرعون فى إطلاق بنى إسرائيل من يد فرعون . فقد جاء فيها :

« ولأن هذا هو ذا صراخ بنى اسرائيل قد أتى إلىّ ، ورأيت أيضا الضيقة التى يضـايقهم بها المصريـون . فالآن هلم فأرسلك إلى فرعـون وتخرج شعبى بنى

إسرائيل من مصر » [خروج ٣ : ١٠ - ١١] .

أمـا القرآن الكريم فقد أشار إلى أن موسى كان مكلفا بتبليغ رسالة الله إلى فرعون ، يقول تعالى :

« ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين » [يونس : ٧٥] .

ويؤكد هذا المعنى عدة أدلة ، منهـــا :

ـ ماذكره القرآن الكريم من إيمان رجل من آل فرعون بما يدعو إليه موسى ، يقول تعالى :

« وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ، وقـد جاءكم بالبينـات من ربكم وإن يك كاذبا فعليه كذبه ، وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لايهدي من هو مسرف كذاب » [غافر : ٢٨] .

فلو كانت رسالة موسى موجهة إلى بني إسرائيل فقط ما آمن بها هذا الرجل ، لأنه لم يطلب منه ذلك على اعتبار أن موسى طلب الإيمان من قومه ، ولم يطلبه من آل فرعون .

ـ إيمان السحرة بموسى عندما رأوا عصاه تلقف ما صنعوا ، يقول تعالى :

« . . . وألقي السحـرة ساجـدين قالـوا آمنـا برب العـالمين * رب موسى وهارون » [الأعراف : ١٢٠ - ١٢٢] .

وهذا يدل على أن دعوة موسى إلى الله كانت موجهة إلى المصريين أيضا ، لأن المعروف أن السحرة كانوا مصريين .

ـ أخـبرنـا القرآن الكريم أن العذاب وقع على فرعون وقومه بسبب كفرهم برسالة موسى ، لابسبب أنهم رفضوا إطلاق بني إسرائيل ، يقول تعالى :

« ولقد جاء آل فرعون النذر * كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر » [القمر : ٤١ - ٤٢] .

ويقـــــول :

« وحاق بآل فرعون سوء العذاب النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب . وإذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار . قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد . وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب . قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال . إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، يوم لاينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار » [غافر : ٤٥ - ٥٢] .

— إن الحوار بين موسى وهـارون وبين فرعون دار حول وحدانية الله ، ولم يتطرق أبدا إلى مسألة إطلاق بنى إسرائيل ، يقول تعالى :

« . . . قال فرعون وما رب العالمين * قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين * قال لمن حوله ألا تستمعون * قال ربكم ورب آبائكم الأولين قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون * قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون . . » [الشعراء : ٢٣ - ٢٨] .

ومـا ذكـر من طلب موسى من فرعـون أن يرسل بنى اسرائيل ، فهو طلب لتحريرهم من العبودية وتخليصهم من العذاب الذى كان يصب فوق رءوسهم ليل نهار ، فهو يطلب العدل للمظلومين ، ويسأل الرحمة للمستضعفين . وهذه ظاهرة لازمة فى كل دعوة ، إذا أننا نقرأ فى القرآن الكريم أن الرسل كانوا يطلبون من أقوامهم أن يعبدوا الله ، ثم ينهوهم عن ارتكاب ما حرم الله ، فلوط يطلب من قومه أن يعبدوا الله وأن يقلعوا عن اتيان الذكران ، وشعيب يأمر قومه بعبادة الله وعدم إنقاص الكيل والميزان . . . الخ

وهكـذا كان كل نبى يدعو قومه إلى عبادة الله ، ويأمرهم بالامتناع عن الأفعال السيئة التى شاعت فى مجتمعهم . وعلى هذا فموسى أمر فرعون وقومه بعبادة الله ،

كما نهاهم عن ظلم بنى إسرائيل واستعبادهم . وجاء التعبير عن هذا بقوله تعالى :

« . . . . **أن أرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم** » [طه : ٤٧] .

فرسالة موسى كانت لفرعون وقومه أيضا ، فلما أبوا واستكبروا عاقبهم الله بعذاب أليم ، يقول تعالى :

« **وأتبعناهم فى هذه لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين** » [القصص : ٤٢] .

حوار موسى مع فرعون :

لم تتفق الروايات فى الكيفية التى دخل بها موسى وهارون على فرعون ليبلغاه رسالة الله ، فيذكر بعض المفسرين : أن أمهما خافت عليهما ، وعارضت فى ذهابهما إلى فرعون خشية أن يبطش بهما ، فلم يصغيا لقولها، ولم يكن لهما هم إلا تنفيذ أوامر الله تعالى . ثم يذكرون أيضا أنهما دخلا على فرعون بمجرد استئذانهما عليه ، بينما يذهب آخرون إلى : أنهما ترددا على بابه سنتين لايظفران بالمثول بين يديه، حتى دخل عليه مضحكه وأخبره أن بالباب رجلا مجنونا يدعى أن له إلها غير فرعون ، فكان ذلك حاثا لفرعون على طلب موسى وهارون .

وهذا الاتجاه من المفسرين لاسند له ولا دليل ، فليس فى القرآن الكريم ذكر لهذا على الاطلاق ، بل إنه انتقل فى سرد القصة من أمر الله موسى وهارون بالذهاب إلى فرعون إلى الاخبار عما دار بين موسى وفرعون ، فقال فى سورة طه :

« **إذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى * إذهبا إلى فرعون إنه طغى * فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى * قالا : ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى * قال : لاتخافا إننى معكما أسمع وأرى * فأتياه ، فقولا : إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك باية من ربك والسلام على من اتبع الهدى * إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى** » [طه : ٤٢ - ٤٨] .

وبعد ذلك انتقل القرآن الكريم مباشرة إلى ذكر مادار بين موسى وفرعون ، فقال : « قال : - أى فرعون -

« فمن ربكما ياموسى * قال : ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى * قال : فما بال القرون الأولى * قال : علمها عند ربى فى كتاب لايضل ربى ولا ينسى * الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى * كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى * منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى * ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى » [طه : ٤٩ - ٥٦] .

وفى سورة الشعراء :

« وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين . قوم فرعون ألا يتقون . قال رب إنى أخاف أن يكذبون . ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأرسل إلى هارون*ولهم علىّ ذنب فأخاف أن يقتلون قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون . فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بنى إسرائيل » [الشعراء : ١٠ - ١٧] .

« ثم ينتقل الحديث إلى حوار آخر بين موسى وفرعون ، حوار يختلف عن الحوار الذى تحدثت عنه سورة طه ، إذ يقول تعالى مخبرا عنه نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم : « قال (أى فرعون) : ألم نر بك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين * وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين * قال : فعلتها إذاً وأنا من الضالين * ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين * وتلك نعمة تمنها علىّ أن عبدت بنى إسرائيل * قال فرعون : وما رب العالمين * قال : رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين * قال [أى فرعون] لمن حوله : ألا تستمعون * قال : ربكم ورب آبائكم الأولين قال : إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون * قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون * قال : لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين » [الشعراء : ١٨ - ٢٩] .

ثم انتقل الحوار بعد ذلك إلى إظهار موسى للمعجزات التى أيده الله بها ،

وإنكار فرعون على الرغم من رؤيته إياها، زاعما أنها من السحر الذى يقدر عليه السحرة المنتشرون فى أرض مصر . . وغير ذلك مما سنتحدث عنه فيما بعد .

وقد ذكر حديث عن موسى أيضا فى سورة الأعراف ، وذلك فى معرض بيان أن الله بيَّن الكتاب وفصله للناس ليهتدى من كتب الله له الهداية عن بينة ، وليقيم الحجة على من ينكر رسالات ربه ، وذكر فى هذا العرض صورا لجهود الأنبياء مع أقوامهم ، ثم قال تعالى :

« **ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين * وقال موسى يافرعون إنى رسول من رب العالمين * حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى اسرائيل * قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين** » [**الأعراف : ١٠٣-١٠٦**] .

فيلاحظ أنه لم يذكر فى هذه السورة حوارا بين موسى وهارون ، وإنما انتقل إلى بيان معجزة موسى ودعوة فرعون السحرة لمعارضتها .

ويتبين من هذا أن القرآن الكريم لم يذكر شيئا عن كيفية استئذان موسى وهارون للدخول على فرعون ، ولا خوف أمهما عليهما من بطش فرعون كما روى المفسرون ، كما يتضح أيضا أن الحوار كان متعددا ، مما يدل على أن لقاء موسى مع فرعون لم يكن مرة واحدة ، بل تعددت اللقاءات فكان فرعون يأتى فى كل لقاء باعتراض آخر يختلف عن الاعتراض الذى وجه إلى موسى فى اللقاء السابق ، إلى أن جاءت مرحلة طلب فرعون من موسى إظهار آية .

« **فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين * ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين** » [**الأعراف : ١٠٧-١٠٨**] .

وهنا ظن فرعون أن هذا سحر ، فاستشار من حوله فى هذا الأمر ، فعرضوا عليه أن يجمع السحرة ، ليواجه بهم موسى حتى يبين كذب دعواه .

اختلفت رواية التوراة عن القرآن الكريم فى وصف أحداث مقابلات موسى

وهارون لفرعون من عدة وجوه :

١ ــ جاء فيها أنهما قالا لفرعون : أن الرب إله إسرائيل يقول : « أطلق شعبى ليعبدوا لى فى البرية » [خروج ٥ : ١] .

فهذا تصريح بأن الرب هو إله إسرائيل وليس إله فرعون ، بخلاف ما جاء فى القرآن الكريم ، فإنه صرح بأن موسى بيّن لفرعون أن الرب هو إله فرعون كما هو إله إسرائيل ، يقول تعالى :

« وقال موسى يافرعون إنى رسول من رب العالمين * حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم » [الأعراف : ١٠٤ ـ ١٠٥] .

فإضافة الرب إلى ضمير المخاطب ـ وهو فرعون ـ يفيد أن موسى أخبر فرعون بأن الله هو ربه كما هو رب موسى ، بل تشير كلمة « العالمين » المضافة إلى كلمة الرب إلى أن موسى أخبر فرعون بأن الله هو رب الناس كلهم ، وليس ربا لبنى اسرائيل فقط .

٢ ــ أسهبت التوراة فى ذكر أشياء لم يذكرها القرآن الكريم ، ألا وهى إصدار فرعون أمره إلى مستوى الشعب ومديريه بألا يعطوا بنى إسرائيل علفا لما شيتهم، مع إلزامهم بتوريد مقدار اللبن الذى يوردونه يوميا ، مما أثقل عليهم وأعجزهم ، فشكوا إلى موسى وهارون قائلين :

« . . . ينظر الرب إليكما ويقضى لأنكما أنتنتما رائحتنا فى عينى فرعون ، وفى عيون عبيده حتى تعطيا سيفا فى أيديهم يقتلونا ، فرجع موسى إلى الرب وقال ياسيد لماذا أسأت إلى الشعب ، لماذا أرسلتنى ، فإنه منذ دخلت إلى فرعون لأتكلم باسمك أساء إلى هذا الشعب ، وأنت تخلص شعبك » [خروج ٥ : ٢١ ـ ٢٣] .

ومع أن منع التبن عن بنى إسرائيل ليست له صلة مباشرة بالرسالة تستدعى ذكره فى كتاب مقدس ، فقد يقبل على أنه رواية تاريخية تبين غضب فرعون من

موسى ، إلا أن الذى لايمكن التسليم بصدقه هو أسلوب شكوى موسى عليه السلام إلى الله ، واعتراضه على أنه أرسله إلى فرعون ، إذ يفهم منه أنه جاهل بما يصيب الرسل ومن آمن معهم فى سبيل دعوتهم، وهو ما ننزه موسى عنه . كما أن محاولة المفسرين الربط بين ما حدث لبنى اسرائيل من منع التبن عنهم ، وبين ما جاء فى قوله تعالى :

« **قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ماجئتنا** » [الأعراف : ١٢٩] .

ذاكرين أنه إخبار بهذا الحدث - بعيد عن الصواب ، إذ تفيد الآية أن إيذاء فرعون لبنى إسرائيل لم يشتد بعد لقاء موسى بفرعون ومحاورته معه حول وحدانية الله وحول إطلاق بنى إسرائيل ، فالإيذاء الواقع عليهم بعد مجىء موسى هو الذى كان يصب عليهم أيضا قبل مجيئه، أما التوراة فتوضح أن الايذاء اشتد عليهم بعد مجيئه ، وتمثل ذلك فى منع فرعون إعطاء علف الماشية لهم .

٣ ـ ذكرنا فيما سبق أن التوراة حصرت رسالة موسى إلى فرعون فى تخليص بنى اسرائيل منه ، ولم تتطرق إلى عرض الرسالة عليه ، ومحاولة إقناعه بالدخول فى زمرة المؤمنين بالله ، أما القرآن الكريم فلم يذكر مسألة تخليص بنى إسرائيل إلا ومعها تذكير فرعون بالله رب العالمين أيضا ، فهو رب الخلائق ، ولهذا فهو وقومه مطالبون بالاعتراف به ربا ، وبالخضوع له ، وتنفيذ كل ما بلغتهم به رسله ، ومن بينهم موسى ، فقد جاء الحديث عن تخليص بنى إسرائيل فى ثلاثة مواضع :

الأول : قوله تعالى :

« **وقال موسى يافرعون إنى رسول من رب العالمين * حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى اسرائيل** » [الاعراف : ١٠٤ - ١٠٥] .

فإضافة الرب إلى ضمير المخاطب يفيد ضمنا دعوة فرعون إلى الاعتراف بالله ربا .

والثانى : قوله تعالى :

« . . **فأتيـاه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى** » [طه : ٤٧] .

فذِكْـر « ربك » مرتين فى الآية ، والدعاء بالسلام على من اتبع الهدى فى آخرها دليل على أن رسالة موسى لم تكن مقصورة على تخليص بنى إسرائيل من فرعون ، بل شملت أيضا دعوة فرعون إلى سلوك طريق المهتدين .

والثالث : قوله تعالى :

« **فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين * أن أرسل معنا بنى إسرائيل** » [الشعراء : ١٦ - ١٧] .

فإضافة « رب » إلى العالمين يوضح أن رسالة موسى كانت لفرعون أيضا ، لأنه فرد من أفراد العالمين . أضف ذلك أن موسى قال له فى هذه المحاورة التى تحدثت عنها السورة :

« . . . . **ربكم ورب آبائكم الأولين** » .

إذ مقتضى هذا التعبير إلزام فرعون بالإيمان بما جاء به موسى عليه السـلام .

٤ ــ ذكرت التوراة أن موسى حين أخبر بنى إسرائيل بأن الله أرسله ليخلصهم من فرعون لم يسمعوا الكلام ، وعللت عدم طاعتهم له بصغر نفوسهم ، وقسوة العبودية عليهم : « فكلم موسى هكذا بنى إسرائيل ، ولكن لم يسمعوا لموسى من صغر النفس ومن العبودية القاسية » [خروج ٦ : ٩] .

ولم يذكـر القـرآن الكريم شيئا من هذا العصيان ، بل فهم من سيرة موسى فيه أنهم أطاعوه كلهم ، وهذا يتفق مع طبيعة الظروف التى كانت تحيط ببنى إسرائيل ، إذ كانـوا مستعبـدين ، فجاء واحد منهم وأخبرهم بأن الله أرسله ليخلصهم من عبودية فرعون ، فالحال يقتضى أن يطيعوه ، حتى ولو كانوا واثقين من قدرته على تحقيق ذلك ، لأن ظروفهم تدفعهم إلى التعلق بالأمل ، حتى ولو بدا غير قابل للتحقيق . فعدم طاعتهم التى تحدثت عنها التوراة لاتتفق مع حالتهم ؛ إذ كيف يعصون إنسانا يفتـح لهم باب الأمـل الذى كان بلاشك سيراودهم فى كل الأوقات التى كانوا يحسون فيها بقسوة الظلم ، ويسمعون فيها أنين المعذبين منهم .

تعـددت لقاءات موسى بفرعون ، وتنوعت معارضة فرعون له ، وحين تبين لموسى وهارون أن فرعون لن يؤمن ، فهو متمادٍ فى غيه وضلاله ، ومستمر فى ادعائه الربوبية :

« وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إلٰه غيرى فأوقد لى ياهامان على الـطين فاجعـل لى صرحا لعلى أطلع إلى إلٰه موسى وإنى لأظنه من الكاذبين » [القصص : ٣٨] .

« وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب* أسباب السموات فأطلع إلى الٰه موسى وإنى لأظنه كاذبا وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب » [غافر : ٣٦ - ٣٧] .

استعملا معه أسلوبا أكثر عنفا وأوضح تهديدا ، فقالا له :

« إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى » [طه : ٤٨] .

وهنا سأل فرعون مرة عن ربهما :

« قال فمن ربكما ياموسى » [طه : ٤٩] .

فيجيبه موسى بقوله :

« ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » [طه : ٥٠] .

وأخرى يسأل عن رب العالمين :

« قال فرعون ومارب العالمين » [الشعراء : ٢٣] .

فيجيبه موسى :

« رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . . . ربكم ورب آبائكم الأولين . . رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون » [الشعراء : ٢٤ - ٢٨] .

ويسترسل فرعون فى أسئلته ، فيقول :

« فما بال القرون الأولى » [طه : ٥١] .

فيرد عليه موسى :

« علمها عند ربى فى كتاب لايضل بى ولا ينسى » [طه : ٥٢] .

ثم يذكر فرعون بنعم الله عليه فيقول :

« الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى * كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى » [طه : ٥٣ - ٥٤] .

لكن فرعون يخرج الحوار عن التسلسل المنطقى ، فيذكر موسى بأنه تربى فى بيته ، ولبث معه سنين ، فحق عليه ألا يأتى من الأعمال ما يؤذيه ، وهو الذى رباه ورعاه فى بيته ، كذلك يزيد هذا الحق تأكيدا أنه - أى موسى - قتل مصريا وهرب ، فمن يرتكب مثل هذا العمل ينبغى عليه ألا يرفع صوته فى وجه الحاكم الذى من سلطته أن يعاقبه عليه ، اسمع ما قاله القرآن الكريم عن هذا الحوار ، يقول تعالى حكاية لما قاله فرعون :

« قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك له سنين * وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين » [الشعراء : ١٨ - ١٩] .

[أى عندما كنت مع من تسميهم بالكافرين] .

فيرد عليه موسى عليه السلام :

« . . . . فعلتها إذاً وأنا من الضالين * ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين » [الشعراء : ١٨ - ٢١] .

ويجدر هنا أن نذكر ما ذهب اليه بعض المفسرين من أن فرعون ذكره بفعلته التى فعلها ، وهو أنه قتل الرجل القبطى وهرب على إثرها، ومن كان آثما هذا الإثم فإنه لايأتى بما هو أعظم منه وهو حملهم على ترك آلهتهم ، وتقديس فرعون وترك التوجه إليه بالعبادة ، فإن هذا التفسير يؤكد ما ذكرناه فيما سبق من أن رسالة موسى لم تكن قاصرة على تخليص بنى إسرائيل من فرعون ، وإنما تضمنت أيضا دعوة فرعون وقومه إلى عبادة الله الواحد القهار ، وهذا دليل واضح على أن موسى كان مرسلا إلى قومه ، وإلى المصريين أيضا .

ثم ينتقل الحوار بينهما إلى مرحلة أخرى حيث طلب فرعون من موسى أن يقيم البينة على صدق دعواه النبوة :

« قال [أى فرعـون] إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين » [الأعراف : ١٠٦] .

وهنا جاءت اللحظة التى يظهر فيها موسى ما أراه الله من معجزات حين كلمه فى طور سيناء .

« فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين * ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين » [الأعراف : ١٠٧ ـ ١٠٨] .

وهنا التفت فرعون إلى قومه وقال لهم :

« إن هذا لساحر عليم » [الشعراء : ٣٤] .

وفى موضع آخر أن القوم هم الذين قالوا ذلك لفرعون :

« قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم * يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون » [الشعراء : ٣٤ ـ ٣٥] .

وهذا يدل على أن الحوار بين موسى وفرعون لم يكن مرة واحدة ، ولكنه كان متعددا ، فمرة توجه هو بالكلام إلى قومه بأن موسى ساحر ، وأخرى قال القوم لفرعون ذلك ، ولهذا جاء الحديث عن هذا المشهد فى أكثر من سورة ، يقول تعالى فى سورة الأعراف :

« قال الملأ من قوم فرعـون إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون قالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين * يأتوك بكل ساحر عليم » [الأعراف : ١٠٩ ـ ١١٢] .

وفى سـورة يونس :

« فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا

عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض وما نحن لكما بمؤمنين . وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم » [يونس : ٧٦ - ٧٩] .

وفى ســـــورة طه :

« قال [أى فرعون] أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى * فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لانخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى * قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى * فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى * قال لهم موسى ويلكم لاتفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى فتنـازعـوا أمـرهم بينهم وأسروا النجوى * قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى * فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى » [طه : ٥٧ - ٦٤] .

وفى ســـــورة الشـعراء :

« قال للمـلأ حولـه إن هذا لسـاحر عليم * يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحـره فماذا تأمرون * قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين * يأتوك بكل سحّار عليم » [الشعراء : ٣٤ - ٣٧] .

قبل موسى التحدى ، فوافق على لقاء السحرة يوم الزينة ليثبت للقوم أن ما ظهر على يديه ليس سحرا ، وإنما هو معجزة أيده الله بها للتدليل على صدق دعواه النبوة .

لقاء الســــحرة :

أصدر فرعون أمره بأن يجمع السحرة من مدائن مصر وقراها فى يوم الزينة ، أى يوم العيد ، فجاءه عدد كبير منهم ، يحدوهم الأمل ، بل كانوا واثقين من أنهم سوف يتغلبـون على موسى ، فينالون مزيدا من الحظوة والتكريم عند فرعون ، ودفعهم دلالهم بأنفسهم ، وثقتهم بقـدرتهم على الإتيان بأشياء يعجـز موسى - حسب اعتقادهم قبل المنازلة - عن مجاراتهم فيها : أن طلبوا من فرعون أن يعدهم

بأجر ، لو حققوا رغبته فغلبوا موسى ، فوعدهم بالأجر الجزيل والزلفى لديه ، وهو إغراء يدفعهم إلى بذل أقصى ما فى استطاعتهم فى هذا المجال ، لأن قربهم من فرعون هو أعلى مراتب التكريم فى الدولة ، كيف لا ، وهم سيؤيدون ربوبيته ، ويقيمون من الأدلة مالا يدع أحدا يشك فى ألوهيته ، وبذلك يثبت عرشه ثباتا لا تزعزعه أية قوة على الأرض ، فلا غرو أن يُقرَّبوا إليه ، فيشعروا بأنهم شركاء له فى هذه السلطة . يقول تعالى :

«فجمع السحرة لميقات يوم معلوم وقيل للناس هل أنتم مجتمعون * لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين * فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين * قال نعم وإنكم لمن المقربين » [الشعراء : ٣٨ - ٤٢] .

ثم التفت السحرة إلى موسى وسألوه عما إذا كان يريد أن يبدأ هو أولا ، أم يدعهم يظهرون مالديهم من قوة سحرية ، فسمح لهم موسى بأن يبدأوا ، وكان عتادهم فى هذه المبارة : العصا والحبال ، فألقوها ، فإذا بالمكان يمتلىء حيات وثعابين ظن موسى أنها تسعى ، وعندئذ تعالت صيحات الجماهير بالهتاف والفرح ، وبدا السرور الواضح على وجه فرعون ، وظن الحاضرون أن الأمر قد حسم بانتصار السحرة ، لأن موسى لن يستطيع مقاومة هذه الظاهرة السحرية ، إذ ليس فى يده سوى عصا واحدة ، فكيف يتغلب على هذه الكثرة من الثعابين والحيات . وهنا أحس موسى بالخوف والرهبة ، فأمره الله بأن يلقى عصاه ، فامتثل لأمره راجيا منه أن يظهر صدقه أمام هذه المجموع ، وإلا فلن يستطيع بعد اليوم الاستمرار فى تبليغ رسالته إلى الناس .

وهنا حدثت المعجزة - ولم تكن سحرا - فانقلبت عصا موسى حية حقيقية - وليس تخيلا كما هو الواقع عند السحرة - فابتلعت حيات السحرة وثعابينهم فبان الحق واضحا جليا ، وزهق باطل السحرة متواريا ، فأيقن السحرة أنهم أمام ظاهرة بعيدة كل البعد عن كونها سحرا ؛ إذ ليس ما أمامهم من جنس ما يوهمون به الناس ، فهو من عمل قوة تفوق قوة البشر بمراحل ، فخروا ساجدين لله تعالى ،

وآمنوا برب موسى وهارون ، فأحس فرعون بعجزه ، وتبين له أنه لايمكنه أن يقاوم قوة موسى بعدما عجز السحرة عن ذلك ، كما شعر بضربة قصمت ظهره ، عندما رأى السحرة أمام عينيه وعلى مرأى ومسمع من جماهير شعبه يسجدون لرب موسى ، ويؤمنون به ، فحاول أن يستر غيظه ، ويداوى مرارة الخجل أمام شعبه ، فاتهم السحرة بأنهم تعلموا السحر على يديه ، فهو كبيرهم ، وليس ماحدث الآن سوى تدبير بينه وبينهم ، ثم توعدهم بتقطيع أيديهم وأرجلهم عقابا لهم على ذلك ، وتأديبا لهم على إيمانهم قبل أن يأخذوا الإذن منه .

لكن السحرة لم يبالوا بهذا التهديد والوعيد ، لأنهم أيقنوا أنهم التجأوا إلى من هو أقوى من فرعون وهو الله سبحانه وتعالى ، فأعلنوها صراحة وفى وجهه أمام جموع شعبه ، أنه لم يعد القوى الجبار الذى يرجون منه الخير ، وينتظرون منه الأجر والرضا ، فلن يؤثروه على ما جاءهم من الحق والهدى ، فليكثر من وعيده ، وليتمادى فى تهديده فلن ينال منهم شيئا ماداموا قد التجأوا إلى العلى القدير سبحانه وتعالى . اقرأ ما جاء فى القرآن الكريم تصويرا لهذا المشهد ، يقول تعالى فى سورة الأعراف :

« قالوا ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين * قال ألقوا ،فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم * وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون * فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون * فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين * وألقى السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون * قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون * لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ثم لأصلبنكم أجمعين * قالوا إنا إلى ربنا منقلبون * وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنامسلمين»
[الأعراف : ١١٥ - ١٢٦] .

ويقول تعالى فى سورة طه :

« قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى * قال بل ألقوا فإذا

حبـالهم وعصيهم يخيـل إليه من سحرهم أنها تسعى * فأوجس فى نفسه خيفة موسى * قلنا لاتخف إنك أنت الأعلى * وألق مافى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى * قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبير كم الذى علمكم السحر فلأ قطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى * قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وماأكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى * إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لايموت فيها ولا يحيى * ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى * جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى »
[طه : ٦٥ - ٧٦] .

ويقول فى سورة الشعراء :

« فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين * قال نعم وإنكم إذًا لمن المقربين * قال لهم موسى ألقوا ماأنتم ملقون * فألقوا حبـالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون * فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون * فألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهـارون * قال آمنتم له قبـل أن آذن لكم إنـه لكبيركم الذى علمكم السحر فلسـوف تعلمون * لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين * قالوا لاضير إنا إلى ربنا منقلبون إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين »
[الشعراء : ٤١ - ٥١] .

ومما يجدر ذكره أن القرآن الكريم أشار إلى أن ما فعله السحرة لم يكن قلبا لحقيقة العصى والحبـال ، وإنـما كان تخيلا ، أمـا تحويل عصا موسى إلى حية ، فكان حقيقة ، إقرأ قوله تعالى فى جا نب ما فعله السحرة :

« يخيل إليه من سحرهم » .

وقوله عن عصا موسى :

« **فاذا هى حية تسعى** » .

تجد فرقا بين التعبيرين يؤكد أن السحر ليس إلا تخيلا ، والمعجزة قلب لحقيقة الشىء ، لأنها ممن خلق ، وهو قادر على تحويل ما خلقه ، سبحانه إنه على كل شىء قدير .

مقـــــارنة :

بينا فيما سبق ماحدث فى يوم الزينة ، حيث جمع فرعون سحرة مصر وأغراهم بالمال والحظوة عنده إن هم تغلبوا على موسى ، وأنى لهم ذلك ، وما يظهر على أيديهم مما يسمونه سحرا ليس إلا خداعا للعيون وتضليلا للأحاسيس ، بينما ما يأتى به موسى فهو معجزة من الله القادر على قلب حقيقة الأشياء لأنه خالقها ، وهذا هو ما ظهر واضحا للسحرة ، لأنهم أقدر الناس على التفريق بين الخداع والحقيقة فى هذا المجال ، فآمنوا بموسى حين رأوا قلب حقيقة عصاه إلى حية .

فكيف كانت رواية التوراة لهذا الحدث ؟

تقـول التـوراة : « فقـال الـرب لموسى : انظر : أنا جعلتك إلها لفرعون ، وهارون أخوك يكون نبيك . أنت تتكلم بكل ما آمرك ، وهارون يكلم فرعون ليطلق بنى إسرائيل من أرضه ، ولكنى أقسى قلب فرعون ، وأكثر آياتى وعجائبى فى أرض مصر . ولا يسمـع لكـما فرعـون حتى أجعـل يدى على مصر فأخرج أجنـادى ، شعبى ، بنى إسرائيل من أرض مصر بأحكـام عظيمـة . فيعـرف المصريون أنى أنا الرب حينما أمد يدى على مصر وأخرج بنى إسرائيل من بينهم ففعل موسى وهارون كما أمرهما الرب هكذا فعلا . وكان موسى ابن ثمانين سنة وهـارون ابن ثلاث وثمانين سنة حين كلما فرعون . وكلم الرب موسى وهارون قائـلا : إذا كلمكـما فرعون قائلا : هاتيا عجيبة ، تقول لهارون : خذ عصاك واطرحها أمام فرعون فتصير ثعبانا فدخل موسى وهارون إلى فرعون وفعلا هكذا كما أمر الرب ، طرح هارون عصاه أمام فرعون وأمام عبيده فصارت ثعبانا . فدعا

فرعون أيضا الحكماء والسحرة ففعل عرافو مصر أيضا بسحرهم كذلك طرحوا كل واحد عصاه فصارت العصى ثعابين ، ولكن عصا هارون ابتلعت عصيهم ، فاشتد قلب فرعون فلم يسمع لهما كما تكلم الرب » [خروج : ٧ : ١ - ١٣] . ويبدو من هذا النص أن فيه نقاطا جوهرية يختلف فيها عما جاء فى القرآن الكريم .

أولاهـا : أن الله جعل موسى إلها لفرعون ، وهذا مناقض لما يقتضى أن يكون عليه موسى ، وهو كونه بشرا سويا ، اختاره الله ليكون رسولا إلى فرعون وقومه ، فكيف يصير إلها ؟ لكن القرآن الكريم لم يرفع بشرا إلى مرتبة الألوهية ، وإلا كان ذلك منافيا لوحدانية الله سبحانه وتعالى ، فلم يخرج فى الحديث عن موسى عن كونه بشرا رسولا ، يقول تعالى :

« وإذ قال موسى لقومه [وهم بشر ، فهو واحد منهم] ياقوم لم تؤذنني وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم » [الصف : ٥] .

ويقـــول :

« ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوما عالين * فقالوا : أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون » [المؤمنون : ٤٥ - ٤٧] .

ويقـــول :

« قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين » [الأعراف : ١٤٤] .

ثانيتها : أن نص التوراة يبين أن الله أخبر موسى وهارون ـ قبل أن يذهبا إلى فرعون ويطلبا منه الاعتراف بوحدانية الله ـ بأنه سيطمس على قلب فرعون، فلا يكون له سبيلا إلى الإيمان ، ويغلق قلبه فلا يجعله يسمع لهما . فإذا كان الأمر كذلك فما الفائدة من إرسالهما إليه ؟ إنهما فقدا الأمل فى إيمانه ، فكيف يأتى لهما الحماس والصدق فى القول ، والحرص على نجاح مهمتهما ، وقد علما أن مهمتهما فاشلة ، فلن يأتى ذلك بنتيجة لأن الله حكم على فرعون بعدم الإيمان ؟ وهذا فى

حد ذاته أيضا مناف لحكمة الله التى تركت الحرية للإنسان فى اختيار عقيدته ، حتى تكون محاسبته على أساس عمل قام به هو ، دون أن تتدخل أية قوة فى إجباره عليه : « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » . فإذا بحثنا عن هذا الجانب فى القرآن الكريم ، نجد أنه وضح لنا أن فرعون كان حرا أثناء عرض موسى الإيمان، عليه ، لذلك كان موسى حريصا على إقناع فرعون بالاعتراف بوحدانية الله ، اقرأ قوله تعالى :

« فقولا له قول لينا لعله يتذكر أو يخشى » . [طه : ٤٤]

وما طول محاورة موسى مع فرعون ، وتنوعها إلا دليلا على حرص موسى على إقناع فرعون بالإيمان ، فلو علم أن الله كتب عليه عدم الايمان ـ كما أخبرت التوراة ـ ما استمر موسى فى المحاورة معه إلى هذا الحد من الكثرة والتنوع .

ثالثتها : لم تذكر التوراة شيئا عن إيمان السحرة بموسى بعد رؤيتهم العصاة وهى تلقف ما صنعوا من سحر ، وبالتالى ليس فيها شىء عن حوارهم مع فرعون ، تلك المحاورة التى أوضحت أن أصحاب العقيدة لايخشون إلا الله ، فقد ضرب السحرة بتهديد فرعون عرض الحائط ، بل استخفوا به ـ وهو الذى كان حتى قبل فترة وجيزة إلها لهم ـ وقالوا له :

« لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون » . [الشعراء : ٥٠]

تركت التوراة هذه الجوانب المهمة فى عرض أحداث الصراع بين المؤمنين والمعارضين ، وذكرت أشياء لاتقدم ولا تؤخر فى معرض الحديث عن الصراع بين أصحاب الرسالات والمناوئين لهم ، مثل النص فيها على أن عمر موسى آنذاك كان ثمانين سنة ، وهارون كان ثلاثا وثمانين . كذلك نصت على أن الذى ألقى العصا هو هارون ، وملابسات الوضع تقتضى أن يكون موسى هو الذى ألقى العصا ، لأنه عاش هذه التجربة قبل ذلك فى طور سيناء عندما كلمه ربه .

ولاشك أن هذا الاختلاف بين القرآن الكريم وبين ما جاء فى التوراة يبين

مدى دقة القرآن الكريم ، ومراعاته لجميع الظروف والملابسات ، فلم يأت بشيء يخالف الواقع أو يتناقض مع الظروف والملابسات ، أو يكون منافيا لما ينبغي أن تكون عليه الأوضاع النفسية والفكرية لرسول الله الذى كُلفَ بتبليغ وحى الله وبذل الجهد لاقناع من يعرض الرسالة عليه .

الكوارث بين المعجزة والعقاب :

طغى فرعون واستكبر ، فظن أن سلطانه أقوى من جبروت الله ، وغلبت على نفسه النوازع المادية ، فاعتقد أن مابيده من خيرات مصر وثمارها دليل على عزته وقوته ، فحاول إقناع قومه بأنه خير من هذا الضعيف المسكين الذى لايملك من القوة مثل ما فى حوزته ، وليس عنده من الخيرات نظير ما تحت يده من الأنهار الجارية فى أرض مصر . ولما كان من طبيعة الإنسان الانقياد إلى من يملك القوة ، والجرى وراء من بيده منابع الخيرات التى تقوم عليها حياته الفسيولوجية ، فليس من المستغرب إطاعة قوم فرعون له ، وموافقتهم على ما يدعيه ، على الرغم مما فيه من البعد عن الحق ، والانحراف عن طريق الهدى. أضف إلى ذلك أنهم ألفوا الانقياد لفرعون فى كل ما يأمر به ، والسير وراءه فى كل مسلك يسلكه ، فذلك شأن رعايا المتكبرين والطغاة ، فإنهم يفنون ذاتهم فى ديكتاتورهم ، ابتغاء الزلفى لديه ، أو خوفا من بطشه وجبروته ، يقول الله تعالى :

« ونادى فرعون فى قومه ، قال ياقوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون * أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولايكاد يبين * فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين * فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين » [الزخرف : ٥١ ـ ٥٤] .

أراد الله سبحانه وتعالى أن يذكر فرعون وقومه بأن قوة الله فوق قوة البشر ، فإن شاء خسف بهم الأرض ، أو أنزل عليهم عقابا أليما ، يرونه بأعينهم ، ويحسون أثره فى حياتهم ، لعلهم يرتدعون عن غيهم ، ويقلعون عن ضلالهم ، فأرسل عليهم نوائب ونكبات فى صورة متعددة ، وهى :

١ ـ جـدب : انخفض ماء النيل فلم تكف مياهه لإرواء أرضهم ، واشتهر هذا بينهم بسنى الجدب ، وكانت قاسية عليهم لدرجة أنهم لم ينسوها فأرخوا بهـا .

٢ ـ نقص الثمـرات : وكان ذلك نتيجة لنقص مياه النيل ، فلم يعد عندهم ما يكفيهم من الثمار . وجاء فى بعض مصادر التاريخ أن هذا النقص كان نتيجة لإصابة الثمار بالعاهات والجوائح .

٣ ـ الطـوفان : وهو زيادة مياه النيل زيادة ضاق بها مجراه ، ففاض وأغرق ما حوله ، وفى ذلك تدمير وإهلاك لكل ماطفا عليه فأغرقه . فكأن الله سبحانه أراد أن يعذبهم بقلة الماء وكثرته ، إذ ينتج عن قلته موت زروعهم وهلاك ثمارهم ، كما تتسبب كثرته الزائدة فى هلاك مايملكون من ثمار ومتاع أيضـا .

٤ ـ الجـراد : إذ أرسل الله على بلادهم جرادا ، فأكل الزرع ، والتهم الثمـار .

٥ ـ القمـل : ـ واحـدتـه قملة ، وهى دويبـة طفيلية عديمة الأجنحة ، من فصيلة القَمْليات ـ ثلاثة أنواع : منها تلسع الانسان وتغتذى بدمه ، وهى : قملة الرأس ، وقملة الجسد ، وقملة العانة . وهناك أنواع تركب الحيوان . وتنقل قملة الجسـد مرضـا خطيرا هو : التيفوس . أصاب الله قوم فرعون بهذه الأنواع من القمل ، فأقض مضاجعهم وأتعبهم كثيرا .

٦ ـ الضفـادع : روى أنها كثرت فى مصر كثرة نغصت عليهم حياتهم ، لأنها كانت تسقط فى طعامهم ، وتسبح فى فراشهم ، وبين ملابسهم .

٧ ـ الـدم : وجاء هذا العقاب فى صورة جريانه فى مياههم ، فكانوا يجدون الدم فى كل مجرى مائى ، فلم يستطيعوا الشرب مما أجهدهم وعذبهم عذابا أليمـا .

وقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى بذلك فى قوله تعالى :

« ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الأموال والأنفس والثمرات لعلهم

يتذكرون * فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ، ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون * وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين * فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين * ولما وقع عليهم الرجز قالوا ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل * فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون » [الأعراف : ١٣٠ - ١٣٥] .

ويلاحظ أن القرآن الكريم نسب هذه الكوارث إلى الله سبحانه وتعالى ، حيث قال :

« **فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم . . .** » .

وليس فى هذا أدنى إشارة إلى أنها كانت مما أجراه الله على يد موسى كمعجزة له ، لكن المفسرين اعتبروها معجزات، أراد الله بها تأييد موسى فى دعواه ، فهل كان ماورد فى التوراة من التصريح بأنها معجزات سببا فى هذا الاتجاه فى التفسير ؟

فقد جاء فى التوراة : أن ما نزل بقوم فرعون كان معجزة أجراها الله على يد موسى وأخيه هارون عليهما السلام ، إذ ورد فى سفر الخروج [١٧ : ١٩ - ٢٥] . أن الله كلف موسى بأن يقول لهارون أن يأخذ عصاه ويضعها فى أنهار المصريين ، فصدع هارون بالأمر فتحول كل المياه إلى دم ، أى أن المعجزة لم يقم بها موسى ، بل هارون،فى حين أن القرآن الكريم لم ينسب إلى هارون أى معجزة من المعجزات .

كذلك جاء فى سفر الخروج أيضا : أن خروج الضفادع من الماء، وزحفها على أرض مصر لمضايقة المصريين، كان على يد هارون أيضا [خروج ٨ : ١ - ١٥]، وكذلك كثرة البعوض [٨ : ١٦ - ١٨] أما المطر الغزير والبرد والرعد فكان على يد موسى ، وكذلك الجراد. [خروج ٩ : ٢٢ - ٣٤ - ١٠] أضف إلى ذلك أنه قد ورد فيها ظواهر لم تذكر فى القران الكريم ، جرى بعضها على يد موسى ، والبعض الآخر فعله الرب مباشرة ، مثل :

ـ كثرة خراب الأرض بفعل الذبان ، وكان ذلك بفعل الرب : « . . . ففعل الرب هكذا ، قد خلت ذبان كثيرة إلى بيت فرعون وبيوت عبيده ، وفى كل أرض مصر خربت الأرض من الذبان » [خروج ٨ : ٢٠ - ٢٤] .

ـ إصابة البهائم بالدمامل والبثور [خروج ٩ : ٨ - ١٢] . ويلاحظ أن الحديث عن هذه الإصابة ، جاء بعد أن تحدثت التوراة عن معجزة أخرى حدثت بعد إنذار موسى فرعون بها ، وكانت ممثلة فى هلاك جميع مواشى فرعون وقومه . فكيف يخبر سفر الخروج بعد ذلك باصابة تلك البهائم « التى أهلكت من قبل » بالدمامل والبثور . إن هذا لدليل واضح على أن كاتب التوراة الموجودة الآن بشر ، فهى ليست وحيا ، وإلا ما جاء فيها هذا التناقض !!

ـ إظلام أرض مصر ثلاثة أيام ، وجاءت هذه المعجزة على يد موسى ، إذ جاء فى سفر الخروج أن : « موسى مد يده نحو السماء ، فكان ظلام دامس فى كل أرض مصر ثلاثة أيام ، لم يبصر أحد أخاه ، ولا قام أحد من مكانه ثلاثة أيام ، ولكن جميع بنى إسرائيل كان لهم نور فى مساكنهم » [خروج ١٠ : ٢١ - ٢٣] .

ـ موت كل بكر فى أرض مصر، سواء كان من الانسان أو من الحيوان : « . . . . فحدث فى نصف الليل أن الرب ضرب كل بكر فى أرض مصر من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الأسير الذى فى السجن ، وكل بكر بهيمة . . . وكان صراخ عظيم فى مصر ، لأنه لم يكن بيت ليس فيه ميت » [خروج ١٢ : ٢٩ - ٣٠] .

فنصوص التوراة تشير بوضوح إلى أن ما أصاب فرعون وقومه ، لم يكن إلا من قبيل المعجزات ، سواء ظهرت بفعل الرب مباشرة ، أو جاءت على يد موسى أو هارون ، أما حديث القرآن الكريم عن هذه الكوارث التى أصابت المصريين ، فكان واضحا فى نسبتها إلى الله ، إذ لم يشر من بعيد أو قريب إلى أن موسى أو هارون قام بإحداث أى منها بيديه ، أو أنها جرت على يديه ، يقول تعالى :

« فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم » . [الأعراف : ١٣٣]

لكن المفسرين اعتبروها معجزات ، أراد الله بها تأييد موسى فى دعواه ، اعتماداً على ما جاء فى قوله تعالى :

« ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى اسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك ياموسى مسحورا * قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لأظنك يافرعون مثبورا » [الإسراء : ١٠١-١٠٢] .

لأنهم فسروا الآيات فى هذه الآية بالمعجزة ، واستأنسوا فى هذا التفسير بما ورد فى التوراة .

وعلى الرغم من أن هذا هو الاتجاه السائد فى التفسير ، إلا أنه ظهر رأى آخر ، ألا وهو أن المراد بالآيات فى هذه الآية : الأحكام ، إذ ذهب هذا الفريق إلى أنها كانت أحكاما أمروا بالأخذ بها ، بدليل قوله تعالى :

« وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين » [النمل : ١٤] .

وقوله :

« فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » [الأنعام : ٣٣] .

فجحود المنكرين لرسالات الأنبياء منصب على تكذيبهم فى دعوى الرسالة ، وعدم الايمان بما جاءوا به من مبادىء وتشريعات ، إذ المشهور أن الجحود كان للرسالة ، والتكذيب منصب على ما كان يدعو إليه موسى عليه السلام ، وهم قد ظلموا أنفسهم بعدم إيمانهم بما جاء به ، وتنفيذهم ما يأمرهم به من أحكام وتشريعات .

كذلك إخبار القرآن الكريم بأنهم كانوا ـ عندما تنزل بهم مصيبة من هذه المصائب التى ورد ذكرها فيه ـ يطيروا بموسى ومن معه :

« وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون » [الأعراف : ١٣١] .

يدل على أن هذه الكوارث لم تظهر على يد موسى كمعجزة مؤيدة له ، وإنما

أصابتهم كعقاب لهم على تكذيبهم له ، بدليل أنهم كانوا يسألونه أن يدعو ربه بأن يكشف عنهم الرجز :

« ولما وقع عليهم الرجز قالوا ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى اسرائيل » [الأعراف : ١٣٤] .

فلو كان هذا ناتجا عن فعل موسى كمعجزة ، لسألوه أن يعيد الأمر كما كان قبل أن يفعل هذه المعجزة ، ولكن رجاءهم له بدعاء ربه ، يشير إلى أنهم لم يفهموها على أنها معجزة ، بل على أنها كوارث طبيعية ، ويرجون ، من موسى أن يرجو ربه بأن يرفعها عنهـم .

ومـا ورد من وصفهم له بأنه ساحر، لايضعف هذا التفسير للآية ، بل يؤكده ، لأن وصف الساحر فى هذا العصر كان ملازما للعالم ، فقولهم : « يأيها الساحر » أى العالم ، فقد كان علماء زمانهم هم السحرة ، ولم يكن السحر فى هذا العصر مذمومــا .

وأخيرا : لو اعتبرناها معجزات مضافة إلى معجزتيه الواضحتين ، وهما : « اليد والعصا » لجاوزت معجزاته التى ظهرت على يديه أثناء إقامته بمصر هذا العدد « وهو التسع كما جاء فى الآية » ، ذلك أنها سوف تكون كما يلى :

١ ــ السـنون .
٢ ــ نقص الأمـوال .
٣ ــ نقص الثمـرات .
٤ ــ نقص الأنفـس .
٥ ــ الطوفـان .
٦ ــ الجـراد .
٧ ــ القمــل .
٨ ــ الصفادع .
٩ ــ الـــدم .

١٠ ــ اليــد .

١١ ــ العصـا .

ولم يرد نص فى القرآن الكريم إلا تسعا فى قوله تعالى :

« **ولقد آتينا موسى تسع آيات** » .

فهذا يدل على أن المراد بالآيات فى هذه الآية : الأحكام ، أو المبادىء العامة .

أمـا ما أصـاب المصريين ، فكـانت كوارث أراد الله بها عقـابهم على كفـرهم وجحودهم ، يقول تعالى :

« **ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى** » [طه : ٥٦] .

« **فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى ، وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين * وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار إنه لايفلح الظالمون** » [القصص : ٣٦ - ٣٧] .

التحـــــدى :

كان من الطبيعى والمسلم به أن يؤمن فرعون ، ويصدق بصحة ما جاء به موسى عليه السلام ، بعد أن أظهر الله على يديه من المعجزات ما تلين أمامه القلوب المتحجـرة ، وتخضـع له نفـوس الـطغاة القاسية ، وتسلم به أكثر العقول عنادا واستكبارا ، ولكن لم يهز ماظهر على يد موسى مع السحرة قلب فرعون المغلق على الكفر والضلال ، فتمادى فى كفره وأصر على عناده ، إذ أعمى الله بصره، فلم ير الفرق بين ما ظهر على يد موسى وما يفعله السحرة ، وطمس على قلبه ، فلم يدرك صحة ما يقوله موسى عليه السلام ، ومما زاده إنكارا واستكبارا ما كان عليه قومه من تكذيب لرسالة الله ، واستنكار لموقفه السلبى - حسب زعمهم - منه ، فأغروا صدره على موسى ، وحرضوه على اتخاذ خطوة إيجابية ضده ، حيث لاموه على ترك موسى وقومه يفسدون فى الأرض على حد زعمهم ، يقول تعالى :

« **وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ، ويذرك**

وآلهتك . قال سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم وإنا فوقهم قاهرون » [الأعراف : ١٢٧] .

وبينما كان قوم فرعون يحرضونه ضد موسى وقومه ، كان بنو إسرائيل يضجون بالشكوى إلى موسى مما يلاقونه من ظلم واستعباد المصريين لهم ، فذكرهم موسى بأن الله قادر على أن يهلك عدوه ، فليصبروا فسيكون النصر لمن آمن به ، وسينال العقاب من كفر به ، وآذى عباده ، يقول تعالى :

« **قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين * قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون** » [**الأعراف** : ١٢٨ - ١٢٩] .

لم يقف الصراع بين موسى وفرعون عند تعذيب بنى إسرائيل وقتل أبنائهم ، بل خطا مرحلة أخرى ، ألا وهى تدبير قتل موسى عليه السلام ، فقد توعد فرعون موسى بقتله متحديا إلهه ، وبرر هذا الوعيد بأنه يريد أن يمنعه من تبديل دين قومه ، ويمنع الفساد الذى سيظهر من جراء دعوته ، فكان رد موسى على هذا الوعيد بأن استعاذ بالله من هذا المتجبر وأمثاله ، يقول تعالى :

« **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب * فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا فى ضلال * وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم ، أو أن يظهر فى الأرض الفساد * وقال موسى إنى عذت بربى وربكم من كلّ متكبرّ لايؤمن بيوم الحساب** » [غافر : ٢٣ - ٢٧] .

استقر رأى فرعون وقومه على قتل موسى عليه السلام ، وبينما هم منهمكون فى تدبير خطة قتله ، ارتفع من بينهم صوت يحذرهم من قتله ، مُذكّراً إياهم بأنه

لاينبغى أن يقتلوا رجلا يقول : « ربى الله »، لأنه قد جاء لهم ببينات واضحة تدلّ على صدق ما ادّعاه . واستمر هذا الرجل يجادل فرعون وقومه فى هذه المسألة ، فذكرهم بأنه لو كان كاذبا فلن يلحقهم منه ضرر ، ولو كان صادقا فلسوف ينالهم بعض مايوعـدهم به من الهلاك والعذاب . فلما سمع فرعون مقالة هذا الرجل انبرى يحاوره ويجادله ، ثم التفت إلى بقية القوم يطلب منهم نصرة رأيه ، موهما إياهم بأنه على حق ، وبأنه هو الذى سيقودهم إلى سبيل الرشاد ، فرد عليه الرجل محذرا إياه ، ومذكراً قومه معه ببأس الله الذى ينزل على المنكرين لدعوات الرسل عليهم السلام ، ضاربا لهم المثل بما نزل بقوم عاد ، وثمود ، ونوح وغيرهم ممن عارضوا رسل الله ، واستكبروا على الإيمان به ، وبين لهم أن ما جاء به موسى عليه السلام ليس بدعا من القول ، فهو يذكر الناس بما قاله الرسل من قبل ، ويدعو فرعون وقومه بما دعا به الرسل قبله أقوامهم ، فقد جاء يوسف من قبل بالبينات ، فكذبه آباؤكم ، ومازلتم فى شك مما جاءكم به ، وهذا ضلال واضح ، وارتياب فيما لاينبغى أن ترتاب فيه العقول السليمة ، وما ذاك إلا لأن الله طبع على قلوبكم فأغلقتمـوها أمام صوت الحق ، وأعمى الله أبصاركم فأصبحتم لاترون هداية الله ، ومن كان هذا شأنـه فلن يؤمن أبدا . اقرأ ما أخبر به الله رسوله عن هذا الحوار ، يقول تعالى :

« وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم إن الله لايهدى من هو مسرف كذاب * ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد * وقال الذى آمن ياقوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب * مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد * وياقوم إنى أخاف عليكم يوم التناد * يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد * ولقـد جاءكم يوسف من قبـل

بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب * الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار » [غافر : ٢٨ - ٣٥] .

اشتد غضب فرعون ، فلم يتمالك أعصابه ، فصاح بوزيره هامان ، آمرا إياه بأن يبنى له صرحا ليصعد بواسطته إلى السماء ، كى يطلع على إلٰه موسى ، ثم أردف كلامه بما يبين أن لن يراه ، لأن موسى كاذب فى دعواه : أن هناك إلها فى السماء ، يعبر القرآن الكريم عن ذلك ، حيث يقول الله تعالى :

« وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب * أسباب السموات فأطلع إلى إلٰه موسى وإنى لأظنه كاذبا ، وكذلك زين لفرعون سوء عمله ، وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب » [غافر : ٣٦ - ٣٧] .

فرد الرجل المؤمن بهدوء ثابت ، ومنطق سليم ، مخاطبا القوم ، ومتجاهلا فرعون ، لأنه وصل إلى حالة من الغضب والهياج لاتسمح بأن يعى مايسمع ، وإن وعاه ، فلن يمكنه هياجه من إدراك جانب الحق فيه . وهذا هو سر توجيه الرجل المؤمن كلامه إلى القوم دون فرعون ، فقد أدرك بحسه الروحى أن لاسبيل إلى أن يصدق فرعون برسالة الله ، أما قومه فمن الممكن أن يوجد فيهم من يشرح الله صدره لقبول ما جاء به موسى ، اقرأ أسلوبا آخر من أساليب هذا الرجل فى دعوته إلى الايمان برسالة الله ، يقول تعالى :

« وقال الذى آمن ياقوم اتبعونى أهدكم سبيل الرشاد * ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار * من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب * وياقوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار * تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ماليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار * لاجرم أنما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم

أصحـاب النار * فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعبـاد * فوقـاه الله سيئـات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب * النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب »
[غافر : ٣٨ - ٤٦] .

الخـــــروج :

ليس من السهل على بنى البشر أن يصدقوا الرسل بمجرد سماعهم دعواتهم ، لأن شياطين الانس والجن لاتتوانى فى لحظة عن إغوائهم ، ولإبعادهم عن طريق الحق ، ولهذا نجد أن كل رسل الله خاضوا تجربة ، تكاد تكون واحدة فى مسارها العام :

دعوة إلى طريق الحق ، إجابة من المستضعفين ، ومعارضة شديدة من الطغاة والمستكبرين ، تتطور إلى إيذاء للرسل وأصحابهم .

وعندما تصل الأمور إلى حد اليأس من إيمان المنكرين ، وإلى حافة الشك من جانب الذين لما يثبت الايمان فى قلوبهم ، ولما ترسخ العقيدة بين أفئدتهم ، يأتى أمـر الله بالهجـرة إلى بلد آخر، حيث يجد المؤمنون لهم متنفسا فى جو من الحرية ، بعيد عن الضغـوط النفسية ، وممارسات التعذيب والتنكيل من جانب أعداء الإيمان وحلفاء الشيطان .

ولم تخرج دعوة موسى عليه السلام عن هذا الإطار العام ، فقد دعا فرعون وقومه إلى الإيمان بالله وحـــده ، فأبى مستكـبرا ، وتـطاول على موسى ومن آمن معـه بالاستهزاء أولا ، ثم بمضايقتهم فى أرزاقهم ، وإلحاق الأذى ماديا وأدبيا بمن هم تحت يده ، إلى أن بلغ الطغيان به حدا ، جعله يفكر فى تدبير قتل موسى عليه السلام .

وهنا أمر الله موسى بأن يأخذ بنى إسرائيل ويرحل من مصر ، فخرج بهم ليلا ، حتى لا تراهم عيون فرعون المنبثة فى أرجاء مصر ، وتوجه بهم شرقا صوب سيناء ،

وحين علم فرعون بأمر خروجهم ، جمع جيشا كبيرا وانطلق به فى أثرهم ، فلما بلغه أمر خروج بنى إسرائيل، كانوا قد وصلوا إلى شاطىء البحر الأحمر ، فأيقنوا أنهم هالكون لا محالة ، فسكّن موسى روعهم موضحا لهم أن الله معهم ، ولن يستطيع فرعون أن ينال منهم شيئا ، أو يلحق بهم سوءا لأن الله يحميهم منه ، ثم ضرب البحر بعصاه كما أمره الله سبحانه وتعالى ، فانفلق حتى ظهرت أرضه ، فأمر بنى إسرائيل بالعبور فيه ، فعبروا من الشاطىء الغربى إلى الشاطىء الشرقى ، وفى تلك اللحظة وصل فرعون بجنوده إلى شاطىء البحر ، فوجد أمامه طريقا ممهدا بين صفحتى الماء ، عبر منه بنو إسرائيل إلى الشاطىء الآخر ؛ وبدون أن يفكر فى كيفية حدوث مثل هذا الطريق فى وسط الماء ، فيتعظ بأن ذلك بتأييد من الله ، ويخشع قلبه فيؤمن بما جاء به موسى عليه السلام ، اندفع وراء بنى إسرائيل غير عابىء بما يمكن أن يحدث له وسط الماء ، لأن ثورة الغضب ملكت عليه أعصابه ، وسيطرت على حواسه ، فأعمته عن إدراك ما حدث أمامه من معجزة .

وعندما أصبح فرعون وجنوده وسط الماء ، وكان بنو إسرائيل قد وصلوا إلى الطريق اليابس فى الجانب الشرقى ، انطبق البحر على فرعون وجنوده ، فغرقوا ، ولم يفلت منهم أحد ، وحينئذ صاح فرعون قائلا :

« **آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين** » [يونس : ٩٠] .

ولكن لم ينفعه هذا الايمان ، لأنه لا عبرة بالاعتراف فى اللحظة الأخيرة ، حيث لا يتحقق فيه عنصر الاختيار الذى هو الركن الأساسى فى الإيمان الصحيح ، يقول الله تعالى :

« **وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن** » [النساء : ١٨] .

أخبر القرآن الكريم محمدا صلى الله عليه وسلم بهذه الأحداث فى أكثر من سورة ، وبصيغ متنوعة ، ففى سورة الاعراف يقول الله تعالى :

« فانتقمنـا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين * وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وما كانوا يعرشون » [الأعراف : ١٣٦ - ١٣٧] .

ويقول تعالى فى سورة يونس :

« وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى إذا أدركـه الغـرق قال آمنت أنـه لا إلـه إلا الـذى آمنت به بنـو إسرائيل وأنا من المسلمين * الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين * فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلـون » [يونس : ٩٠ - ٩٢] .

وفى سـورة الاسـراء :

« فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعا . وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا » [الإسراء : ١٠٣ - ١٠٤] .

وفى سـورة طـه :

« ولقـد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لاتخاف دركا ولاتخشى * فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من إليم ماغشيهم وأضل فرعون قومه وما هدى » [طـه : ٧٧ - ٧٩] .

وفى سـورة الشـعراء :

« وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى إنكم متبعون * فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين * إن هؤلاء لشرذمـة قليلون * وإنهم لنـا لغـائـظون * وإنـا لجميـع حاذرون * فأخـرجنـاهم من جنـات وعيـون * وكنـوز ومقام كريم * كذلك وأورثناها بنى إسرائيل * فأتبعوهم مشرقين * فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنـا لمدركـون * قال كلا إن معى ربى سيهدين * فأوحينا إلى موسى أن

اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم * وأزلفنا ثم الآخرين * وأنجينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرين إن فى ذلك لآية وماكان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم » [الشعراء : ٥٢ - ٦٨] .

وفى سورة القصص :

« واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لايرجعون * فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » [القصص : ٣٩ - ٤٠] .

وفى سورة الزخرف :

« فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين . فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين » [الزخرف : ٥٥ - ٥٦] .

وفى سورة الدخان :

« ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم * أن أدوا إلىّ عباد الله إنى لكم رسول أمين * وأن لاتعلوا على الله إنى آتيكم بسلطان مبين * وإنى عذت بربى وربكم أن ترجمون * وإن لم تؤمنوا لى فاعتزلون * فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون * فأسر بعبادى ليلا إنكم متبعون * واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون * كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها قوما آخرين * فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين * ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين * من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين » [الدخان : ١٧ - ٣١] .

وفى سورة الذاريات :

« وفى موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين * فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم وهو مليم » [الذاريات : ٣٨ - ٤٠] .

فرعون موســــى :

يلاحظ أن الله أخبر رسوله صلى الله عليه وسلم فى سورة يونس أنه نجا بدن فرعون من الذوبان فى البحر ، أى أنه لم يترك فى البحر فيأكله السمك ، بل انتشل ليكون عبرة وآية للناس على مر العصور ، وتعاقب الدهور . وطبيعى أن هذا خبر يدفع الباحثين إلى بيان كيفية جعله عبرة لمن خلفه من الأجيال ، خاصة وأن الأجسام توارى فى التراب فتتآكل ، ولا يبقى منها شىء يمكن أن يعتبر به الناس ويتعظوا ، لكن عادة الفراعنة ، فى تحنيط جثث موتاهم ، وحفظها فى أماكن تقيها من التحلل يعطى إشارة بأنه لابد أن تكون جثة فرعون موسى من بين الجثث التى اكتشفها الأثريون ، ليتحقق قول الله تعالى :

« **لتكون لمن خلفك آية** » . [يونس : ٩٢]

لأن فى هذا التعبير تعميم ، يمكن أن يشمل أجيالا عديدة بعده . وقد بذل المتخصصون جهودا كبيرة لتحديد فرعون موسى ، واستعانوا بكل ما يمكن الاستعانة به فى هذا المجال ، ومنها مومياء الفراعنة التى اكتشفت حتى الآن . ومن أهم مانشر فى هذا الصدد ما كتبه أحمد يوسف أحمد فى كتاب له بعنوان : « كتاب فرعون موسى ـ قصة الولادة والرسالة والخروج » وقد نقل عنه الاستاذ عبد الوهاب النجار نصا يوضح أن منفتاح هو فرعون موسى . فقد قال فيه :

« لم يبق شك فى أن يوسف الصديق عليه السلام قد دخل مصر فى عهد الأسرة السادسة عشرة فى أيام أحد ملوكها المدعو « أبابى الأول » ، وقد وجدت لوحة أثرية عبارة عن شاهد مقبرة ذكر فيها اسم « فوتى فارع »، وهو المذكور فى التوراة « فوطيفار ـ عزيز مصر » ، كما استدل من بعض آثار الأسرة السابعة عشرة على حدوث جدب فى مصر قبل هذه الأسرة ، وهو ما ذكر فى التوراة والقرآن عن سنى القحط .

إذن فدخول يوسف يمكن تحديده قريبا من سنة ١٦٠٠ ق . م . فى عهد الملك أبابى « المذكور ، ويكون دخول بنى إسرائيل بعد ذلك بنحو ما يقرب من ٢٧ عاما ، وهى المدة التى أقامها يوسف فى بيت سيده ، مضموما إليها المدة التى

أقـامهـا فى السجن ، يضم إلى ذلـك مدة الـرخـاء والخصب ، ثم بعض مدة الجدب ، إلى أن قال لأخوته : « . . . وائتونى بأهلكم أجمعيـــن » .

وإذا اطلعنا على حياة ملوك الفراعنة . فيما بين هذه الأسرة والأسرة التاسعة عشرة ، لم نجد أيضا ذكرا يثبت أى اضطهاد حدث لقوم اسرائيل ، ولا أى ذكر لهم أثناء ذلك .

ولكن التـوراة تذكـر أن فرعـون مصر الـذى اضـطهـد بنى إسرائيل ، كان يستخدمهم فى بناء مدينتين : « رعمسيس » ، و « فيثوم » . وقد ثبت من الحفائر الأثرية وجود مدينة باسم « فيثوم » أو « بر ـ قوم » ، ومعناها : بيت الإله توم . ومـدينة أخرى باسم « بر رعمسيس » ، أى بيت أو قصر رعمسيس . والأولى اكتشفت بواسـطة العـالم الفـرنسى « نافيل » فى سنة ١٨٨٣ ، وموضعها : تل المسخـوطـة الآن ـ فى مديرية الشرقية ـ والثانية اكتشفت بواسطة العالم المصرى الاستاذ محمود حمزة فى سنة ١٩٢٨ م ـ وموضعها : بلدة « قنتير » ـ وتسمى بالمصرى القـديم : « خنت نفـر » أو الـوسط الجميل . وأيضا « بر رعمسيس » وهى التى بنـاها رعمسيس الثانى لتكون عاصمة ملكه فى مصر فى وسط الوجه البحرى ـ ليكون بها قريبا من الحدود المصرية لتساعده على صد الأعداء ـ كما أنه أيضا بنى مدينة « فيثوم » . واتضح من وجود بعض آثار الجدران فى المدينة أنها أيضا كانت حصنا مصريا . وتكون التوراة قد أخطأت فى حسبانها مخازن للغلال .

وإذن فرعمسيس الثانى قد يعتبر الفرعون الذى اضطهد بنى إسرائيل وولد موسى فى زمنه ، ويضاف إلى ذلك عداؤه الشديد للشعوب الآسيوية التى ظل يحاربها متغيبا عن مصر زهاء تسع سنوات . وقد يكون كرهه لبنى إسرائيل المقيمين فى مصر، مترتبـا على خشيتـه من أن يكونوا حزبا ممالئا لأعدائه المواطنين لهم من قبل ، ولا سيما وقـد تكاثروا فى عددهم ، وتناسلوا حتى كانت لهم جالية تشمل جزءا عظيما من مديرية الشرقية .

وحيث أن الملك « رعمسيس » الثانى قد أشرك ابنه الملك « منفتاح » معه فى الحكم قبـل وفـاته ، وكان « منفتاح » الولد الثالث عشر لرعمسيس ، وقد بلغ

أولاده « ١٥١ » ، وكان مسنا قبل ولايته للعهد ، فيكون قد عاصر موسى فى بيت أبيه . وبحق قال لموسى :

« **ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين** » [الشعراء : ١٨] .

ويكون « منفتاح » هو فرعون الخروج ، الذى أرسل إليه موسى وهارون عليهما السلام لإخراج بنى إسرائيل من مصر ، وتكون التوراة على صواب عندما قالت : وفى هذه الأثناء كان ملك مصر قد مات .

وقد عثر العلامة « فلندرس بترى » على حجر من الجرانيت القاتم ورقم فى الدار « ٥٩٩ » وهو عبارة عن لوحة كبيرة يبلغ ارتفاعها ٣ أمتار و ١٤ سم ، وهو منقوش من الوجهين ، أحدهما للملك « امنحتب » الثالث من الأسرة ١٨ يذكر فيه كل ما عمله لمعبد أمون .

أما الوجه الآخر فقد استعمل فى شأن « منفتاح « بن رعمسيس الثانى من « الأسرة ١٩ »، وذكر فيه عبارات بأسلوب شعر يفتخر فيها بانتصاره على اللوبيين ، ويشير إلى سقوط عسقلان ، وجيزر ، ويانوعيم فى فلسطين . وجاء من ضمنها عبارة تشير إلى بنى إسرائيل ، ونصها الحرفى : (لقد سحق بنو إسرائيل ولم يبق لهم بذر) ، وهذا أول نص رسمى فى الآثار ذكر فيه بنو إسرائيل . وقد عثر على هذا الحجر فى كوم الحيتان بطيبة الأقصر .

وهذا الحجر يبدو منه للمدقق أن « منفتاح » لم يكتبه فى عهده . وإلا لكانت لهذه الحوادث الهامة التى يذكرها فيه شأن عظيم كان يجب أن يدون فى أثر خاص ، لا أن يستعمل له حجر كان لغيره من قبل .

ويظهر أن الكهنة التابعين لمنفتاح هم الذين استعملوا هذا الحجر ودونوا ما به ليشيدوا بذكره ، فيقومون بذلك بواجب التخليد ، حيث لم يكن منتظرا أن يموت الملك بتلك الصورة المعجلة التى مات بها . وقد أرادوا أن يوهموا الناس أن فرعون قد سحق بنى إسرائيل تمويها وقلبا للحقائق ؛ حتى يستروا أمام الشعب المصرى ـ الذى كان يحترم ديانتهم ـ خذلانهم وخذلان إلههم أمام موسى ، حين كان

فرعون يتعقب بنى إسرائيل .

ويكون العثور على جثة « منفتاح » ووجودها الآن بالمتحف المصرى ؛ مصداقا لقول القرآن الكريم :

« **فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية** » [يونس : ٩٢] .

وقد وجدت الجثة مع غيرها من الجثث فى قبر « أمنحتب الثانى » بالأقصر . وظهر من آثار قبر « منفتاح » أنه لم يكن مهيأ كما يجب ، لدفن ملك مثله ؛ لأن موته لم يكن منتظرا ، فلم يهيأ له قبر خاص .

افتراءات التـــوراة :

يجدر بنـا فى هذا المقـام أن نذكـر أن التـوراة نسبت إلى موسى - أثنـاء سردها لأحـداث الخـروج - مايتنـافى مع أخلاق الأنبياء ، بل إنها صوَّرته فى هذا الصدد بصـورة المخـادعين النصابين ، وقطاع الطرق ، وذلك بروايتها أن موسى عليه السلام نصح بنى إسرائيل بأن يستعيروا من المصريين حليا وأمتعة ، ثم يأخذوها معهم عند الخروج من مصر ، فلا يردوها لأصحابها . وذلك ما يتصادم مع تعاليم الله وشرعه ، حيث أمر الناس على لسان رسله بأن يؤدوا الأمانات إلى أهلها ، يقول تعالى :

« **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها** » [النساء : ٨٥] .

ويقـــــول :

« **يا أيها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون** » [الأنفال : ٢٧] .

كما جاء وصف المؤمنين بأنهم يرعون الأمانات ، يقول تعالى :

« **والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون** » [المعارج : ٢٧] .

فإذا جاء فى التوراة ما يفيد بأن رسولا من رسل الله - بل من أولى العزم من الرسل - أجاز لقومه الخداع والسلب والنهب ، حيث ورد فيها : « . . . وفعل بنو إسرائيل بحسب قول موسى ، طلبوا من المصريين أمتعة فضة ، وأمتعة ذهب ، وثيابا . وأعطى الرب نعمة للشعب فى عيون المصريين حتى أعاروهم ، فسلبوا

المصريين » [خروج ١٢ : ٣٥ - ٣٦] . فلاشك أن هذا النص من وحى النفسية اليهودية التى ترسب فيها على مدى سنى الاضطهاد والكره للأجناس الأخرى ، ذلك الكره الذى دفعهم إلى الانتقام من الآخرين ، دون رادع يردعهم ، أو ضمير يحول بينهم وبين ارتكاب ما يرونه من الجرائم مطفئا لنار العداوة التى امتزجت بدمائهم ضد الشعوب الأخرى ، تلك العداوة التى أعمت بصائرهم عن الحق ، فدفعتهم إلى أن ينسبوا إلى رسول من رسل الله ما ينقض دعوته من أساسها ، لأنه إذا أجاز لهم السلب والنهب ، فلا مكان لدعوته على الأرض . بل إنهم نسبوا إلى الله مالا يجوز عليه بكل المقاييس ، حتى فى ذهن أكثر الناس إلحادا ، لأن العقل والمنطق يأبيان أن ينسب الظلم إلى صاحب العدل ، حيث نسبوا إلى الله أنه سهل لبنى إسرائيل الاستيلاء على أمتعة المصريين ، فرووا أن الله أعطى نعمة للشعب فى عيون المصريين حتى أعاروهم ، فسلبوا المصريين . إن كتابا هذا شأنه لايمكن أن يكون وحيا من عند الله ، بل هو من بنات أفكار بشر خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا .

كذلك جاء فى التوراة - عند الحديث عن معجزة انفلاق البحر لموسى عليه السلام - أن الريح الشديدة كانت من عوامل هذا الانفلاق : « ومد موسى يده على البحر فأجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل ، وجعل البحر يابسة وانشق الماء » [خروج : ١٤ - ٢١] . مما جعل بعض الملاحدة يتمسكون بهذا النص ، ويتخذونه دليلا على أن انحسار الماء كان بسبب هبوب الريح ، فهو لم يكن معجزة ، بل ظاهرة طبيعية عادية .

وهذا خطأ واضح ؛ لأن الدليل الذى يعتمد عليه فى مثل هذه الأبحاث التى تتعلق بوحى الله ، ينبغى أن يكون صحيحا من وجهة النظر الدينية ، وإلا كانت النتائج المترتبة عليه مشكوكا فيها ، فإذا نظرنا إلى التوراة من هذا الجانب ، وجدنا أنها لايتحقق فيها هذا الشرط ، إذ أن الباحثين أثبتوا أن يد الانسان امتدت إليها بالتغيير ، والتبديل ، والحذف ، والإضافة ، وضربوا الأمثلة . على ذلك ، كما أننا ذكرنا آنفا أنها نسبت إلى موسى عليه السلام ما ينقض دعوته ، بل إنها نسبت إلى

الله مالا يليق بجلاله ، مما يدل على أنها غير صحيحة ، وعليه فمن الخطأ الاعتماد عليها فى نسبة انفلاق البحر إلى ريح شرقية شديدة ، خاصة وأن القرآن الكريم لم يذكر شيئا عن هبوب الريح فى هذا الحدث ، بل بيَّن أن انفلاق البحر كان معجزة من الله ، أجراها على يد موسى عليه السلام ، فقال تعالى :

« فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم . وأزلفنا ثم الآخرين . وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين » [الشعراء : ٦٣ - ٦٧] .

أى أن هذا كان معجزة من الله ، لاظاهرة طبيعية حدثت نتيجة هبوب الريح ، لأن المعجزة أمر خارق للعادة ، فلو كان الانفلاق بسبب هبوب الريح لم يكن خارقا للعادة ، وبالتالى لايكون معجزة ، بل ظاهرة طبيعية ، وتعليل القائلين بأنها بسبب هبوب الريح لايخرجها عن كونها معجزة ، لأن حدوثها مرة واحدة هو فى حد ذاته معجزة ، حتى ولو كانت بسبب هبوب الريح .

بنو اسرائيل فى سيناء

شكوى وتذمر :

قص القرآن الكريم بعضا مما اقترفه بنو إسرائيل بعد خروجهم من مصر ، مبينا ما عاناه موسى من قسوة قلوبهم ، وميلهم إلى الضلال ، وعدم نسيانهم عبادة الأوثان التى تربوا عليها على الرغم من وضوح دعوته لهم الى التوحيد ، وتأكيد صدق ما أخبرهم به عن الله بما أظهره الله على يديه من المعجزات ، وما وضح أمام أعينهم من مكرمات لاتكون إلا لنبى يوحى إليه من الله ، ورسول تأتى الهداية على يديه ، ويكون الفلاح والصلاح لمن آمن برسالته ، واتبع تعاليمه ، وتمسك بما أمر به دون اعتراض ، أو تأفف .

نسى قوم موسى كل هذه الآيات البينات ، فمالوا إلى ما جبلوا عليه من ضلالات ، وما تربوا فيه من وثنيات ، فطلبوا من موسى - عندما مروا على قوم يعبدو الأصنام - أن يجعل لهم إلها مثل ما لهؤلاء القوم ، وماذاك إلا لأنهم لم يتعودوا على

التوجه إلى المجرد ، ولم يهضموا فكرة المعبود غير المرئى ، فارتدوا إلى طبيعة الإنسان الذى يميل إلى الايمان بالمحسوس ، ويركن إلى المشاهد الملموس ، يقول تعالى :

« وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون * إن هؤلاء متبر ماهم فيه وباطل ماكانوا يعملون * قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين »

[الأعراف : ١٣٨ - ١٤٠] .

وتذمروا عليه مما لاقوه من وعثاء السفر ، وقسوة طبيعة سيناء ، ذلك أنهم عندما عبروا البحر وتوغلوا فى صحراء سيناء ، أحسوا بحرارة الشمس ، ولسعة أشعتها ، فبحثوا عما يحميهم منها ، فلم يجدوا مساكن تقيهم حرها ، ولا أشجارا يتفيأون ظلالها ، فجأروا إلى موسى بالشكوى مما يعانون . فدعا موسى الله ، فساق الغمام إلى ذلك المكان ليظلهم ويقيهم وهج الشمس ، ثم أرسل الله لهم الرياح حاملة المن والسلوى [المن : مادة تتزهر على أوراق بعض الأشجار مثل الطرفاء وغيرها ، يميل طعمها إلى الحلاوة ، فيها لبن ، وهى سهلة الهضم . والسلوى : طائر السمانى ، أرسله الله بأعداد وفيرة بحيث غطت مساحات كبيرة من الأرض] كذلك حين شح الماء فلم يجدوا ما يشربونه ويسقون دوابهم ، شكوا إلى موسى أيضا ، وطلبوا منه متذمرين أن يعمل على إيجاد الماء لهم ولدوابهم ، فأمره الله أن يضرب الحجر بعصاه ، فانبجست منه اثنتا عشرة عينا ، بحيث يستخدم كل سبط منهم عينا ، حتى لايحدث شقاق وخلاف على الماء .

وقد قص القرآن الكريم علينا هذه الأحداث ، ليبين لنا مدى عنتهم وتذمرهم على موسى ، وعدم صبرهم ، إيماء بأنهم لو تمكن الايمان من قلوبهم لصبروا ، وتحملوا مع موسى شأن أتباع الأنبياء الذين تعاملوا مع كوارث الطبيعة ، وأزمات الأحداث بشجاعة نادرة ، سائلين ربهم الأجر والثواب ، فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة .

لم يكن سلوك قوم موسى معه طبيعيا مثلما كان سلوك الرعيل الأول مع الانبياء

والرسل ، فكانوا يتذمرون من كل شيء ، على الرغم مما أعطاهم الله من نعم وآلاء ، لم نعرف لها مثيلا فى تاريخ الدعوات .

يقـــول تعالى :

« يابنى إسرائيـل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونـزلنـا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ، ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى . وإنى لغفار لم تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى » [طه : ٨٠ - ٨٢] .

ويقـــول :

« وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطا أمما وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم ، وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » [الأعراف : ١٦٠] .

ويقـــول :

« وإذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الله من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم » [البقرة : ٦١] .

اتخـــاذهم العجل إلها :

روى القرآن الكريم أن الله أمر موسى بأن يصعد إلى الجبل ويمكث فيه ثلاثين ليلة ، فلما أتمهـا ، مد الله إقـامته فى الجبل عشر ليال أخرى ، ثم أعطاه ألواحا ، وكتب له فيها الوصايا التى ينبغى أن يلتزم بها بنو إسرائيل ، ويعلموها لأبنائهم وأحفادهم ، كى يستمر الالتزام بها فى أعقابهم من بعـــدهم .

وكـان قد أمَّـر أخاه هارون على قومه ، وأوصاه بأن يرعى بنى إسرائيل مدة غيابه ، وأكد عليه بأن ينظر فى مصالحهم وشئونهم ، وأن يكون يقظا ، فلا يأمن جانب الضالين ، ولا يركن إلى المفسدين ، يقول تعالى :

« وواعدنا موسى ثلاثين ليلة ، وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين * ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ، ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ، فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين *قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين * وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأريكم دار الفاسقين * سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لايؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافليين * والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون » [الأعراف : ١٤٢ - ١٤٧] .

ارتد بنو إسرائيل إلى وثنيتهم أثناء غياب موسى الذى لم يدم سوى أربعين ليلة ، إضافة إلى المدة التى قضاها فى الذهاب إلى الجبل والرجوع منه . فرجوعهم إلى الوثنية بهذه السرعة يدل على أن الإيمان لم يكن قد تمكن من قلوبهم بعد، على الرغم مما رأوا من الآيات المتعددة التى أظهرها الله على يد موسى . ولا يشفع لسرعة تحولهم إلى الوثنية ما يقال من أن السامرى ضللهم، فزين لهم عبادة العجل بما أضفاه عليه من مظاهر تخلب الألباب ، وتشل العقول ، وتستولى على الوجدان والأحاسيس ، لأن الإيمان الصادق لايتزعزع بهذه السرعة ، مهما كانت المغريات والمسوغات ، إذ كيف يهتز الإيمان بالله من إلقاء حلى فى النار وسبكها على هيئة عجل له خوار ، فيعتقد المرء بأنه إلهه وإله موسى ، على الرغم مما أخبرهم به موسى عن رب العالمين ، وما لقنهم من تعاليم وضحت لهم جوانب كثيرة عن الواحد الأحد ، مما يستحيل معه أن يصدق من سمع هذه التعاليم ووعاها ، أن هذا العمل الذى صنعه السامرى ، يمكن أن يرقى إلى مرتبة ذلك الاله الذى تحدث عنه موسى عليه السلام .

لم يقف هارون موقفا سلبيا إزاء هذا التحول ، بل حاول إفهام القوم ضلال هذه الفكـرة ، وإبعـادهم عن الوقوع فى هذا الشرك الذى نصبه لهم السامرى فرفضوا الإذعان له ، وقالوا :

« لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى » [طه : ٩١] .

فلم يشأ هارون الاستمرار فى المواجهة ، ظنا منه أن ذلك سيؤى إلى تمزيق وحدة الجماعة ، فترك الأمر حتى يرجع موسى .

رجـع موسى غضبان مما فعله قومه ، لأن الله أخبره بذلك قبل أن ينزل من الجبـل ، فثار على أخيه لموقفه المتخاذل ، واندفع إليه فأمسك بلحيته ورأسه ، وجبذه جبذة شديدة ، فأفهمه هارون بأنه بذل ما فى وسعه لإقناع القوم بضلال هذا العمل فلم يقتنعوا ، وازاء هذا لم يرد قتال من سار وراء السامرى ، حتى لاتحدث فتنة بين القوم تكون سببا فى غضبه ، فترك معالجة هذه الظاهرة لحين عودته .

وعندما سأل موسى السامرى عما فعله ، رد عليه بأن نفسه سولت له بأن هذا ليس عمـلا سيئـا ، وإنـما هو خير يقـدم إلى القـوم أثنـاء غيابـه . فأحرق موسى العجل ، ونسف مخلفات الحريق فى المـاء .

أثارت هذه القصة عدة تساؤلات ، اختلف العلماء فى الإجابة عليها :

السـؤال الأول : من هو السـامرى ؟

اختلف المفسرون فى التعـريف به ؛ فقال بعضهم : إنه ابن سفاح ، وكان يدعى : موسى ، وأن الله أمر جبريل بأن يربيه ويقوم بمصالحه ، فكان جبريل يأتيه على فرس . فلما كبر لاحظ أن فرس جبريل لايضع حافره على شىء إلا صار حيا ، فأخـذ من تراب أثـر الحافر بعضا ، واحتفظ به ، فلما صاغ العجل من الذهب ألقى ذلك التراب فى فم العجل فصار له خوار .

وهذا خيال لاقيمة له إلا فى عالم الأساطير، فلا وزن له فى مجال بيان حقيقة هذا

الرجل . واعترض بعض المسيحيين على ما جاء فى القرآن الكريم بشأن تسميته بالسامرى ؛ فقالوا كيف يكون السامرى هو الذى أضل بنى إسرائيل بالعجل ، مع أن السـامـرى نسبة إلى سامرة . والسامرة بلد من فلسطين لم توجد فى زمن موسى ، وإنـما اشتراها « عمرى » وهو الرابع من ملوك إسرائيل، بعد أن انشقت مملكة اليهود إلى قسمين : قسم هو سبط يهوذا ، ومقره أورشليم ، وملوكه من ذرية داود وسليمان . وكان أول ملوك إسرائيل « يربعام بن ناباط » ورابعهم « عمرى » اشترى جبل السامرة وبنى تلك المدينة ، وجعلها مقر مملكته إسرائيل . وذلك بعد موسى بنحو ثلاث وعشرين وخمسمائة سنة ؟

وقد رد عليهم الشيخ عبد الوهاب النجار فقال : ليس السامرى منسوبا إلى «سامرة» ،بل إلى « شامر » بالشين فى اللغة العبرية . ويغلب أن تكون « الشين » فى اللغة العبرية . « سينا » فى العربية فهو سامر ، كما ينطقها أيضا سبط إفرايم بن يوسف . وقد كان رجال سبط يهوذا فى بعض الحروب يمتحنون الرجل ليعرف هل هو من سبط يهوذا أو إفرايمى بأن يأمروه بأن ينطق « شبولت » ـ سنبلة ـ فاذا قال : « سبولت » علم أنه إفرايمى ، ومعنى « شامر » ـ أو « سامر » كما هو النطق العـربى والافـرايمى ـ : « حارس » ، فالسـامرى نسبة إلى سامر ، ونطقها فى العبرية « شومير » ، من مادة : شمر أى حرس . واعتمد فى هذا على نص ورد فى سفـر التكـوين حيث جاء فيه : « فقـال الرب لقابيل : أين هابيل ، أخوك ؟ فقال : لا أعلم (شومير أحى أنواخى ؟ » وترجمتها : « أحارس أنا لأخى » .

السؤال الثانى : ماحقيقة العجل الذى عبده بنو إسرائيل ؟

يقول المفسرون : إنه كان عجلا من ذهب ، صاغه السامرى لهم من حليهم التى جمعها منهم ، وليس من المستحيل على رجل ملم بعلم الهندسة ـ كما يقول الرواة عن السامرى ـ أن يصيغه على هيئة تجذب الرياح إلى داخله ، ثم تخرج من فتحة أخرى محدثة ذلك الخوار الذى أخبر به القرآن الكريم .

وقال بعضهم : إن الرجل خدع بنى إسرائيل وأخذ منهم الحلى ، وبصر بعجل

على هيئة العجول التى كانت تعبد فى مصر ، ولم يبصروا به فاشتراه وجاءهم به، وقال لهم ما قال ، فعكفوا على عبادته مع أنه عجل يشبه كل العجول ، فله جسد ودم وخوار ، لايفترق فى شىء من هذا عن أشباهه من البقر . ومع هذا فإنهم اتخذوه إلها وعبدوه ، على الرغم مما بذله معهم هارون لنهيهم وإبعادهم عن هذا الضلال المبين .

السؤال الثالث : ولماذا وقع اختيار السامرى على عجل بالذات ؟

لأن بنى إسرائيل عاشوا فى مصر ، فألفوا رؤية عبادة العجل فيها ، ذلك أن المصريين كانوا يعبدون العجل « أبيس » وكانوا يعنون به عناية فائقة ، فألهّوه ، وحنطوه بعد موته ، كما كانوا يحفظون موتاهم ، ودفنوه فى مقابر خاصة كانت تسمى : « سرابيوم » .

استغل السامرى هذه الخلفية عند بنى إسرائيل ، فجاءهم بالعجل ، وقال لهم : هذا إلهكم وإله موسى فأطاعوه :

- لما رأوا فيه من تجسيد للإله ، ونفوسهم تميل إلى هذا ، وتبحث عنه ، بل سألوا موسى أن يريهم الله جهرة .
- ولأنه ذكرهم بصورة مقدسة غير غريبة عنهم ، فقد رأوها فى مصر .
- ولأنه أشبع رغبتهم فى عبادة الأوثان ، فقد كانوا راغبين فى ذلك ، فسألوا موسى أن يجعل لهم إلها كما لعبدة الأوثان آلهة .

السؤال الرابع : ما حقيقة قتل النفس فى قوله تعالى : « اقتلوا أنفسكم » ؟

روى المفسرون عن ابن عباس قوله : أمر موسى قومه عن أمر ربه عز وجل أن يقتلوا أنفسهم . قال : وأخبر الذين عبدوا العجل فجلسوا ، وقام الذين لم يعكفوا على العجل، فأخذوا الخناجر بأيديهم وأصابتهم ظلمة شديدة ، فجعل يقتل بعضهم بعضا ، فانجلت الظلمة عنهم وقد جلوا عن سبعين ألف قتيل . كل من قتل منهم كانت له توبة ، وكل من بقى كانت له توبة .

غير أنى أرى أن القتل هنا مجازى وليس حقيقا ، فالمعنى : القضاء على نوازع الشر فى النفس حتى لاتحدثهم مرة أخرى بما يقودهم إلى عبادة الأوثان والأصنام ،

فإن تحقق ذلك غفر الله لهم وأثابهم .

مقـــــــارنة :

هل يوجد فرق بين ما ورد فى القرآن الكريم وبين ماهو موجود فى التوراة حول هذه الأحداث ؟ نعم ، فقد خالف القرآن الكريم التوراة فى جوانب كثيرة منها :

أن التوراة تنسب صنع العجل إلى هارون ، إذ جاء فيها أن هارون طلب من قوم موسى ـ عندما رجوه أن يصنع لهم إلها يسير أمامهم ـ أن يجمعوا ما عندهم من ذهب ، ثم طرحه فى النار فخرج عجلا اتخذوه إلها فعبدوه . أما القرآن الكريم فقد نزه هارون عن الاشتراك فى هذا العمل ، حيث أخبر أن الذى فعل ذلك هو السامرى ، وأن هارون حاول منعهم من ذلك ، فأبوا ، فتركهم لحين رجوع موسى ، تجنبا لتمزيق وحدة الجماعة ، لو أعلن الحرب على السامرى ، ومن اتبعه فى ضلاله .

كذلك تذكر التوراة أن الله أمر موسى باختيار سبعين من شيوخ بنى إسرائيل قبل أن يعبدوا العجل ، فقد جاء فى الإصحاح ٢٤ من سفر الخروج : أن الله أمر موسى أن يصعد إلى الجبل هو ، و « وناواب » ، و « أبيهود » وسبعون شيخا من شيوخ بنى إسرائيل . ثم تستمر التوراة فى سرد الأحداث حتى رجوع موسى بالألواح وغضبه لما رأى أى من عبادتهم العجل ، ورميه الألواح . . . . الخ ولا تذكر التوراة سببا لاختيار هذا العدد من الناس للذهاب معه إلى الجبل حيث يكلم الله ، بينما يذكر القرآن الكريم أن اختيار السبعين كان مظهرا من مظاهر الندم على مافعلوا من عبادة العجل ، فأرادوا تقديم الطاعة لله ، وإظهار التوبة والندم على ما اقترفوا من إثم ، أى أنه ممارسة عملية لرجاء الله أن يتوب عليهم ، ويغفر لهم ما جناه عليهم بعض القوم من عبادة العجل . وهذا يقتضى أن يكون هذا الاختيار بعد حادثة عبادة العجل ، وإلا فلا محل لهذا الاختيار ، ولا معنى له .

وما سجله القرآن الكريم من هذه الأحداث قوله تعالى :

« وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو

التواب الرحيم [البقرة : ٥٤] .

وقولـــــه :

« ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون * وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين » [البقرة : ٩٢ - ٩٣] .

وقولـــــه :

« واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين * ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين * ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتمونى من بعدى أعجلتم أمر ربكم وألقى الألـواح وأخـذ برأس أخيـه يجره إليه قال ابن أم إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين * قال رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين * إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلـة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين * والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم * ولما سكت عن موسى الغضب أخـذ الألـواح وفى نسختهـا هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون » [الأعراف : ١٤٨ - ١٥٤] .

وقولـــــه :

« وماأعجلك عن قومك ياموسى * قال هم أولاء على أثرى وعجلت إليك رب لترضى * قال فانا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى * فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال ياقوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى * قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنـا ولكنـا حملنـا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى * فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى أفلا يرون

ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا * ولقد قال لهم هارون من قبل ياقوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى * قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى * قال ياهارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعنى أفعصيت أمرى * قال يابن أم لاتأخذ بلحيتى ولا برأسى إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى * قال فما خطبك ياسامرى * قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى * قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لامساس وإن لك موعدا لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا * إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علما » [طه : ٨٤ - ٩٨] .

عـودة إلى العصيـان والتمرد :

جاء فى التـوراة: أن الله وعـد إبراهيم وإسحاق ويعقوب بأن يعيد أبناءهم إلى أرض الميعاد فيملكهم إياها ، بعد أن يطردوا الأمم التى يسكنونها . ولما جاء موعد تحقيق هذه النبـوءة، أمـر الله تعـالى بنى إسرائيل بالـذهـاب إلى الأرض المقـدسة فيفتحـوهـا ، لكنهم جبنوا عن مواجهة سكان تلك الأرض ، وآثروا الذلة التى تعودوا عليها فى مصر على أن يكونوا أحرارا فوق وطن يملكون ، مادام الطريق إلى ذلك هو المواجهة مع آخرين ، وبذل دماء فى سبيل الحصول على ذلك ، وقالوا لموسى :

« . . . إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون * قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتمـوه فانكم غالبـون وعـلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين * قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبدا ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون » [المائدة : ٢٢ - ٢٤] .

كان هذا عصيانا وتمردا على أمر الله ، حيث أنهم نكصوا عن الجهاد الذى فرضه الله على المؤمنـين فى كل زمـان ومكـان لمنـاضلة المنـاوئين للدعوة ، وكسر شوكة

المعارضين لها ، فعاقبهم الله على هذا العصيان بأن تركهم يتيهون فى الصحراء أربعين سنة ، فلم يهتدوا إلى طريق يخرجهم منها .

ويعلل العلماء طول مدة العقاب فيقولون :

إن حضانة العلم خمس عشرة سنة ، فاذا ابتدأت أمة تتعلم ، فإنها تجنى ثمرة العلم بعد خمس عشرة سنة . وأما حضانة الأخلاق فمدتها أربعون سنة ؛ فاذا أخذت الأمة تستمسك بالأخلاق، فإنها لاتجنى الثمرة إلا بعد أربعين سنة ، لذلك أراد الله تعالى أن يبقى بنى إسرائيل فى البرية أربعين سنة، حتى يفنى الجيل الذى نشأ فى الذل والاستعباد ، وينشأ جيل ألف الحرية ، ولم تذله العبودية . وهكذا كان حال بنى إسرائيل ، فإن الجيل الذى ولد فى الذل وكبر،حتى مرن عليه هلك فى البرية . وجاء الجيل الذى كان صغيرا أيام عبوديتهم فى مصر ، والذى نشأ أو ولد فى البرية ، حيث كانوا يعيشون أحرارا لايذلهم أحد ، ولا يستعبدهم إنسان ، فلم يعرف الخوف من أعداء الله طريقا إلى قلوبهم . فاستطاعوا دخول هذه الأرض .

سجل القرآن الكريم تخاذلهم عن نصرة الحق ،وقعودهم عن الجهاد فى سبيل الله فى قوله تعالى :.

« وإذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين * ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة * التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين * قالوا ياموسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا منها فانا داخلون * قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين * قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبدا ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون * قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين » [المائدة : ٢٠ - ٢٦] .

غير أن رواة التوراة أغفلوا هذا الموقف فلم يذكروه ، واكتفوا بتسجيل بعض مواقف العناد ، ووصفوا بنى إسرائيل فيها بصلابة الأعناق والتمرد . وقد عاقبهم الله على هذا العصيان بتركهم يتيهون فى صحراء سيناء أربعين سنة .

ويذكر الرواة أن هارون مات قبل موسى ودفن فى جبل هور ، وهو من جبال سيناء ، وأما موسى فقد أمره الله بأن يصعد إلى جبل « نِبُّو » وينظر الأرض المقدسة دون أن يدخلها ففعل . . . ثم مات على الفسجة ، أى الأكمة التى هى من رمل أحمر ، ودفن هناك ، وخفيت معالم قبره .

معجزات الله فى أرض سيناء :

أظهر الله لموسى وقومه عددا من المعجزات أثناء مقامهم فى سيناء، ليحمل بنى إسرائيل على الالتفاف حول موسى والإيمان بما جاء به ، والاقلاع كلية عن عصيانه والتمرد عليه ، ونسيان ما كانوا عليه من عبادة الأوثان والأصنام . وقد ذكر القرآن الكريم هذه المعجزات فى عدة سور من القرآن الكريم . فقد جاء فى سورتى البقرة والأعراف : أنه رفع جبل الطور فوق بنى إسرائيل حتى صار وكأنه ظلة ، وظنوا أنه واقع بهم ، فقال تعالى :

« وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون . ثم توليتم من بعد ذلك فلو لافضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين » [البقرة : ٦٣ - ٦٤] .

وقـــال :

« وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون » [الأعراف : ١٧١] .

يقول المفســـرون :

إن الله أمرهم أن يقبلوا ما جاء به موسى من الفرائض والوصايا وينفذوها دون اعتراض ، وأن يحافظوا عليها بجد وعزم ، مهما تحملوا فى سبيل ذلك من مشاق فجادلوا فى ذلك ، وأبوا الاعتراف بما جاء به موسى ، فأوحى الله إلى الجبل فانقلع

وارتفع فى السماء حتى إذا كان بين رءوسهم وبين السماء ، قال لهم موسى : « ألا ترون ما يقول ربى عز وجل ؟ لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لأرمينكم بهذا الجبل » .

غير أن الشيخ رشيد رضا اعترض على هذا الرأى، بحجة أنه إكراه على الايمان ، وذلك ينافى التكليف . وهو يخالف بذلك رأى جمهرة المفسرين ، كما خالفهم ـ وخالف أستاذه الامام محمد عبده أيضا ـ فى تفسير هذه المعجزة ، إذ بينما يرى المفسرون ـ ومنهم أستاذه الامام ـ بأن نتق الجبل هو رفعه ، أى أن الله رفعه فوق رءوسهم ، يذهب الشيخ رشيد رضا إلى غير ذلك ، فيقول :

شايع الاستاذ الإمام المفسرين على أن رفع الطور كان آية كونية ، أى أنه انتزع من الأرض، وصار معلقا فوقهم فى الهواء ، وهذا هو المتبادر من الآية بمعونة السياق وإن لم تكن ألفاظها نصا فيه ؟ إذ الرفع هو الارتفاع وجعل الشىء ـ أو أن يكون الشىء ـ رفيعا عاليا ، كما قال تعالى : « فيها سرر مرفوعة » وقال : « وفرش مرفوعة » فكل من السرر والفرش تكون مرفوعة وهى على الأرض . وقوله تعالى فى سورة الاعراف :

« **وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة** » .

ليس نصا أيضا فى كون الجبل رفع فى الهواء .

فأصل النتق فى اللغة : الزعزعة والزلزلة . . . قال فى حقيقة الأساس : نتق البعير الرحل : زعزعه . ونتقت الزبد : أخرجته بالمخض . ونتق الله الجبل : رفعه مزعزعا فوقهم .

والظلة : كل ما أظلك ، سواء كان فوقك أو فى جانبك ، وهو مرتفع له ظل .

فيحتمل أنهم لما كانوا بجانب الطور رأوه منتوقا ، أى مرتفعا مزعزعا ، فظنوا أنه سيقع بهم وينقض عليهم . ويجوز أن ذلك كان فى أثر زلزال تزعزع له الجبل . ثم قال : وإذا صح هذا التأويل لايكون منكر ارتفاع الجبل فى الهواء مكذبا للقرآن .

ويعقب النجار على ذلك فيقـول :

قد يكون جزء عظيم من الجبل اقتلع من مكانه أثناء رجفة أو زلزال ، ورأوه بأعينهم وهم فى أسفل الجبل ،كأنه ظلة وخافوا وقوعه بهم ،وذلك عند أخذ ميثاقهم على العمل بالتوراة .

من المعجزات التى أظهرها الله لهم : انبجاس الماء من الحجر ، وإظلال الغمام عليهم ، وإنزال المن والسلوى لهم ، يقول تعالى مخبرا عن ذلك :

« وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون . ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون . وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » [البقرة : ٥٥ - ٥٧] .

ويقـــــول :

« ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون * وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطا أمما وأوحينا إلى موسى إذا استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » [الأعراف : ١٥٩ - ١٦٠] .

ويقـــــول :

« يابنى اسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى * كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى * وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى » [طه : ٨٠ - ٨٢] .

وقد ذكر المفسرون حكايات حول هذه المعجزات ، فليرجع إليها من يريد معرفة هذا النوع من الأحاديث .

بقرة بنى إســـرائيل :

جاء فى التـــوراة :

« إذا وجد قتيل فى الأرض الذى يعطيك الرب إلهك لتمتلكها واقعا فى الحقل لايعلم من قتله . يخرج شيوخك وقضاتك ويقيسون إلى المدن التى حول القتيل . فالمدينـة القـربى من القتيل يأخـذ شيوخ تلك المدينة عجلة من البقر لم يحرث عليها . . . وينحدر شيوخ تلك المدينة بالعجلة إلى واد دائم السيلان لم يحرث فيه ولم يزرع ويكسرون عنق العجلة فى الوادى . ثم يتقدم الكهنة ـ بنو لاوى ـ لأنه إياهم اختار الرب إلهك ليخدموه ، ويباركوا باسم الرب وحسب قولهم تكون كل خصومة وكل ضربة ، ويغسل جميع شيوخ تلك المدينة القريبين من القتيل أيديهم على العجلة المكسورة العنق فى الوادى . ويصرخون ويقولون : أيدينا لم تسفك هذا الدم وأعيننا لم تبصر . اغفر لشعبك إسرائيل الذى فديت يارب ولا تجعل دم برىء فى وسط شعبك إسرائيل . فيغفر لهم الدم » [التثنية ٢١ : ١ ـ ٨] .

ويتفق هذا النص مع ما اعتـاده الأعراب ، عندما يوجد قتيلا بينهم ولا يعرف قاتله وتشير أصابع الاتهام إلى قوم آخرين ؛ إذ أن ما تعودوا عليه فى هذه الحالة أن يرسلوا رسـولا إليهم ليخـبرهم بأن أصابع الاتهام موجهة إليهم ، فعليهم أن يذبحوا ذبيحة ، وعنـدمـا يفعلون يجىء أولياء الدم ، فيقسم المتهمون أمامهم بأنهم برآء من دم القتيل ، ولا يعلمون قاتله ، ثم يسوى اللحم فيأكلون جميعا . ويكون هذا بمثابة صلح بينهم ، على أساس براءتهم من دم القتيل ، فيأمن بعضهم بعضا ، ويروون فى ذلك قولهم :

« الدم يمســـح العيب » .

فهل يفهم هذا المعنى من نص القرآن الكريم ؟

يقول تعالـــى :

« وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين * قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى قال إنه يقول

إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون * قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين * قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون * قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لاشية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون * وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون * ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة ، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون » [البقرة : ٦٧ - ٧٤] .

يقول المفسرون : كان رجل فى بنى إسرائيل مكثرا من المال ، وكانت له بنت ، وكان له ابن أخ محتاج ، فطلب إليه ابن أخيه ابنته فأبى أن يزوجه إياها ، فتربص له وقتله ، ثم طالب قوما آخرين بدمه ، فأنكروا قتله ، فرفع الأمر إلى موسى ، فأمرهم أن يذبحوا بقرة ليبين لهم المجرم من البرىء ، فظنوا أنه يستهزىء بهم ، واستعاذوا بالله أن يكون من الجاهلين ، وقالوا له : نسألك عن القتيل وعمن قتله وتقول لنا : اذبحوا بقرة ، أتهزأ بنا ؟

فاستعاذ الله من أن يكون ذلك هزءا بهم وسخرية .

ولما سألوه عن كنهها ولونها بين لهم ذلك كله . وكان فى كل استفسار يصعب لهم المسألة ، وماذلك إلا بيانا للناس بأن بنى إسرائيل جبلوا على عدم امتثال أمر الله وعدم المسارعة إلى أمره ، فكان من عادتهم المماطلة ، والمطاولة ، فكان جزاؤهم أن طلب الله بقرة معينة بأوصاف ليس من السهل العثور عليها ، إذ لو امتثلوا من أول الأمر لجاز لهم أن يذبحوا أى بقرة ، ولكن لما ماطلوا وجادلوا أضاف الله شروطا معينة للبقرة المطلوبة .

جاءوا بالبقرة فذبحوها ، ثم جاء موسى فأخذ لسانها وضرب به القتيل فحيى وأخبر بقاتله ، فكان ذلك معجزة أظهرها الله على يديه . لكن قلوب بنى اسرائيل

بقيت ـ على الرغم من ظهور تلك المعجزة أمام أعينهم ـ على قساوتها كأنها الحجارة أو أشد قسوة منها .

لكن الشيخ عبد الوهاب النجار ذكر رأيا آخر، فقال فى كتابه : « قصص الانبياء » : « إذا نظرنا إلى القصص التى قصها الله فى هذه السورة قبل هذه القصة ـ وكلها متعلقة ببنى إسرائيل ـ وجدنا كل قصة مستقلة عما قبلها وما بعدها مبدوءة بقوله تعالى : « وإذ »

اقـــــرءوا :

« وإذ نجيناكم من آل فرعون ـ وإذ فرقنا بكم البحر ـ وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ـ وإذ آتينا موسى الكتاب ـ وإذ قال موسى لقومه ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم ـ وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ـ وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية ـ وإذ استسقى موسى لقومه ـ وإذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد ـ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور ـ وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ـ وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها » .

فهذا النسق المطرد الذى لم يتخلف يجعل مسألة قتل النفس والتدارؤ فيها مسألة مستقلة بنفسها،غير مرتبطة بما قبلها ولا مدمجة فيها . وقد حاك فى نفسى أن هاتين القصتين تفهمان على ضرب آخر من الفهم،وقد قوى عندى ذلك كل القوة .

ذلك أن القصة التى أمر فيها موسى قومه بذبح البقرة، لم يكن الغرض منها الاتيان بكل ما اشتملت عليه، واندرج فيها من الحالات والأحكام ؛ بل لغرض أن يقص الله تعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم نموذجا مما بلغ إليه تعنت بنى إسرائيل فى إبطائهم عن امتثال أمر الله ومطاولتهم ومماطلتهم فى تنفيذ ما يأمرهم به ، دون استيفاء القصة استيفاء كاملا يشتمل على بيان الحكمة الباحثة على أمرهم بذبح البقرة ، بل هو يقص علينا نمطا من تعنتهم وصلابة أعناقهم .

وأما القصة الأخرى المبينة فى قوله تعالى :

« **وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها** » .

فانه تعالى يقص علينا فيها لونا من أفضاله على بنى إسرائيل وحل مشكلاتهم بطريقة لم تخطر لهم ولا لبشر ببال ، وظلت هذه الحكمة العالية المشتملة عليها تلك الطريقة غامضة على بنى إسرائيل ، وعلى جميع البشر الأجيال الطوال .

والذى فهمته من القصة الأولى أن بنى إسرائيل قد وقعت عندهم واقعة قد حاروا فيها وهى أن شخصا قد قتل فى الحقل . وهم لايدرون من الذى قتله ، والحقل واقع بين بلاد كثيرة فأى البلاد تلصق بأهله تهمة القتل ؟ رفعوا أمرهم إلى موسى فما كان جوابه إلا أن قال لهم : « إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة » . ولما كان الجواب بعيدا فى رأيهم عن الغرض الذى جاءوا لأجله وقع ذلك عندهم موقع الغرابة وقالوا لموسى :

« **أتتخذنا هزوا ؟** »

ولما كان موسى إنسان صدق، بعيدا عن الهزء والسخرية بعباد الله ، قال لهم : أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين الذين يهزءون بعباد الله .

ثم كانت المراجعة بينهم وبين موسى وربه ، حتى بين لهم شأن البقرة ولونها وأحوالها أتم بيان ، ومع ذلك لم يمتثلوا ، بل ذبحوها بعد إذ كادوا لايفعلون ، أى أنهم ذبحوها بعد جهد شديد .

أتى موسى برجال أقرب محلة من مكان القتيل وأحلفهم عليها بعد ذبحها ـ أى وهى أمـامهم ـ أنهم ما قتلوا القتيل ، ولا علموا به وأنهم برآء من دمه ، وكانوا يغسلون أيديهم على البقرة كما نص ذلك فى التوراة .

هذه اليمين فى شريعتهم كيمين القسامة عندنا معشر المسلمين . إذا قتل قتيل فى محلة غير محلة قومه ،أو بقرب تلك المحلة ،ولم يعلم قاتله،وكان هناك لوث يقع به فى النفس صدق المدعى ـ وهو ولى الدم (واللوث : القرينة) ، حلف خمسين يمينا ، واستحق الوارث بالقسامة فى القتل الخطأ أو شبه العمد ـ وكذا فى القتل العمد ـ الدية حالة على المقسم عليه . ولا قصاص فى العمد ، لأن القصاص

حجة ضعيفة فلا توجب القود احتياطا للدماء . وإن لم يكن هناك لوث ، أو أنكر المدعى عليه اللوث فى حقه فاليمين على المدعى عليه . . . . .

. . . . فتلك عند اليهود شرع كالقسامة عند المسلمين .

وأما القصة الثانية وهى قوله تعالى : « وإذ قتلتم نفسا . . . » فهى فى شأن قتيل وجد قتيلا فى بيته ، أو محلة قومه ، أو سقط فى معركة فيها جماعة ، وقد دفع كل واحد القتل عن نفسه ، ولم يتعين قاتله تماما ، وكل واحد يتهم سواه بالقتل . وحينئذ يكون المتهمون محصورين ، والقاتل لايخرج عنهم بدليل قوله تعالى : « **فادار أتم فيها** » .

ولما كان الله تعالى مخرجا ما يكتمون من القتل ، علمهم طريقة يميز بها القاتل من البرىء . أو هى على الأقل تضيق دائرة الاتهام ،وتوجه نظر القاضى إلى استنباط الأدلة على المتهم ، أو من له اتصال بالقتل .

ذلك بأن يأتوا بالمتهم ثم يضربونه بجزء من تلك النفس ـ أى من القتيل ـ وهو متصل ببقية الجسم ، بأن يأتى واحد ويضرب المتهم بيد القتيل أو رجله ، فاذا كان المتهم بريئا لم يحدث له شىء ، وإذا كان قاتلا ظهر عليه انفعال نفسى ورعدة يعلم بسببها أنه القاتل دون سواه ، أو هو على اتصال به .

وهذا الانفعال قد يكون فرحا وجذلا ، وقديكون خوفا ورعدة ،تبعا لسبب القتل .

وهذا الأمر يرجع إلى أحوال الغرائز النفسية ، وإلى العقل الباطن فى الإنسان ؛ ذلك أن القاتل حين يباشر الجريمة ـ وبخاصة القتل ـ يكون واقعا تحت تأثير انفعال خاص يغلى منه دمه . يدفعه ذلك الانفعال إلى ارتكاب جريمة القتل ، فإذا سكن ثائره ،وهدأت أعصابه ، وزال ذلك الدافع الذى أكسبه الجرأة حتى طوعت له نفسه ارتكاب الجريمة ، عاوده الندم وتبكيت الضمير ، وصار شبح الجريمة ، مخيفا فى نظره ، ويتمثل له شبحها فى كل شىء يتعلق بها ، فهو يكره

رؤية مكان الجريمة والأشياء التى رآها رؤية مقارنة لارتكابها ،وتضطرب نفسه ، ويرتفع نبضه ، ويسرع إذا ذكر بشىء من الجريمة .

ويكثر أنه إذا أدخل على القتيل، أو عرض عليه تألم أشد ألم عرفه ، واضطرب ، ولم يستطع النظر اليه ، ولا إلى مكان حدوث الجريمة . فكيف إذا حرك عضو من أعضاء القتيل وضرب به القاتل ؟ لاشك أن ذلك العمل يكون ذا تأثير عظيم فى أعصابه لا يطيق معه ذلك المنظر .

هذا اذا كان القتل لحادث عارض . أما إذا كان انتقاما للشرف أو الثأر، فان الأعراض التى يأتى بها الانفعال تكون فرحا وجذلا .

وقد استشهد على صحة رأيه بوقائع ، أمده بها المحققون فى جرائم القتل من بلاد مختلفة ، فليرجع إليها من يريد المزيد من التوضيح فى هذه المسألة .

تم ـ بحمد الله ـ الجزء الأول ، ويليه ـ إن شاء الله ـ الجزء الثانى .

راجــع

أهــم المــراجــع

- ابن خلدون : المقـــدمـــة
- ابن كثير : تفسير القرآن العظيم
- احمد أمين : ضحى الإسلام
- الثعلبى : قصص الأنبياء
- الرازى : التفسير الكبير
- الذهبى (د/ محمد حسين) : التفسير والمفسرون
- رشـيد رضـا : تفسـير المنـار
- الطـبرى : جـامـع البيـان فى تفسـير القرآن
- عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء
- محمد احمد جاد المولى : قصص القرآن الكريم
- محمد إقبال : تجديد الفكر الدينى
- محمد البهى : التفسير الموضوعى للقرآن الكريم
- محمد شـامـة : بين الاسلام والمسيحية
- محمود حمزة وآخرين : غاية البيان فى تفسير القرآن الكريم
- وحيد الدين خان : الإســلام يتحـدى
  الدين فى مواجهة العلم
- موريس بوكاى : القرآن الكريم والتوراة والانجيل
  (دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة)

(مراجع كتاب فى رحاب القرآن الكريم)

دار المدينة المنورة للطبع

ت : ٣٩٠٨٨٤٨

رقم ايداع ٧٠٤٥ / ١٩٨٨

دولى رقم ١ - ١٣ - ١٥٦٠ - ٩٧٧

الجزء الثانى يصدر قريباً

